

الحمار

جونتر دي بروين



ترجمة صنع الله إبراهيم

الحمار

تأليف
جونتر دي بروين

ترجمة
صنع الله إبراهيم



Buridans Esel

Günter de Bruyn

الحمار

جونتر دي بروين

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٧٩ ٢

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الألمانية عام ١٩٦٨.

صدرت هذه الترجمة عام ١٩٧٧.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ صنع الله إبراهيم.

المحتويات

٧

٩

قبل أن تقرأ

الحمار

قبل أن تقرأ

واكبت سنوات مُراهقتي نهايةَ العهد الملكي في مصر. كانت البلاد تَمُوج بدعوات التحرُّر الوطني من الوجود الإنجليزي العسكري، والتحرُّر الاجتماعي من سيطرة الإقطاع، ومن الأمية والمرض والحَفَاء! ... وشكَّلت هذه البيئة وجداني، وخاصةً الحديثَ عن أن المعرفة هي كالماء والهواء يجب أن تكون للجميع وبالمجان.

وفي مغربٍ يومٍ من سنة ١٩٥١م، كنا أنا وأبي عائدَين من زيارةٍ لأحد أقاربنا في شرق القاهرة. توقفنا في ميدان العتبة لنأخذ «الباص» إلى غربها حيث نقطن. اتخذنا أماكننا في مقاعد الدرجة الثانية. نعم! كانت مقاعد «الباص» آنذاك — والترام أيضًا — مُقسَّمة إلى درجتَين بثمانَين مُتفاوتَين للتذاكر التي يُوزَّعها «كمساري» برداءٍ أصفر مُميز أثناء مروره على الرُّكاب.

جلسنا أنا وأبي خلف الحاجز الزجاجي الذي يفصل الدرجَتَين، وتابعتُ في حسي رُكَّابَ الدرجة الأولى، بينما كان أبي غارقًا في أفكاره التي تُثيرها دائمًا أمثال هذه الزيارات. قلتُ بحماسٍ طفولي: «سيأتي اليوم الذي يزول فيه هذا الحاجز، بل ويصبح الركوب بالمجان.»

تذكرتُ الروايات التي أعشق قراءتها فأضفتُ: «والكتب أيضًا!»

تطلَّع إليَّ باستياءٍ من سذاجتي: نعم! الكتب بالمجان؟ يا لها من سذاجة! ولم أتصوِّر وقتها أن يأتي اليوم الذي تُصبح فيه كُتُبي أنا متاحةً للقراءة بالمجان! وذلك بفضلِ مُبادرةٍ جريئةٍ من مؤسسةٍ مصريةٍ طموحة، فشكرًا لها!

صنع الله إبراهيم

الحمار

١

بدا الأمر هكذا: كان كارل إرب يبتسم عندما استيقظ، لكنه لم يكن يعرف السبب. لم يتذكر أنه كان يحلم. وفيما بعد — بعد قليل — تذكر الفرويلين، الأنسة، برودر. لنقل إنه بدا له فيما بعد أنه كان يبتسم عندما استيقظ في ذلك اليوم (هذا هو ما قاله للأنسة برودر: «كان الأمر غريباً. كان بوسعي أن أشعر بشفتي تتقوسان في ابتسامة، وبعد بضع دقائق ظهرت صورتك. أجل، هكذا بدا الأمر معي.») ومن المحتمل أنه يصدق اليوم هذه الرواية؛ فلم يعد يعرف أنه في ذلك الصباح، مثل كل صباح، كان المنبه قد انتزع من النوم العميق، وأنه في البداية أخذ على نفسه عهد الصباح الباكر المؤلف بأن يلجأ إلى الفراش مبكراً، ثم استقصى الأجزاء السخيفة من برنامج اليوم، ثم فكر في ذقنه وهل يحلقه في المنزل أم في المكتبة. ولم يخطر بباله أنه أقل ضيقاً من المؤلف إلا عندما داعبت يده الخارجة من دفء الفراش ذقنه البارد، وقاده هذا إلى البحث بارتياح عن الأسباب، وهو بحث أدّى به أخيراً إلى تقوس الشفتين المشار إليه أعلاه. وبعد ثوانٍ قليلة، أدرك أنه من البله أن يقبع رجل في الأربعين بفراشه مبتسماً في صباح قاتم، وهكذا عاد ركننا فمه إلى وضعهما الطبيعي. وكانت عودة وجهه إلى حالته الطبيعية تعني أنه قد أرغم على الانصياع إلى جدول أعمال الصباح الطبيعي. خمس دقائق في الفراش بين النوم واليقظة، ثم خارجه في شيء من الترنح ولكن دون إشعال الضوء، ثم فتح النافذة وخلع المَنامة، وعشر مرات من ثني الركبتين ومد الذراعين، وفي نفس الوقت نظرة من النافذة إلى شجر التفاح الممتد في رمادية الفجر، والضباب الواطئ الذي حرّمه من منظر نهر شبريه، والمنزل المقابل، وصائد الأسماك العجوز ذي القُبعة الرمادية، المصنوعة من الفراء، والذي كان يظنه أستاذًا

جامعيًا متقاعدًا. دَعَكَ كَرشُهُ الناشئة بلهفَةً يائسة، وهَتَفَ في الضباب بتحيةِ الصباح، متلقياً إجابةً بصوتٍ رفيع. وكالعادة تجنَّب أن يسأل عن موقف الأسماك من الطُّعم؛ فربما أفزَعَهَا الصوتُ المرتفع وجَرَفَهَا بعيدًا.

كان كل شيءٍ ما زال هادئًا في حجرة الأطفال. عَبَرِ الصالة المظلمة بخطى واثقة، وهبَطَ الدَّرَجُ إلى جوار الدرايزين؛ لأن الدرجات كانت تُصَدِرُ صريرًا في منتصفها. وفي طريق عودته من الحَمَّام لم يعبأ بهذه الاحتياطات؛ لأن موعد استيقاظ الأسرة قد أَرَفَ. وقبل ثلاث سنوات كان يزحف دائمًا، عاريًا باردًا، إلى فراش إليزابيث ليُلَاطِفَهَا بكلماتٍ من إنشائه أو إنشاء الآخرين؛ ففي صباحٍ مماثل كان سيقول في الغالب: إن الضباب يتحرَّك في دوامات، وأوراق الأشجار تتجعد، ولو أزلت أحلامي بقُبَلاتك، فسوف أكسو اليوم بطلاءٍ من الذهب^١ أو شيء من هذا القبيل. لكن كل ما يفعله الآن هو أن يفتح الباب ويهمس: «أخشى أن الوقت قد أَرَفَ». ويسرع إلى غرفته ليرتدي ملابسه مستغلًا الدقائق التي كَسَبَهَا بذلك في تقليب صفحات الكتب الجديدة التي لم تُقْرَأْ بعدُ والمكُوِّمة إلى جوار فراشه. لكنه في هذا الصباح لم يكن قادرًا على استيعاب شيءٍ مما يقرأ؛ لأنه كان يُحاول أن يجلو صورة الأنسة برودر في ذهنه، وهي مهمةٌ مبهجة لكن شاقَّة، تابعها وهو يُخْرِجُ سيارته الثرابانت^٢ من الجاراج ثم يعود ليجلس — في السابعة وعشر دقائق تمامًا — إلى مائدة الإفطار.

في هذا الصباح بدأ الأمر كله بالابتسامة ومحاولة استعادة صورتها. من الضروري أن نوَكِّدَ ذلك، حتى لا تتجلَّى شخصية كارل في ضوءٍ زائف، أو على الأقل ضوء الفجر الكاذب أو الضوء الأخضر السام للأناثية؛ لأنه في هذه الحالة سيَلِجُ الكتابُ موصومًا بعلامة السلب؛ فلو كان يعرف في الأمسية السابقة بابتسامة الصباح، لكانت راحةً باله رياءً خالصًا، ولكانت موضوعيته مجرد وسيلةٍ لخدمة مصالحه.

لكنه ما كان يستطيع ذلك؛ فقد كان الإحساس بالإثم كفيلاً بأن يُجرِّده من الثقة التي جلبت له النصر. كان مقتنعًا أنه اتخذ القرار بموضوعية، ولم تخطُرَ لأحدٍ من الحاضرين أية شكوك، ولا حتى هازلر، وهو الوحيد الذي صَوَّتَ ضد القرار، بل إن هازلر لم يتهمه أبدًا فيما بعدُ اتهامًا مباشرًا بأن حماسه لتعيين الأنسة برودر كان بدافعٍ شخصي، وكل

^١ من الشعر الألماني في القرن الخامس عشر.

^٢ السيارة الشعبية التي أنتجتها ألمانيا الديمقراطية في بداية الخمسينيات.

ما فعله هو أن أوضح أنَّ انطباعًا مماثلًا قد تكوّن لدى الآخرين في الاجتماع، وكل من يعملون في المكتبة، وهو انطباعٌ لا يمكن دحضه.

إن شيئًا كهذا لا يبدأ بابتسامة في الصباح، وبالتأكيد لا يبدأ فجأة. إنه يبدأ تدريجيًا، خفية، في سكون، وبطء. إنه ينمو يوميًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر، بصورة غير ملحوظة، حتى إنك تستطيع أن تُغفل العلامات بعد نصف سنة، وتُعطي صوتك لأمانة المكتبة — تحت الاختبار — برودر (وُضد أمين المكتبة — تحت الاختبار — كراتش) بثقة تامة، وبضميرٍ مستريح وحُججٍ قوية لا تُبرِز فقط عنايتك بشأن المكتبة، وإنما أيضًا اهتمامك بالفرد. إن معرفتها عظيمة للغاية، لا أحد يستطيع إنكار ذلك، وموقفها الإيجابي من العمل فوق كل تساؤل، ولا بدّ أيضًا من أن يُؤخذ في الاعتبار أنها ولدت ونشأت في هذه المدينة. أليس هذا صحيحًا؟! كان من المستحيل قبول مزاعم البعض بأن تمسكها الصارم باللوائح يثير الإزعاج، أو أن بعض الإناث الشابّات من العائلات قد يُرحبن بانضمام رجلٍ إليهن. ألم يكن عملها ذا نوعية بارزة؟ أمرٌ لا شك فيه. حتى هازلر نفسه اضطرّ للاعتراف بذلك، لكنه عاد يثير الجدل من البداية ليتجنّب الهزيمة. لكنه سرعان ما أصبح يقف بمفرده؛ إذ كان منتصف الليل قد اقترب، وهو موعد آخر قطارات المترو السفلي، بل إن أولئك الذين أخذوا جانبه في البداية بدّءوا يشعرون بالتعب، وهم يعرفون أن رئيسهم يفضل مواصلة النقاش حتى الفجر على تغيير وجهة نظره؛ لهذا تنازلوا عن موقفهم، وأعطوا أصواتهم للآنسة برودر، وهم يصفقون أقفال محافظهم الجلدية في نفاذ صبر، ويزيحون مقاعدهم في ضجّة، بينما هازلر يخطر جيئةً وذهابًا فوق ساقه الزائفة التي تُحدث صريرًا، معلناً آراءً يشاركونه فيها حقيقة؛ فعلى سبيل المثال، ليس العمل في مكتبة عامة عملًا مع الكتب وحدها، لكنه عملٌ من أجل الجمهور، وثقافة الآنسة برودر، رغم كل مزاياها، تتميز بشيءٍ ما سلبي إذا ما نُظر إليها من هذه الزاوية. «أتدرك يا رفيق إرب، إنها ليست محبوبّة من زميلاتنا والقراء؟ حقًا أن عاملات النظافة يعبدنّها ولا أدري ما هو السبب، ربما لأنهن يبحثن عن شيءٍ ما يُعجبن به، ولا يصلح الآخرون لذلك لأنهم على قدرٍ كبير من الشفافية، لكن عندما يتطلّب مني الأمر الاحتكاك بالآنسة برودر، أخشى دائمًا أن تتجمد مشاعري. وهذا هو أيضًا، عدا استثناءاتٍ قليلة، ما يشعر به الآخرون. ربما نكتفي بالقول إنها تفتقد إلى الحرارة، وهو ما يحتاج إليه الكُتّيب كما تحتاج الصلاة إلى البخور. وكى أكون أمينًا، أقول إنها لو كانت بيننا الآن ما استطعتُ الحديث هكذا؛ لأنني سأخشى ابتسامتها وأسئلتها التي سأضطرّ إلى تجنبها كي لا أفضح الطابع غير العلمي لأرائي.»

هذا ما قاله هازلر. وقد اعتَبره إرب موقفاً شخصياً؛ لأنه نفسه كان من تلك الاستثناءات القليلة، إذ كان يستمتع بكل لقاءٍ مع الأنسة برودر. وكي نحدد طبيعة العلاقة بين برودر وهازلر، يجب أن نوضح أنها كانت امرأةً جميلة، لكن بعيدةً المنال بالنسبة إليه.

السؤال هو: من رآها جميلة؟ حتى إرب اعترف فيما بعد أنه كان عليه أن يتعلم كيف يرى جمالها. وكان يفكر في هذا ذلك الصباح، بينما كانت طقوس الإفطار تجري طبقاً للجدول المحدد؛ تفاحة، الخبز الصحي الخاص بالرجيم، عسل ولبن، بيض نصف مسلوق، ثم القهوة (وكاكاو للأطفال) مع بسكويت منزلي. كان الموضوع الوحيد المصرح به أثناء الطعام هو الطعام نفسه، أما بقية الموضوعات فكان موعدها هو سيجارة ما بعد الوجبة، وهكذا كان لدى إرب الوقت لاستجلاء التحول الغريب في صورته من الأنسة برودر. لقد بدأ كل شيء قبل أن يلتقيا؛ فقد تلفنت له ناظرة المدرسة وقالت: سوف تحصل على ما تريد، اثنتين من خبراء الأرفف المفتوحة، يمكنك أن تختار أيهما، وكلاهما سيفوز بدرجات جيدة، وسيكون الأمر حسناً لو استيقيت الفتاة لأنها من برلين، من النوع الذي يذوي إذا أبعد عن المدينة، ليس من السهل التفاهم معها؛ فهي واعية لنقاط الضعف في الناس والأشياء، وذكاؤها يفوق أحاسيسها، إنها ليست كوب الشاي لكل إنسان، لكنني أستطيع أن أوصي بها.

لكنها لم تبدُ على تلك الدرجة من السوء التي توقعها إرب بعد ذلك الوصف. لم تكن ترتدي نظارات، ولم تكن ثنيثا الحياكة في جوربها معوجتين، وكانت سترتها ورداؤها متسقين مع جسدها. لم يكن بها ذلك الشحوب المميز لمن يقضي أغلب الوقت بين أربعة جدران، ولم يكن في مشيتها ووقفاتها وطريقة جلوسها ما يوحي بالعكوف على طاولة الكتابة، كما أن شيئاً في وجهها لم يش بالكبح والكبت أو التعالي. كانت هادئة، طبيعية وواثقة من نفسها، تتحدث الألمانية التي يتحدثها المتعلمون دون أثر من اللغة الدارجة ودون جهد خاص، ولم تبذل محاولة للإبهار أو الإغراء. وبدا أن أسلوبها لم يتأثر بأن إرب هو رئيسها، ورجل في الوقت ذاته؛ فقد ظلت متحفظةً وتركت الآخرين متحفظين. وقد أحدث ذلك انطباعاً جيداً لدى إرب. أما الأثر المستتر من الضيق فكان خفيفاً بحيث لم ينع، تجنّب أن يلجأ معها إلى النكات واللمسات الشخصية التي كان يدّخرها للعاملين العصبيين، وحرص على أن يكون مقتضباً وعملياً، فخالجه الشعور اللطيف بأنه كان نداءً لها. وعندما تركت الغرفة لم يكن لديه أدنى فكرة من شكلها. وكان قميناً بأن يجيب لو

سئل عن وجهها بأنه بارد، متحفظ، وحاد، يبعث على الاهتمام لكنه لا يثير البهجة. وبعد نصف عام فقط، أمام مائدة الإفطار، خطر له الوصف الصحيح لوجهها؛ جامد لكن بمعنى أنه مصمت حازم، مستغلق، مقاوم. سرته تلك الكلمة كما لو كانت اكتشافاً عظيماً، ليس فقط لأن القدرة على تعريف شيء ما هي منتصف الطريق لامتلاكه، لكن أيضاً لأنها الكلمة المناسبة، وبهذا أبرز قدرته على التوصل إلى حكم موضوعي. لم يلحظ كيف كان يخدع نفسه؛ فبينما كان يفكر في الكلمة، إذا بها تكتسب معنى خاصاً بالنسبة إليه. أصبحت مرادفاً للجمال؛ ذلك أنه في تلك الأثناء، أُتيح له أن يرى الأنسة برودر تضحك، وبينما كان يشرب اللبن المحلى بالسكر، بغضاضة لم يعترف بها أبداً، استعاد حركة شفثيها، وسمع لهجة صوتها الناعمة التي أحياناً ما أثارت ارتباك الناس.

لم يكن من السهل مقاومتها عندما تخترق روحها الطبيعية تحفظها المصطنع. وقد وصف هازلر ذلك بأنه خداع؛ لأنه كان في حاجة لحماية نفسه من السحر الذي هزم كارل. كان ما وصفه هازلر دهاءً، وكان طبيعياً. طبيعية مستخدمه بدهاء. كان إرب يعرف ذلك، وفي ذلك الصباح كان يستخدم معرفته بدهاء. سمح لنفسه أن يتأثر بتلك النعومة الساذجة (لأنه كان في حاجة لأن يتأثر). وأعجب بالدهاء الذي أثار مجالات أخرى غير المشاعر (عندما اعترف لها فيما بعد بأنه سرعان ما اكتشف حقيقتها، ضحكت، وعرف الاثنان في تلك اللحظة أن هذا أيضاً سوف يربط بينهما كائنين من المتأمرين). وتذكر أيضاً أنه أدرك منذ وقت مبكر أن هذه الفتاة لا يمكن أن ترضى بشاب في سنها.

في تلك الأثناء كانت إليزابيث تشرح لطفليها بهدوء تأثير الفيتامينات (دون أن تُبرز أنها أيضاً تعاني من طغيانها)، وتلوم بيتر الذي كان يحاول أن يوضح لأخته كيف سقطت أسنان البحارة المصابين بداء الإسقربوط في اللحم المملح الذي يأكلونه، ثم وجّهت إلى زوجها سؤالاً، تلقت عليه الإجابة بكل بساطة. وتقبّلت الإجابة.

لم تشعر حتى بعدم الارتياح، رغم أن السؤال كان: هل ستعود هذا المساء في موعدك؟ كانت تعرفه جيداً بحيث تُوقن أنها ستعلم كل شيء، لكن ليس في الصباح؛ فلم يكن قادراً على الاحتفاظ بسرٍّ ما. وفي مساءٍ قادم، عندما يكون الأطفال في أسرّتهم، وهو قد فرغ من قراءة رسائله، وهي قد حدّثته عن يومها، عندئذٍ سيبدأ: هل تذكرين يوم الأربعاء الماضي، عندما عدت بعد منتصف الليل؟ وستطرق برأسها وتنتظر، وتبدي اهتمامها بأسئلة ثانوية لا يجب أن تبدو استجواباً، فإذا كان الأمر مشكلة في العمل فستدلي برأيها، أسفاً أو إعجاباً، وإذا كان يتعلق بفتاة فستدفن كل مشاعر الغيرة وتبدي عطفها على البنت المسكينة؛ لأن

الفتيات في أحاديثه كن دائماً جديرات بالشفقة؛ إما لأنهن كن يعبدنه، ودفعته طيبة قلبه لأن يستجيب لهن قليلاً، حتى لاحظ أن الأمور بدأت تخرج عن سيطرته، وإما لأنهن كن غيبات بصورة مروعة ومنفّرات، وهو ما اكتشفه متأخراً بعض الشيء، لكن في الوقت المناسب. لم تكن تخشى المغامرات التي من هذا النوع؛ لأنها جميعاً كانت تنتهي دائماً، سواء افتُضحت أو بقيت سرّاً، بأنشودة عن جمالها وحكمتها وطيبتها، وقدرتها على الفهم، وطاقتها، كان النصر دائماً من نصيبها، رغم أنها حدّست أنه في حالة أو أخرى لم يكن المعبود وإنما المتعبّد، وأن الفم لا الوجنة هو ما تم تقبيله، وأن البراندي لا الليمونادة هو ما كان يجري احتساؤه. كانت واثقة أنه لم يخدعها، لم يفصم عرى الزوجية، رغم أنه قد يكون أسفاً على أنه لم يفعل. ولحسن الحظ أنه لم يكن يفتخر بذلك، ولم تكن ترى من سبب لأن يفعل. كل ما هنالك أنه لم يواصل الأمر حتى النهاية، ببساطة فقد اهتمامه سريعاً، لا أحد يعلم لماذا، ربما لأنه يفضّل العودة مبكراً إلى المنزل لينام جيداً، أو ربما بسببها. كانت تعرف بالخبرة أن كل مغامرة جديدة تنتهي ببساطة، لكنه لا يفقد أبداً اهتمامه في الشروع بواحدة أخرى. ولعله كان في حاجة ماسة إلى أمثال هذه المغامرات. ولم تكن تسعى لإقناعه بالعدول عنها. كانت تعرف كيف يمضي الأمر؛ فهو يستعرض في الصباح المغامرات المحتملة لهذا اليوم ويتذكّر وجهها ما، عندئذ يفيض إطرأً ومداهنة، ويعلن أنه لن يعود في موعده مساءً. ثم في وقت لاحق، عندما يكون الأطفال في أسرّتهم، يخفّف عن ضميره الذي لم يتلوّث إلا قليلاً، ويتلو غنائيته، مدرّكاً أن زوجته وطفليه ومنزله وحديقته هي أجزاء من نفسه، مثل يديه وشعره وشفتيه اللتين لم تجدا سوى متعة محدودة مع الفتاة الغريبة. ولهذا فإن «لا» التي لفظها رداً على سؤالها لم تكن مدعاة للقلق، مثلها مثل رشفتها الأخيرة من قدح القهوة، وخطواته المعدودة نحو السيارة، والتفاتته المصحوبة بقبلة أثناء ابتعاده.

٢

ألم تشعّر بالقلق أو الغيرة؟

إنها على الأقل حاولت أن تكبت هذه المشاعر. وقد أوشكت أن تنجح بسبب ما لديها من خبرة كبيرة، لكن ربما لم يكن هذا هو السبب. لعلها نجحت لأن لديها من المتاعب والأحزان الخاصة ما جعل غراميات البيوت الزاجاجية (التي تزدهر في المساء وتذبل في الفجر) التي يقوم بها إرب تبدو عديمة الأهمية. وفيما بعد، في الفصل الثامن، ستُحاول أن تشرح هذا

لرجل آخر فتضرب مثلاً بالقمر الذي يدور حول كوكبه؛ لأن قانون الحب يتطلب ذلك، أو هكذا يبدو. أما في ذلك الصباح، بينما وقفت في الحديقة الأمامية، وسط آخر زهور الخريف النجمية الزرقاء، تبتسم وتلوح لطفليها مودّعة، لم تكن قد فكّرت بعد في ذلك التشبيه، لكنّ شعوراً ثقیلاً كان قد استولى عليها، مثلما يحدث دائماً عندما تنفرد بنفسها في المنزل لتواجه جبلاً من الأعمال تُزيحه كل يوم ليظهر في اليوم التالي.

أما كارول فكان مرحاً؛ فرغم إيمانه بأن الأجدى للطفلين أن يقطعوا على أقدامهما تلك الدقائق العشرين التي تفصلهما من المدرسة، إلا أنه كان يصحبهما دائماً في سيارته؛ لأنه كان يبتهج بالحماس الذي يرتقيانها به، وبالكبرياء التي يغادرانها به أمام زملائهما، صافقين بابها بقدر ما وسّعهما من طبيعية. وفي هذا الصباح ضحك أكثر من المعتاد وودّعهما بمصابيح الإشارات بينما كان ينطلق مبتعداً. وكالمعتاد وصل المكتبة في موعده تماماً، حيث همست له سكرتيرته، أن هازلر في انتظاره.

ضحك إرب كثيراً، لكنه فكّر أيضاً كثيراً أثناء انطلاقه بالسيارة عبر المدينة، ولهذا السبب تستحق الرحلة أن تُذكر (من قبيل المصادفة أنه لم يقل أبداً: أنا ذاهب إلى المدينة. لكنه كان يقول دائماً: أنا ذاهب إلى برلين. مقلداً بذلك جيرانه المتقدمين في السن الذين لا يريدون الاعتراف بأن ضاحيتهم كانت طوال أكثر من أربعين عاماً جزءاً من برلين. وقد أشار هو إلى ذلك في حديثه مع الأنسة برودر ذات مرة، كمثال على السرعة التي يتكيف بها المرء مع المكان الجديد الملائم لطبيعته ومزاجه، فقد كانت الضاحية الواقعة على نهر شبريه متسقة معه للغاية من كافّة النواحي). وهكذا ضحك مع طفليه، لكنه كان يدرك في الوقت نفسه أن علاقته بهما ضعيفة ومدعاة للتساؤل. هل يؤسعه أن يتخيّل الحياة بدونهما؟ واجه هذا السؤال للمرة الأولى، وفوجئ عندما أدرك أن ردّه كان دونما تردّد بالإيجاب ... كان يراهما قليلاً. كل صباح، بعض الأمسيات، أكثر قليلاً في أيام الأحاد، ولا يراهما على الإطلاق أثناء العطلات. لم يكن يطمح لأن يكون مربياً، وكان يحبّ تسليتهما، لكنهما كانا في الأغلب مصدر إزعاج له أثناء عمله أو راحته التي يستحقها عن جدارة. وعندما يكونان بعيداً في معسكرٍ للعطلات لم يكن يفتقدتهما، رغم ما يغشاه من رعبٍ إذا ما خطر له أن شيئاً قد وقع لهما — حادثه أو مرضاً. كان على استعداد لأن يقوم بكل ما وسّعه ليراهما صحيحين، مكتفين، سعيدين، ولا أكثر من هذا. وعلى وجه الخصوص، لم يشعر أبداً نحو أكبرهما، ذلك الذي استقر بجواره في السيارة، وجعل يعلّق على كل حنيّة وكل علامة مرور وكل عربة، بما يُسمى بنداء الدم. استرق نظرة إلى ابن الحادية عشرة الذي يُثرثر بنضج

مبكر إلى جواره، وشعر — كدأبه دائماً — بغربة وجهه الشاحب، الذي لم يكن يُشبهه في شيء له أو لإليزابيث. ولو كانت قد التقطته من دار الأيتام بدلاً من أن تلده في الآلام، ما اختلفت مشاعره نحوه. كان مسئولاً عنه، قانونياً، وأخلاقياً، وقد ألفه، وهذا هو كل ما هنالك.

لماذا يحمل مشاعرَ مختلفة لكاتاريننا؟ لا شك أن كونها أنثى عابثة، تتوق للحنان، وتُعجب به، قد لعب دوراً في ذلك. نادراً ما تجرأ على لمسها، بعد أن رأى كيف تُعامل الأمهات الشابات صغارهن العُراة. لكن ربما كان المهم أن كاتاريننا كانت مثله (أو كما يظن نفسه) هادئة الأعصاب، معقولة، متفوقة، وأكثر جدية بكثير من شقيقها الأكبر وأمهر منه. لعل إرب كان يعشق نفسه فيها وحسب. كان يعترف بذلك في لحظات الميل إلى الصدق التي تأتيه في الصباح الباكر، لكنه في الوقت ذاته كان يجد العُذر؛ فكل ألوان الحب أقرب إلى الأنانية منها إلى العطاء. وربما جاء الوقت الذي يتم الاعتراف فيه بذلك، بعد أن تحقق ذلك في مجالاتٍ أخرى. وأصبح من المسموح به اليوم أن تفكر وتقول إنك تُحب وطنك لأنك تعيش فيه على وجهٍ مريح.

ولماذا كان يُحب إليزابيث؟ لأنه كان يستريح للحياة معها؛ لأنها لم تُغضبه أبداً؛ لأنها لم تكن أبداً مصدر إزعاج، ولم تفرض نفسها عليه أبداً أو حدثت من شأنه؛ لأنها تكيّفت جيداً معه ومع عمله بصورة غير عادية. بوسعكم القول إن هذا أيضاً أنانية، لكن من أضرار من ورائها؟ ليست هي بالتأكيد؛ فهي لم تشك أبداً، ولم تُعارضه مطلقاً، فلا بد إذن أن تكون سعيدة، أو (بمزيد من الحذر) راضية. هكذا جرت أفكاره، كاشفة عن قدرات هائلة في ميدان تحليل الذات وتبرئتها في الوقت ذاته، وهي قدرات كانت عوناً عظيماً له في عمله الإداري (فليس بوسع كل إنسان أن يكون ناقدًا فعلاً لعمله، ويقدم في الوقت نفسه التفسيرات الملائمة التي تُساعد على اغتفار كافة الأخطاء). كانت رغبته في الصدق تفتقد إلى الثبات النهائي، وخاصة أن الأمانة والنزعة العاطفية كانتا سمتين متلازمتين في طبيعته. وبدلاً من أن يفكر في السبب الذي جعل إحساسه الداخلي بقرب الفراق يدفعه للقيام بهذا الجرد لحساباته، سمح لنفسه بالاستسلام لفيض من الذكريات المؤثرة؛ فقد ذكره الطريق، وشاطئ البحيرة المنعزل، وغابة الصنوبر، والأشجار المجردة من أوراقها، بيوم أحدٍ منذ ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً مضت، عندما ارتحل في هذا الطريق لأول مرة، متجماً من البرد فوق ظهر سيارة نقلٍ في قميصٍ أزرق^٣ (ما زال يحتفظ به ويستخدمه أحياناً عندما

^٣ ما زال القميص الأزرق إلى اليوم هو شعار منظمة الشباب في ألمانيا الديمقراطية.

يعمل في الحديقة)، حاملاً رايةً خُفاقة، وقد التفت ذراعه حول كتفَي إيزابيث. كان أفضل طالبة مدرسة المكتبات في طريقهم إلى القرى للمساهمة في الحصاد ونشر الثقافة، وهم يُنشدون أغنيةً عن الطليعة البروليتاريا. وكان هو وإيزابيث على قناعةٍ كاملة بأنهما من هذه الطليعة حقاً، لدرجة أن إيزابيث كانت تخجل من سُكّناهما في ضاحية الفيلات الراقية. كان إرب يتميز بقدر من الأمانة مكّنه من الضحك عندما تذكّر محاولتهما الحماسية لبعث الحياة في مومياء الرقص الشعبي،^٤ لكنه ما لبث أن أدرك في حُزن أنه لم يستمتع بعد ذلك أبداً بذلك القدر من الحرية، وراحة البال، والاستقلال، الذي عرفه في ذلك الحين.

لم يمض وقتٌ طويل على ذلك العهد حتى كان يقطع الطريق فوق درّاجته، وحيداً. كانت إيزابيث تنتظره عند محطة المياه وقد ارتدت أفضل أرديتها (من برلين الغربية) لتقدّمه إلى والديها. ولم يكن من السهل إثارة شجارٍ معهما. لكن هذا كان أمراً لا مفرّ منه؛ إذ إنه كان الأسلوب الوحيد للتعويض عن الأثر الذي أحدثته فيه الحديقة المعتنى بها، والتراس المشرف على النهر، والمنزل المؤثث بذوقٍ رفيع، وجو الأسرة المتحابّة. لكن هذا الشجار لم يُوقف مجرى الأحداث أو يُبطئ منه؛ فقد أقسمت إيزابيث أن تقف إلى جانبه مهما حدث، وتصالح هو مع حمويه عندما اكتشف أنهما لم يمتعضا من فقره أو آرائه. وصارا يقضيان عطلات نهاية الأسبوع على نهر شبريه. بل وتمتّ خطبتهما بكافة المراسيم الواجبة، وبعد ذلك جعلاً يستقبلان بحماس كل خطوة في الطريق إلى الامتثال والتواؤم والإذعان؛ الامتحانات، أول عمل، الزواج، حجرة في المدينة، بيت، زيادة الراتب، الأثاث، الراديو، المسكن الخاص، وهلمّ جرّاً. لم يَعْرِف الفشل في شيء؛ فقد كان ناجحاً في عمله، يلقي التقدير المناسب في حينه. وتبيّن أن كافة الصراعات يمكن أن تُحل. وكان في وسعه أن يستفيد من سلسلة من الفرص السعيدة، وكان في صحّة جيدة، مزدهراً، محترماً، محبوباً وراضياً عن نفسه ... حتى هذا الصباح، عندما بدا ينعي فجأة ذلك الاستقلال الذي لم يُحاول المحافظة عليه أبداً. كانت اعتباراته سليمة تماماً؛ فنفقات الأسرة لن تسمح له بالانتقال إلى عملٍ ذي أجرٍ أقل، كما أن المنزل ربطه إلى برلين، واستنفدت الحديقة عطلاته الأسبوعية التي كانت حُرّة من قبل، وأخرجَه المركز، والمنزل، والسيارة من عالمه الطبيعي

^٤ عرّفت جمهورية ألمانيا الديمقراطية عند تأسيسها، مثل بقية الديمقراطيات الشعبية حركةً واسعة لإحياء الفنون الشعبية. لكن هذه الحركة فشلت في ألمانيا بسبب تغلغل التأثيرات العصرية في أذواق الجماهير، وانقراض هذه الفنون، وبخاصة الرقص الشعبي.

وعزله، ولم يحقق له الاستقلال. كان يمضي في السابق ساعتين هادئتين كل يوم في قطارات الضواحي واحداً بين آلاف. كان يشعر كل يوم، أن العالم لا يتألف فقط من الأسرة والمكتبة. وبين الآلاف كان يصبح لمدة ساعتين، هو نفسه، قادراً على أن يتكلم، يقرأ، يلجأ إلى الصمت، يُراقب، يُصغي، أو يفكر، لكنه الآن ببساطة المدير في طرف ورأس الأسرة في الطرف الآخر، وبينهما كان وحيداً في قوقعته المتحركة. لم يكن من الممكن طرح هذه الأفكار جانباً في الحال، والأسوأ من ذلك أنه لم يجرؤ على ذكر السبب باسمه الحقيقي ... برودر.

لم تكن مثل هذه الأفكار بالجديدة عليه؛ فعندما اجتاز امتحاناته بمرتبة الشرف سئل عن مشاريعه للمستقبل، وقال عندئذٍ: أودُّ لو أبقى في برلين عدة سنوات أكتسب خلالها خبرة، ثم أذهب إلى الريف، ولو أمكن إلى منطقة بلا مكتبة، حيث أستطيع، متحرراً من عبء التراث، أن أبني شيئاً حيث الثورة الثقافية ثورية حقاً، لقد كنتُ فيما سبق أخصائياً في زراعة البساتين والحدائق، وقد ألفتُ أن أرى بعيني نتائج عملي. وفيما بعدُ عندما عرض عليه حمواه المنزل، تردّد طويلاً قبل أن يتخذ قراره.

لكن هذا لم يكن بسبب المشاريع الثورية، وإنما من أجل خلاص الضمير؛ ففي الثلاثينيات شق والد إليزابيث طريقه في شركة تأمين ببرلين الغربية^٥ من صبي مكتب إلى مديرٍ للفرع، وعندما حان وقت التقاعد كان عليه أن يختار بين البقاء في منزله الخاص على نهر شبريه في الشرق بالمعاش الهزيل المخصّص لكبار السن، أو يستمتع بمعاش كريم من شركته في شقةٍ مستأجرة ببرلين الغربية. وترك مهمة القرار للزوجين الشابين قائلاً: «إذا ما أخذتما المنزل ففسأذهبن، وإلا فسوف أبقى هنا.» وكان الخيار معناه أن يقضي الرفيق إرب عدة ليالٍ مؤرّقة. وذات مساء يوم أحدٍ في الربيع أعلن إرب قراره. أجل سوف يأخذان المنزل ولكن بشرطٍ واحد. أن ينتقل حمواه إلى برلين الغربية بطريقةٍ قانونية.^٦

^٥ وُجد اصطلاح برلين الغربية منذ نشأة المدينة، وكان له في البداية معنىً جغرافياً. ولم يكتسب معناه السياسي الحالي إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد ابتداءً من مايو ١٩٤٥م عندما استولى الروس على برلين، واقتسم الحلفاء المدينة، فأصبح الجزء الخاضع للإدارة الإنجليزية الفرنسية الأمريكية يُعرف ببرلين الغربية. وبعد تأسيس كلٍّ من الألمانيتين في ١٩٤٩م، تحوّل هذا الجزء إلى وحدةٍ سياسية مستقلة، أما شرقي المدينة فقد صار عاصمةً لألمانيا الديمقراطية.

^٦ قبل أن تُقيم سلطات ألمانيا الديمقراطية في ١٣ أغسطس ١٩٦١م السور الذي فصل بين شطري برلين، بهدف مواجهة أعمال التخريب المتمركزة في برلين الغربية، كان في وسع أي مواطنٍ في الجزء الشرقي أن ينتقل إلى الغربي دون أي عقبات، رغم أن ذلك كان محظوراً قانونياً إلا بتصريحٍ رسمي.

هزَّ والد إليزابيث كتفيه ردًّا على الصرامة والحزم اللذين أعلن بهما كارل قرار؛ فلم يكن قد خطر بباله على الإطلاق أن يطير واضعًا فرشاة أسنانه وجواهره في جيبه مرتديًا بذلتين واحدةً فوق الأخرى، تاركًا خلفه كتبه ولوحاته وأثاثه. وهكذا تم تقديم الطلب وأُجريت التحريات الضرورية. ولم تُعارض السلطات في التخلي عن اثنتين من مستهلكي الزبد وقابضي المعاشات مقابل منزل. وقُدِّم الطلب الرسمي، وتم نقل المنزل والحديقة الواقعتين على نهر شبريه، والقارب البخاري، وقطعة الأرض الصغيرة المسوّرة بالمياه، إلى اسم إليزابيث. ولتجنُّب التعقيدات مع إدارة الإسكان، انتقلت الأسرة الصغيرة للسكنى مع العجوزين، وقبل أن يضيقوا كثيرًا ببعضهم بعضًا، صدرت الموافقة على الطلب، واقتصرت ضرورة السكنى المشتركة على نهايات الأسبوع حتى ١٣ أغسطس ١٩٦١ م. وعندما صار في إمكان إرب الإنفاق على سيارة، بعد تعيينه مديرًا للمكتبة وزيادة راتبه، جرت مقايضة القارب وقطعة الأرض بسيارة «ترابانت».

من الذي كان سيعزف عن اتخاذ قرارٍ مماثل لذلك الذي اتخذهُ إرب؟ إنه لأمرٌ يدعو للسخرية أن يشعُر المرء بعدم الارتياح إزاء موقفٍ خلقه بنفسه عن طواعية. لكن إليزابيث لم تكن بريئة تمامًا من أي أثرٍ على قراره. في ذلك الحين كانت ستوافق على أي شيءٍ يُقرَّرُه، وكانت على استعدادٍ للانتقال معه إلى مكلنبورج^٧ لو شعرت أنه سيكون أسعد حالًا هناك.

لكنه كان يعرف أنها متعلقة بالمنزل والحديقة والنهر، بالإضافة إلى أنها قضت أغلب حياتها في ذلك المكان.

تكتيك التبريرات والأعذار. لجأ إليه مرةً ثانية عندما أعطاه تدفُّق المرور وقتًا للتفكير. لقد حمل على عاتقه عبء الملكية من أجل إليزابيث، ومن أجلها ضحَّى بحريته وهجر أحلام شبابه. أنَّ بصوتٍ مرتفع عندما تحوَّل ضوء المرور في «تريبسكوف آليه» إلى اللون الأحمر، وبكل هذا ظل، من الناحية القانونية، فقيرًا تمامًا كما كان منذ عشر سنوات. حتى السيارة التي سيزور بها الأنسة برودر هذا المساء، كانت في واقع الأمر ملكًا لزوجته.

تنهَّد مرةً ثانية عندما ولَّج مكتبه قبل الثامنة بدقيقة واحدة، لا لأنه شعر بالأسف على نفسه (فلم يكن يسمح لنفسه بهذه الرفاهية في المكتب)، وإنما لأن لهفته إلى العمل كانت في

^٧ هي المنطقة الزراعية الأساسية في ألمانيا الديمقراطية وتتميز بتخلُّفها النسبي عن بقية أنحاء الجمهورية، ويقول الألمان عادةً إن الأمور تحدث في مكلنبورج متأخرةً مائة سنة.

خطر؛ فقد كان يعمل دائماً بصورةٍ أسرع وأكثَر تركيزاً بين الثامنة والحادية عشرة. ومن شأن زيارة هازلر الآن أن تعوقه عن ذلك. اقترحت الآنسة زافاتسكي طريقةً مجرّبة، وهي أن يتحدث لضيّفه في الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف عن موعدٍ عاجل، لكنه أراحها جانباً؛ فمثل هذه الأساليب لا تنجح مع هازلر.

٣

بظهور ثيو هازلر، كان يمكن أن تلج صفحات هذا الكتاب شخصيةً نموذجية من شخصيات المراجع، لولا أنه يفتقد شيئاً؛ أولاً الشعر، وثانياً القدرة على التعبير عن نفسه بوضوح. حقاً إن الرأس الأصلع هو المكان التقليدي لأكاليل الغار، لكن هذا أمرٌ قاصر على يوليوس قيصر؛ ولهذا السبب نجده خارقاً للمألوف. وليس من الممكن اتخاذ طريقة هازلر في الحديث نموذجاً لنا لأنها تتألف من عباراتٍ غير دارجة، معقّدة وغير ملائمة للعصر، وفي نفس الوقت تبشّر بغرابة الأطوار، الأمر الذي لا يتحقق. لم يكن شخصاً غريباً، ولو بذلك القياس الذي يملك به كل شخص (كما نتمنى) غرائبه. إن الكثير من معاصرنا يقضون حياتهم في إعادة ترتيب بوصلاتهم الداخلية التي وُضعت بصورة زائفة في شبابهم، وقد أنجز هازلر هذه المهمة بسرعة ودقة في نهاية الحرب، وتركت هذه العملية ندوباً واضحة من الاستعارات والتشبيهات الدينية في حديثه. وبالإضافة إلى هذا لم يكن متزوجاً، وإلا فما كان هناك ما يمكن الاعتراض عليه. كان أحياناً يعرج عبّر الشوارع الخالية بالليل إلى محطة القطار حيث يستعين مع الآخرين بالخمير من أجل الإسراع بعجلة الليل البطيئة، ولكن هذا كان بسبب أن الفودكا تفقد مذاقها إذا ما احتساها المرء على انفراد، ولأنه أيضاً مسئول عن الثقافة في مجلس الناحية، وبالتالي يعلو كارل مباشرةً في السلك الوظيفي. لم يكن يستقر في مكانه طويلاً، بل يظل في حركةٍ دائمة، كان يعيش القلق ويكره «غيوبة» الوعي المتمثلة في النوم. وكان النوم ينتقم بأن يتمنّع عنه عندما يريده، أو يختفي بعد مجيئه بساعةٍ أو ساعتين. وكان ذلك يُرغمه على أن ينهض ويعمل، أو يرقُد ويفكر. هكذا طَفِق يسترجع ما جرى في الاجتماع متأملاً كل عبارة تردّت فيه كما لو كان يقرأ التقرير الحزفي. بحث عن الدوافع الكامنة وراء الآراء المختلفة، وهي دوافعٌ صُعب عليه تحديدها فيما عدا ما يتعلق به شخصياً. ولما فشلت قهوة الصباح في تغيير مجرى أفكاره، تملّكته الرغبة في مناقشة الأمور على الفور، ولهذا قام بزيارة كارل.

استقرَّ في المقعد الرث (الذي كان المرء قميئاً بأن يجده أنيقاً لو كنا في بداية الخمسينيات)، وشرَّع في الحديث قبل أن يعود كارل إلى مقعده.

«أنا واثق إنك لم تنل تعليماً دينياً ممتازاً في صباك مثل الذي تلقيتُه أنا؛ ولهذا لا بُدَّ من أن أشرح لك الفارق بين التوبة الناقصة، والتوبة النصوح. الأولى وليدة الخوف من العقاب وحب الذات، لكن ثمرة لحب الله. وإذا ما طبقنا هذا على حالتي، كان معنى هذا أنني إذا أردتُ أن أسحب بعض كلماتي بالأمس عن الفتاة برودر، خوفاً من أن يتضح أنها غيرُ صحيحة وعندئذٍ أبدو مضحكا، كانت هذه توبةً ناقصة، لكن إذا ما أسفتُ لهذه الكلمات بدافع من إحساسي بالعدالة، كنا أمام توبةٍ نصوح. وأنا أقسم لك أن الحالة الثانية هي الواردة، وإنني لواثقٌ من الغفران. وأيضاً لأنني لم أفه بكلمةٍ واحدة غير صحيحة بالأمس؛ فهي حقيقة تتميز بالنواقص التي ذكرتها، رغم أنها أقل أهمية مما أردتُ إقناعكم به. إنني أعرف الآن أنني بالغتُ في التوافه، وبعد أن راجعتُ ضميري، عرفتُ الأسباب التي دفعتني إلى ذلك، أو الأصح الهاوية التي ألقىتُ بنفسي فيها.

وهذا يُرينا من جديد كيف أننا لا نصلح لحسم مصير الآخرين، ولأن نقوم بدور العناية الإلهية، أعني أن نكون في مركز السلطة. إن الوحيد الذي يملكُ هذا الحق هو الله، إذا وُجد؛ لأنه وحده سيكون حكيماً وعادلاً على الوجه الكافي. وليس هذا بوسعنا لأننا لسنا مجردين من المشاعر الجنسية مثل ذلك الذي لا يوجد؛ لأننا نملكُ شهواتٍ تَضْطَرُّم وتُعْمي الحواس، أو تزحفُ في سكونٍ حتى تُسيطر على أفعالنا وتُصيب تقديرنا بالتبلد. إن هذه القوى تؤثرُ على الجنسَيْن، لكن آثارها أكثر على الرجال، طالما أن السيادة ما تزال لهم رغم كافة قوانين الحقوق المتساوية. إن الوزارات، ورئيسات الأقسام ومديرات المصانع، لسن سوى استثناءاتٍ تثبت القاعدة؛ فما زالت السيادة للرجال ابتداءً من الأمم المتحدة حتى فراش الزوجية، ولا نعلم أي دورٍ تلعبه الميول الجنسية في قراراتهم. وكمثالٍ للتعقيدات الواردة، خذ رئيس أحد الأقسام، يحب العالم، والشعب، ونفسه، لدرجة أنه يودُّ لو يجعلهم جميعاً أفضل مما هم عليه. يودُّ أن يلعب لعبة القدر، هذه اللعبة الكريهة والضرورية في الوقت نفسه، بكل ما يمكن من حكمة وعدل، وعندما يتعلق الأمر بالنساء بوجهٍ خاص، ينتبه إلى ظهور عواملٍ مغلقةٍ في نفسه؛ لأنه رجل، ذكراً حقيقياً، ويعرف أن شيئاً بداخله يستجيب، بهذه الطريقة أو تلك، للمرأة في كل أنثى رفيقةٍ أو زميلة. ولهذا يضع لنفسه مبدأً حديدياً؛ ألا يلمس امرأةً تربطه بها علاقات عمل، وأن يُغربل كل حكم أو تقدير يشوبه تأثير الدافع الجنسي. وعندما تعيَّن عليه ذات يوم أن يساهم في إصدار قرارٍ خاص بإحدى

السيدات، وهي أنثى كاملة، قال لنفسه: إن العناصر التي تُحبها في هذه الفتاة لا علاقة لها بالقضية. ولهذا يتماسك، ويقدم حكماً سلبياً تماماً، ويصبح فخوراً بنفسه حتى يدرك، في غضون ليلة مؤرقة، أن خوفه من إعطاء حكم زائف قد أوقعه في حكم أكثر زيفاً.

هذا، وأكثر منه، شرحه هازلر في الثامنة صباحاً بمكتب إرب. بينما جعل هذا يفض بريدته حتى لا يضطر للنظر إليه.

بدا على وجهه أنه ليس متحمساً لهذا النوع من الاعتراضات. وربما كان السبب أنه ذكره أكثر مما يجب بتكتيكاته هو في النقد الذاتي.

لكن هذا لم ينطبق على الجزء الثاني: «فما يُقْلِقُ الآن هذا السيد هو ذكرى ضغيته غير المقصودة، ذلك الأثر الخفيف من البذاءة والكراهية في لهجته عندما كان يتحدث عن السيدة. إنه يسأل نفسه كيف حدث أن ألقى نفسه مضطراً إلى الحديث باستخفافٍ عن امرأة تُعجبه، وأخيراً يجد الإجابة: لقد كان في حياته الأولى (هكذا يصف الفترة السابقة على مولده الثاني في عام ١٩٤٥م)^٨ من صنّاع الآجر وجندياً، وفي حياته الثانية كان موظفاً في وظائفٍ متنوعة، رجلاً في حالة تدريبٍ مستمرٍ عاجزاً عن تحقيق الاتصال بالآخرين، يشعر دائماً بأنه معرض لسخط الخبراء والمتخصصين، وبالإضافة إلى هذا كان رجلاً بساقٍ واحدة، ولم يتخلص أبداً من شكه في أن النساء لا يعتبرنه رجلاً كاملاً، ولذلك كان راغباً باستمرارٍ في إثبات ذلك. وهذا الرجل، ذو الساق الواحدة والعقد العديدة، يلتقي بالسيدة المساوية له كامراً، ولكن تفوقه كخبيرة، وهي تُبدي الاحترام اللازم لمركزه، وسنّه، لكنها تضع منذ البداية حدوداً صارمة في وجه أي تقاربٍ ممكن بينهما. والواضح أن هذا الموقف يُثير حفيظة الرجل، منذ كان لا ينتوي أصلاً عبور هذه الحدود، وإنما يريد أن يكون هو من يضعها؛ لأنه حتى لو ضحى بمباهجه الفردية من أجل القضية العامة، فإنه يودُّ على الأقل أن يشعر بأنه يقوم بتضحيةٍ بأسلة.» بهذه الكلمات نهض هازلر واقفاً، وتقدّم بمشيته ذات الصرير نحو الباب.

داعبه الأمل وهو يسير في أن يستدعيه كارل، حتى يسأله هذا السؤال: وماذا عنك؟ لأنه لم يأتِ فقط ليُدلي باعتراف، وإنما أيضاً ليسمع واحداً. أراد أن يكون الأب الذي يتلقى

^٨ كانت هزيمة النازية التي تحققت تماماً في ذلك العام، بداية تطورٍ مختلفٍ للشعب الألماني؛ فقد تبين الكثيرون من أبنائه زيف الأوهام التي عاشوا طويلاً في ظلها، كما أُتيحت لهم فرصة الحياة في نظام ديمقراطي.

الاعتراف، والتائب الذي يُدلي به. كانت صراحته متعمدة كالطعم. لكن كارل لم يعص على الطعم، وإنما تظاهر بذلك قائلًا: «لا أحد منا بعد يستطيع قبول المساواة في الحقوق مع المرأة حقيقة.» ودفع ببريده جانبًا ليتطلع إلى هازلر، لأول مرة غالبًا، وأدرك فجأة أنه كان موشكًا أن يعزف على تفوقه الثلاثي (فهو قد قدّر تقديرًا سليمًا صلاحية الأنسة برودر للوظيفة، ولم يشك أحد في حقيقة مشاعره نحوها، كما أن لديه فرصًا). كان يمكن أن يقول مثلًا: حتى ولو كن أطول منا قامة، أو: إننا نطالبهن بمكانة أدنى من الناحية الشكلية على الأقل. لكنه أمسك ولم يستسلم لإغراء الثثرة مع هازلر عن النقاط الإيجابية بشأن الأنسة برودر. فضّل أن يلعب دور المتفرج، مثنياً ثناءً تقليدياً على أمانة هازلر، مبدئياً بعض الاهتمام بصحة الأنسة برودر (متاعب الدورة الدموية في سنّها قد تعني إجازات مرضية كثيرة)، ثم انتقل بأسرع ما يمكن إلى الشكل الذي سيُبلغ به كراتش بالقرار. كان شديد الحذق والبراعة، وهذا بالتحديد ما قوى من شكوك هازلر.

٤

لم يعهد كارل منذ أمٍ بعيد، يومًا كان العمل به على هذه الدرجة من المَلالة التي انتابته. بدأ يقسّم الساعات إلى دقائق، وشحب وجهه عندما تنبّه إلى ما يفعله، فأصدر لنفسه قرارًا صارمًا بعدم النظر إلى الساعة أو التفكير بأية طريقة في الأنسة برودر، لكنه انتهك هذا القرار أكثر من مرة، أرغم نفسه على التركيز، عكف على ملفات طال إهماله لها، أملى رسائل، أجرى عدة اتصالاتٍ تليفونية، وأخيرًا استدعى كراتش ليُبلغه بقرار لجنة المكتبة. وعلى عكس خطته الأصلية، امتد الحديث حتى توسط النهار؛ لأنه لحظ غضب كراتش، ولأنه لا يحتمل قبول الناس لقرارٍ ما دون اقتناع كان يُطالب الآخرين، كما يطالب نفسه، بمواجهة الحقائق، ولو كانت غير سارة؛ لهذا آمن بأن واجبه يحتم عليه مواصلة الكلام حتى يتفهّم الشاب الموقف. كان ودودًا دون أن يكون مدهنًا، صريحًا دون أن يكون جارحًا، لكن أعصابه توترت عندما ظل كراتش صامتًا، يحدّق فيه من خلال نظاراتٍ سميكة في وجهٍ جامد. تكلم كثيرًا، أكثر مما يجب، وكرّر نفسه، وأخيرًا، وقد ضاق بانعدام الاستجابة، بدأ يُؤاسي كراتش بالحديث عن مساوئ برلين، راويًا الكثير في هذا الصدد عن نفسه؛ فعندما اجتاز امتحاناته؛ أي منذ قرابة خمسة عشر عامًا، كان الحصول على عملٍ في برلين يُعتبر نجاحًا، لكنه لم يكن من هذا الرأي؛ لأنه اكتشف قبل ذلك بعهدٍ بعيد وهم الفكرة، فإذا كان العمل في برلين يعني نقودًا أكثر، فليس معنى هذا أنك تحصّل على مزيد؛ ففي

«آلت - شرادوف»، التي جاء منها، يمكنك أن ترقص إذا كنت مستعداً للذهاب بالدراجة إلى لو فردورف أوبتشين، وهم يعرضون فيلماً كل يوم جمعة في فندق القرية، وبوسعك أن تذهب إلى برلين ثلاث أو أربع مرات في العام بالتأكيد لرؤية المتاحف والمسارح؛ أي أكثر مما يُتاح لأهالي برلين أنفسهم، الذين يعرفون ثروات مدينتهم من الصحف وحدها. إن أهالي المدينة اليوم، شأنهم شأن سكان الريف، يقبعون في منازلهم حيث يقدم لهم التلفزيون وهم الاتصال بالعالم أجمع، وهو ما يحتاجونه في عزلتهم، التي تفوق كثيراً عزلة الريف. وفي البداية قاسى كثيراً من انعدام الهوية في المدينة الكبيرة؛ فقد ألف أن يوجه التحية لكل من يلتقي به في الطريق، ويعرف منه متى جاء، ومن هو، ويحدد بذلك موقفه منه. ووجد من العسير عليه أن يفهم كيف يُعتبر اهتمامه بشئون جاره تطفلاً مزعجاً، واكتشف أن إبداء التعاطف والاستعداد للمساعدة يُعتبر تدخلاً غير مرغوب فيه، واكتشف أنه صار معزولاً لأنه لم يحترم تقاليد العزلة.

ولا شك أن حماس الشباب لم يكن محتملاً من الآخرين في بعض الأحيان؛ فعلى سبيل المثال، أثناء تعيينه لأول مرة في هذه المكتبة ذاتها، التي كانت في ذلك الحين منفرة للغاية (كثيية، ذات جدران وأثاث باللونين الأخضر والرمادي، ونوافذ من الألواح الخشبية، ولا تعمل بسياسة الرف المفتوح، رغم ما أُدخل عليها من تعديلات) كان المدير الذي تلقى تدريباً سطحياً، قد أراد أن يُعيد للحياة كائناً لم يستوعب قوانينه، وكانت تُعارضه مجموعة كبرى من الخبراء القدامى، وواجه المتدربون الجُدد مشكلة أخلاقية تتمثل في قبول النصائح التي يقدمها القدامى عن طيب خاطر وهم الذين ينوي الجُدد معارضتهم في المستقبل. كان كارل قد فقد شعبيته لدى كلتا المجموعتين لأنه لم ينتبه لقانون المدينة غير المكتوب، الذي يقضي بالانفصال التام بين مكان الإقامة ومكان العمل. أزعجته كثيراً تلك الهوية التي تفصل بين المدير (فرد مانتك، واحد من الأبطال الحقيقيين للسنوات الأولى بعد الحرب، ولا بُدَّ أن يكون كراتش قد سمع به)، وموظفات المكتبة، لدرجة أنه ألقى بنفسه بروح المبشرين في الموضوع، غازياً المنازل، مفاجئاً الأسر، مسبباً الارتباك لخطط الأمسيات، مدمراً نهايات الأسبوع، منهيّاً احتفالات أعياد الميلاد متحدثاً، متحدثاً، متحدثاً حتى يُقذف به إلى الخارج أو يستولي الناس على الجميع. كل ما حققه أن كسب الأعداء، وهو ما لم يكن ينتويه حقيقةً. كان قد أُعجب إعجاباً صادقاً بالعجائز، وقد صار يتعلم منهن شيئاً جديداً كل ساعة، وما زال إلى اليوم مديناً لهن بالفضل، معجباً بخبرتهن، وطبيتهن، وعلمهن، ومعرفتهن الواسعة، وحبهن لعملهن، بل إنه كان يحترم أفكارهن، التي كان يراها جديرة

بالتبجيل رغم أن الزمن عفا عليها، أملاً أن يتمكن من إقناعهن بعبثها في مناقشة تتم يوم أحد. كان حقيقةً في حاجة إلى أصدقاء. وإذا ما نظرنا إلى حماسه لتغييرهن من الناحية السيكلوجية المطلقة (وهو أمرٌ خطر دائماً) لوجدناه ينبع أساساً من العزلة اللعينة في المدينة الكبيرة. وبالمناسبة، ما هي هذه العزلة إذا ما تأملناها في رويّة؟ ألا تشعر بعقلية المدينة الكبيرة في لايبزيغ أو درسدن أو هالة أو روستوك أكثر منها في هذا الجزء من مدينة، في هذا التلث من الفنش^٩ الذي يتظاهر بأنه قطعة كاملة؟ في هذا التجميع القبيح لقُرى متلاحمة، بالإضافة إلى البقايا المبتورة لمركز مدينةٍ بشوارعٍ تنتهي إلى لا شيء^{١٠} ما هي فائدة الحياة في نفس المدينة إذا كنت تقطن فيلهلمسرويه وتعيش فتاتك في فيلهلمسهاجن^{١١}؟ الأسرع هو السفر من آلت - شرادوف إلى فنديش - ريتز أو من هالة إلى لايبزيغ. ثم ماذا بشأن البرلنيين، هؤلاء المتفاخرين ذوي «الأصوات العالية والقلوب الذهبية» الذين يقتبسون «فكاهاتهم البرلينية» الشهيرة من أعمدة الصحف اليومية؟ إن محصلي التذاكر في ترامات درسدن وإير فورث أكثر أدباً. أما فيما يتعلق بالمكتبات، فليس هنا ما لا يمكن أن تتعلمه في مكان آخر، ولعله أقلُّ لأن برلين لا تملك قاعدةً خلفية؛ ففي برلين ينضج كل شيء في عصيره الخاص، وهي أكثر إقليميةً من أصغر المدن الريفية؛ حيث يتعرض كل إنسانٍ للتأثيرات الخارجية القادمة من المدن الأخرى ومن القرى.

بالطبع أنه لأمرٌ جذاب أن تعمل في مكتبةٍ كبرى كهذه تسير على نظام الرف المفتوح، لكنّ هناك إشباعاً أكثر في أن تكون في الريف؛ فليس سرّاً أنه ما تزال هناك ثغراتٌ كثيرة، وهو أمرٌ لا تستطيع أجمل الإحصاءات إخفائه، ما نوع المكتبة التي توجد في آلت - شرادوف مثلاً (ففي إقليميته البرلينية لم يكن يعرف مكاناً عداه منذ غادرها، هو وأخصائي الحقائق ذو الميول الأدبية)؟ لم يتطلع أحدٌ في الغالب إلى الخمسين كتاباً التي وصلت في قفص في نهاية الأربعينات، وعفا الزمن على أغلبها الآن. لم يكن هناك من كُتبيٍّ واحدٍ مدرّب، وما زال الأمر كذلك. كان أبوه مدرّساً في القرية طوال عشرين عاماً (طُرد عام ١٩٤٥م بتهمة أنه

^٩ الفنش هو أصغر وحدات العملة الألمانية. والمقصود أن برلين الشرقية عاصمة ألمانيا الديمقراطية، كانت تؤلف قرابة التلث من المدينة الأصلية قبل تقسيمها، وهي التي كانت من قبلُ تشبه الدائرة.

^{١٠} مند قيام السور الذي يفصل بين شطري المدينة، أصبحت الشوارع تنتهي فجأةً ... إلى لا شيء.

^{١١} بعد إقامة السور، أصبحت الأولى في برلين الغربية والثانية في الشرقية، بينما الاثنتان مشتقتان من اسم واحد.

كان من أنصار النازي، وعندما أرادوا إعادته إلى عمله عام ١٩٤٨م لم يذهب؛ لأنه كان قد صار في تلك الأثناء بستانياً في دار للحضانة)، وروى له كل شيء عن الأحوال هناك في رسائله الأسبوعية، تلك الرسائل الطويلة التي لا يملك كتابتها غير المتقاعدين.

أجل، أن تذهب للعمل في منطقة نائية، هذا هو التحدي؛ فلن يقتصر الأمر على العمل مع الكتب، بل مع الناس أيضاً، عملٌ مرئي ويمكن لمس حجمه، كما لو كنت تدق شفرة المحراث في الأرض ثم تتطلع خلفك إلى الشق الذي صنعته. هذا هو ما يتوق إليه كل من يعمل في المكتبات؛ النتائج الظاهرة. وهي لا توجد في أغلب الأحوال. من ذا الذي يشهد الأثر الفوري لكتاب ما؟ قد تقرأ عنه في الصحف، لكنك تعرف كيف يتم ذلك. هذا هو التفسير الوحيد لأن كثيراً من الكتبيين يكرسون أنفسهم بحماس للإحصائيات والكتالوجات وفن الأرفف، بحيث يصبحون مثار فكاية للغريب، ويصدق هذا بوجه خاص على النساء، أولئك اللواتي بلا زوج أو أسرة، اللاتي يعشن ويتقدمن في السن في عالم من التصنيفات والكتب الجديدة. خذ على سبيل المثال الأنسة «فسترمان» التي كانت ما تزال تحتفظ بجاذبيتها عندما التحقت بالمكتبة، وهي أصغر السيدات اللاتي جعلن حياة فرد مانتك جحيماً لا يُطاق. كانت واحدة من أكثرهن فصاحة، لا تُغفل فرصة تكشف جهل مانتك كتعبير عن بربرية النظام الجديد. لكنها لم تقبل عرضاً واحداً للعمل في برلين الغربية (حيث كانت تعيش في ذلك الحين)، رغم أنها كانت تجد الحياة هنا غير مُحتملة يوماً بعد يوم، بل إنها ما لبثت أن انتقلت للإقامة هنا، وهي تعاني اليوم تحت رئاسة كارل مثلما كان شأنها في ظل مانتك. لكنها علّمت الكتبيين الشباب والمتدربين، عاماً بعد عام، كيف تُدار المكتبة، وأدّت عملها بأمانة وكفاءة وثقة، وبدونها كان يمكن أن يتعقد ويتشابك سير العمل في المكتبة. كانت عموداً من القوة، رغم خلوه من الجاذبية واكتسائه بالطحلب. إن أجيالاً من الشباب، الذين يفوقونها معرفة، يستخفون بها، لكنهم يتعلمون منها، وينطلقون إلى الأمام يدفعهم طموحٌ تفتقده. وهم دائماً على استعداد للمجاهرة بأرائهم الإيجابية بالنسبة للنظام، وهو ما كانت ترفض القيام به. كانت شخصاً كوميدياً، شيئاً يصلح للكتالوجات، كائنًا أعطى كل قلبه للمكتبة.

ومن غريب المصادفات (وهو ما يتعلق بالتأكيد بالتاريخ أكثر منه بالبيولوجيا) أن النساء، هن أكثر استعداداً من الرجال بكثير للتخلي عن الشهرة والبروز والترقي، دون التقليل من أهمية الأجر الأعلى كقوة دافعة لتغيير الوعي؛ فهن يبدن طموحاً أقل واستعداداً أكبر للخدمة. ليس معنى هذا أن كافة النساء هكذا؛ فهناك استثناءات (الآنسة برودر مثلاً)

ولكن الاستثناءات تؤكّد، ببساطة، القاعدة. وهل هي مصادفةً أن هذه الاستثناءات تتميز بذكورةٍ معيّنة، غير مستساغةٍ دومًا؟

هكذا تحدّث كارل، وقد ولّغ في الارتباك، حتى الظهر، وروّعه أنه انتهى إلى الأنسة برودر بعد كل هذه التفرّيعات ... وابتهّج عندما مدّت الأنسة زافاتسكي رأسها من فُرجة الباب لتذكّره بطعام الغداء. أما كراتش فقد ظل وجهه محتفّظًا بجموده.

كان كراتش ممتعضًا، وهو ما كان واضحًا، ولم يستسغ كارل بالطبع أن تبقى كلماته الحماسية دون صدي — رغم أنه كان بوسعه أن يلتمس العزاء في أنه وجد طريقةً لا بأس بها لقتل بضع ساعاتٍ من الانتظار. ووجد إرب موقف كراتش غير لائق. ربما كان يظن نفسه أعلى شأنًا من الأنسة برودر؛ أي إن غروره بلغ به حد الارتياح في سلامة قرار اتّخذ بصورةٍ جماعيةٍ مستقلة تمامًا، حرة من أي موقفٍ ذاتي. لعله شعر بأنه يفوقها معرفة؛ ولهذا لم يستطع التفوّه بكلمة تقدير لموضوعية القرار الصعب، لكنه على الأقل كان يجب أن يُبدي شيئًا من الأذهان القائم على التفهم.

خُيل إلى إرب أنه يلّمح التواءة سخرية في ركن فمه، عندما أكّد له للمرة الثالثة أن المشاعر الشخصية لا علاقة لها بالقرار. ولعله كان مخطئًا، لكن ما كان يمكن أخطاء الصمت العنيد، والنظرة الساخطة، والشعر القصير للغاية الذي يرتعش كأنما من الغضب. لم يكن التدليل على كراهية كراتش له يحتاج إلى المشهد الختامي، عندما نهض إرب يبحث عن منشقة؛ فقد ظل الآخر جالسًا ثم قال مؤكّدًا على كلمة «أنت»: «لماذا لا تذهب أنت إلى الريف إذا كنتَ قد ضقتَ ذرعا ببرلين؟»

ولحسن الحظ أنه لم ينتظر إجابةً ما، بل اختفى دون كلمة. وقالت الأنسة زافاتسكي في غضب إنها لم تشهد شيئًا كهذا من قبل، واستمتع إرب بأن يجيبها مشيرًا إلى شباب كراتش. كان يبتسم عندما قال ذلك، رغم أنه لم يشعر بالرغبة في الابتسام. كان اكتساب الأعداء يعدّبه؛ لأنه أَلِف أن يُحبه الجميع.

دوّت الصرخة في اللحظة التي أغلق فيها السيد باشكه النافذة، وقد فتحها بالطبع من جديد على مصراعَيْها، واضعًا وسادة بين بطنه وقاعدتها. أبرز وجهه من جديد في الضباب، متجاهلاً احتجاجات زوجته وابنته، أملًا أن يتكرر الصوت أو على الأقل يتلقى تفسيرًا له، وهو ما كان أمرًا غير مألوف في مثل هذا الوقت (السابعة مساءً). لكن الطريق كان

كدأبه دائماً في تلك الساعة؛ سيارة؛ سيارة أجرة، وصبي يمسك بسلة من اللفائف، وامرأة تدفع عربة أطفال، ورجل ذو نظارات يحمل حافظة رسائل، من ذلك النوع الذي يأتي من الضواحي ظاناً أنه يستطيع ابتياع قليل من المغامرة في هذه الناحية مقابل ثلاثين أو أربعين من الماركات. بزغوا جميعاً دون صوتٍ تقريباً من الضباب واختفوا ثانيةً عندما ابتعدوا عن المنطقة الساطعة المحيطة بمصباح الطريق (كانت مصابيح الغاز القديمة قد أُزيلت منذ عام فقط وما زالت ترقُد فوق موضعِ قنبلةٍ قديمةٍ مجاور)، إنه مشهد قد يبدو للغريب شبحياً، لكنه كان بالنسبة لباشكه محبباً. انحنى أكثر ليرى ما إذا كان باب الشارع مغلقاً (كان)، وما إذا كان النور ما زال شاعلاً في المدخل (لم يكن). ثم أسرع يعبرُ الغرفة، ماراً بزوجته التي كانت تُعد مائدة العشاء، ومن الردهة إلى المغسل حيث ارتقى مقعد المرحاض ليتمكن من الرؤية خلال النافذة، لكنه لم ير شيئاً لأن الفناء وبئر السلم كانا غارقين في الظلام. جرَّ قدميه عائداً إلى غرفة المعيشة، حيث قالت له أنيتا، التي كانت قد شرعت بالأكل: «كان بوسعي أن أذكرك يا أبي، أن رجلاً يقف في الخلف متطلعاً إلى النوافذ».

فكّر باشكه، الذي كان يعتبر معرفة ابنته، التي لم تتجاوز مرحلة الطفولة تماماً، بشيءٍ يجهله، أمراً يهدد سلطته، فكّر أنه لا بدَّ رجلٍ تعرف عنه كل شيء، لكنها لم تذكر ذلك حتى تتجنب ما لا يسر. سألها عن التفاصيل، وقدمتها بين قضمات الطعام؛ فعندما عادت إلى المنزل منذ دقائق قليلة مضت، متأخرة ساعتين لأن اجتماع منظمة الشباب (وهو ما ترجمه باشكه على الفور ببيتير أو ألكسي أو جوني)^{١٢} وجدت رجلاً بلا معطف، يحمل مفاتيح سيارة في يده («السيارة التي تقف في الناحية الأخرى من الشارع، ولا يمكنك أن تراها في هذا الضباب») واقفاً في المدخل، واستفسر منها عن الآنسة برودر. ثم مضى إلى الفناء وتطلع إلى النوافذ القليلة المضاءة، كما لو كان بوسعه أن يتبين شيئاً من الستائر. وأرته هي الفناء بأجنحته الثلاثة، ثم انسحبت، بالطبع حتى ركن الدرج فحسب. وعندئذ اصطلمت السيدة جيورنغ من الجناح ج (بالمناسبة لم يعد شعرها الآن كستنائياً وصار بين الرمادي والبنفسجي)، بالرجل في الفناء المظلم، واختفت في المدخل المؤدي إلى منزلها، كما لو كانت تنتظر ولادةً فاشلة أخرى. وبهذا تكون السيدة جيورنغ هي التي صرخت،

^{١٢} وهي أسماء ذات إحياءاتٍ أجنبية، بين إنجليزية وروسية وأمريكية.

لكن منذ متى كان الرجال يُخيفونها؟ ولماذا لم تذكر أنيتا للرجل أين تعيش الآنسة برودر؟
«ماذا، تلك المرأة المتكبرة؟»

غضب باشكه، لا من أنيتا (كان بوسعه أن يدرك غيرتها من الفتاة برودر ورجل السيارة)، وإنما لأنه لم يعرف ما إذا كان الرجل زائراً أو عاشقاً أو زميلاً في العمل، أو شخصاً في مهمة رسمية، وتملّكه الغضب لأنه لم يستجوب الزائر، عن الفتاة برودر بالطبع، لأنه لا يعلم إلا القليل من أنبائها الأخيرة، كانت توجّه إليه تحية الصباح، لكنها لم تتوقف أبداً تحت نافذته. وإذا ما تحدّث إليها، كانت تُجيب باقتضابٍ أثناء مرورها بعبارات عامة مثل: «ربما، سوف نرى، ليس هناك من سوء، أنا في أحسن حال.» كانت إجاباتها غير محدّدة بطريقة مهينة وكانت تتحدّث دون أن تبتسم، كما لو كانت تعرف موضوعه القديم الذي وقع قبل أن تولّد وتم منذ زمن بعيد الصفح عنه ونسيانه. لم يستطع صبراً على الأكل، ففتح الباب الأمامي، دون أن يُشعل الضوء، وهبط الدرجات القليلة المؤدية إلى باب الشارع، وهناك فقط ضغط مفتاح النور. كُشف الضوء مربّعاً في الفناء، وأكسب الإسفلت لمعاناً، عاكساً صناديق الفضلات في مياه البرك الصغيرة، ملقياً ظلّالها على الجدار. هذا هو كل شيء. وما كان جديراً بالملاحظة هو أن نور الجناح ولم يكن شاعلاً.

والآن، ما علاقة باشكه بهذه القصة؟ حسناً، إنه والد أنيتا، لكن أنيتا نفسها شخصٌ هامشي يمكن حذفه. إن الشيء الوحيد الهام في هذا الفصل هو الحديث بين كارل والأنسة برودر، وسوف يحتل هذا الحديث مساحةً كبيرة، ولعل بضعة سطور كانت تكفي لتقديم الحديث، من قبيل:

كانت الساعة قد بلغت الساعة تماماً عندما عثّر كارل أخيراً على المنزل. كان مبنيّ قديماً، مقسماً إلى شققٍ متعددة، به فناءان وثمانية أجنحة^{١٢}. وفكّر كارل وهو يصعد الدّرج المُرهِق، للمرة الثانية إلى الطابق الرابع، بعد مصاعبٍ قليلة مع سكان الجناح الخاطئ، إن عدد من يعيشون في هذا المنزل الواحد يتجاوز سكان قريته كلها. كان قلبه يدقّ من الانفعال ولا يعرف ما سيقوله لها، عندما فتحت له الباب. وقف ساكناً بضع دقائق خارج الباب ذي اللوحة البرونزية التي تحمل اسم «ف. برودر» (لماذا ف؟) ثم ضغط الجرس. ولو كان سمع أصواتاً خلف الباب لكان قد عاد أدراجه. انفتح الباب، ويمكن للحديث الحيوي أن يبدأ. من الذي فتح الباب؟

^{١٢} لكل جناح درجته ومدخله الخاص.

الآنسة برودر.

من هي؟ حتى الآن لم تكن تزيد إلا قليلاً عن مجرد اسم، واسم غير كامل (فلا بُدَّ لها من اسم أول). وفي نظر إرب قد تكون شخصيةً أسطورية، ذات بروفييل جميل، لكنها ليست بعدُ صورة، بالأسود والأبيض أو بالألوان، وبالتأكيد ليست ذات أبعادٍ ثلاثة أو أكثر؛ فالأبعاد الأخيرة هي المهمة (ليس شكل حاجبيها أو قياسات صدرها أو لون شعرها)؛ ولهذا فإن كل ما قد ساهم في تشكيلها يجب أن يُؤخَذَ في الاعتبار؛ ولهذا السبب يجب أن نأخذ لقطةً طويلة، ربما طويلة جدًا في كلِّ من الزمان والمكان. لا يكفي ببساطة أن نقول: منزل قديم بفناءين وثمانية أجنحة، يتجاوز عدد سكانه سكان قرية ألت - شرادوف، إذا ما أردنا أن نصف المنزل الذي وُلدت به الآنسة برودر (بالمعنى الحرفي للكلمة، رغم وجود مستشفى قريب للولادة لأن والدها كان معاديًا للمستشفيات والأطباء)، والذي عاشت به حتى بدء الدراسة. إنها الآن تعيش هناك من جديد، لكن ضيفًا، مواطنة من الدرجة الثانية، دون حقٍّ مطلق في الإقامة؛ إذ تتمتع به طالما تعمل في برلين.

لا يكفي أن نقول ببساطة: منزل قديم في حي بوسط المدينة، وبالتحديد الحي الذي يحمل الرقم البريدي ١٠٤، وهو في منطقةٍ يحدها من الجنوب نهر شبريه، ومن الشرق شارعًا روزنتهالر وبرونن، ومن الشمال والغرب حائط برلين.

لا يكفي أن نسمي الشارع والرقم، فلا بُدَّ أن نعود القهقري حتى عام ١٧٤٣م مثلاً، عندما وصل اليهودي الأحذب موسى مندلسون ذو الثلاثة عشر عامًا، على الأقدام من ديساو، وممر ببوابة روزنتهالر (وهي البوابة الوحيدة التي كانت مفتوحةً آنذاك لليهود غير المقيمين بالمدينة)، على مبعدة خمس دقائق فحسب من منزل الآنسة برودر، كي يجد مدرسًا يوافق على تعليمه مجانًا القراءة والكتابة والفلسفة. لقد صار هذا الأحذب فيلسوفًا، نموذجًا لثلاثين الحكيم،^{١٤} وقام قبره في مكانٍ هو أول ما تقع عليه عينا الآنسة برودر عندما تنظر من نافذتها في الصباح لتحدد الطقس. وعبر البوابة مع مندلسون شابٌ آخر (سجِّل دفتر البوابة في ذلك المساء ما يلي: «١٦ خنزيرًا، ٧ بقرات، يهوديين») هو آرون فالشتاين، الذي كان يسعى وراء الثراء لا الحكمة، فتتلمذ على يد مدرب صقور في شارع كلينه روزنتهالر، وتزوَّج (بتصريحٍ ملكي) من ابنته ميريام، ثم استولى على الحانوت، وأنجب أطفالًا، أنجبوا

^{١٤} اسم كتاب مشهور للكاتب الألماني الكلاسيكي «ليسنج»، يتألف من حِكَم وأمثال.

أطفالاً، وهلم جراً حتى اشترى حفيد حفيده، أو حفيد حفيد حفيده، وكان يدعى آرون فالشتاين، منزلاً قديماً على حافة المقبرة اليهودية القديمة بعد أن أصبحت برلين مقرّاً لإمبراطور بسنواتٍ قليلة. وأزال المنزل القديم ثم بنى واحداً جديداً بأربعة طوابق وفناءين، وأربعة عشر درجاً، لا ليقطن به وإنما ليؤجره. لكن ابنه روبن انتقل إليه فيما بعد، بعد أن باع المخزن الذي كان يقوم على الناصية في شارع كروزنيك، وترك دين آبائه، وانتقل إلى ممارسة أعمال البنوك، وعاش مع زوجته روث في الطابق الأول الأمامي، بين الكتب، واللوحات والأثاث القديم. وعاش ابنه جوهانس، الذي كتّب في الصحف باسم هانزمال، في مسكنٍ أرخص بالطابق الرابع، أصبح خالياً ذات يومٍ بعد أن خفقت راية الصليب المعقوف في رياح الشتاء فوق دار التكنولوجيا، الذي يمكن رؤيته (خلف برج المعبد اليهودي) من النافذة.

بعد ذلك بأسبوعين، تقدّم ساعي البريد باشكه، من الجناح «ج»، بالفناء الخلفي، إلى مكتب الإسكان، مطالباً بشقة «اليهودي» الخالية في الطابق الأول الأمامي. وفي نفس اليوم وقّع فيلهلم برودر في برجفلة بالقرب من موجيلنو في بولنדה، عقدًا أنهى به عشر سنوات من العمل القاصم للظهر فوق مزرعة من ستة هكتارات. وغادر مع زوجته وابنيه وكلبه، وسلال وأجولة وأربعة آلاف زلوتي،^{١٥} القرية التي لم تصبح أبداً وطناً «كي يعود إلى الرايخ» مستجيباً لنداء قلبه أساساً قبل نداء الوطن.^{١٦} كان التويمان ذوا التسع سنوات، اللذان كانا يدفعان عربة اليد، ييكيان لأنهما يسمعان أمهما وكلبهما، اللذين يجران العربة، يعويان ويولولان. أما أبوهما فكان يسير وسط الطريق، على أهبة التلويح لإبعاد العربات، إذا ما ظهرت، عن طريق الركب العائلي، ولما كان ذلك لم يحدث، فقد انطلق يغني ويصفر نشيداً، هو نشيد هوهنفريدبرج،^{١٧} بتنويعات متواصلة، يستخدم فيها أحياناً كلمات مثل «السيسيمبري والتيتونونز، اللانجوباها هاردز، والفاندا هاهالز»،^{١٨} لأنه يشعر أنه في خضم

^{١٥} الوحدة الأساسية للعملة البولندية حتى اليوم.

^{١٦} وجّه النازيون عقب استيلائهم على السلطة نداءً إلى كافة الألمان من أصل آري خارج البلاد، كي يعودوا إلى ألمانيا ليأخذوا مكان العناصر غير الآرية واليهود. وشكّلوا لهذا الغرض منظمة باسم «رابطة الألمان في الخارج» كانت تتولى إرسال النشرات وكُتيبات الدعاية لهم.

^{١٧} النشيد النازي.

^{١٨} الكلمات السالفة تحريفٌ بسيط، بداعي الغناء، لأسماء القبائل الأوروبية القديمة مثل التيتون والفاندا، التي كان النازيون يُشيدون بتقاليدها، وطابعها القتالي المستمر.

عملية الهجرة العظمى للشعوب التي يعرف عنها كل شيء من الكتاب الذي بعثت به إليه رابطة الألمان في الخارج. وفي القطار جعل يعين على النوافذ التي غطاها الضباب الطرق التي تنطلق منها القبايل النازحة، وهو سعيد لأنه حظي بجمهور من السامعين أكبر وأفضل (وأكثر يقظة) من جمهور فندق القرية في برجفلة، حيث تنتشر رائحة الخمر الكريهة، التي لا يطيقها بسبب معدته، الثالثة منذ تطوُّعه للحرب عام ١٩١٧م، وتزداد دقته في السرد مع ارتفاع حماسه. فيتوقف إصبعه عند بقعة من القذر وسط اللوح الزجاجي. بحيرة كونستانس. ها هم قبائل الألمان القدامى يتجادلون حول نار معسكرهم: أيعبرون البحيرة فوق أطواف، أم يدورون حولها، أم يعودون أدراجهم؟ عندئذٍ تقتحم امرأة تحمل طفلاً أشقر على ظهرها حلقة الرؤساء وتقول (بالألمانية القديمة طبعاً، لكنه يقولها الآن بالألمانية الحديثة حتى يفهم سامعوه): لقد قطعنا طريقاً طويلاً، ولم يكن لدينا وقتٌ أثناء ذلك لغسيل الملابس؛ ولهذا أفضل ألا أرى سراويلكم الداخلية. كانت هذه هي الحُجة الحاسمة، وهكذا استقروا حول البحيرة وأصبحوا جرماناً. وهذا هو ما يجعل الفرنسيين، الذين هم حقاً «فرانكونيان» منحطون، ما زالوا يلقَّبوننا بالألمان^{١٩} إلى اليوم ولا يلقَّبوننا مثلاً بالفاندال. ولقد كان الفاندال يتميزون بحب التجوال واستقروا أخيراً هنا تحت، بالقرب من مقبض الباب، في أفريقيا مع الفتيات السود، وهذا هو السبب في أن المستكشفين يلتقون دائماً بزنجٍ ذوي عيون زرقاء. ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الزويبيين الإنجلز، والجوتز، والساكسون، والأوسترغوت، والفرستوجوت، بينما النافذة صغيرة للغاية. إنه يعرف كل شيء عنهم، لكنه لا يعرف كلمة واحدة من البولندية عندما يستفسر منه رجلُ الجمارك عن النقود. وبعد ذلك يتعرَّض أود وأسر للذبح، والأريك للدفن، في بوزنتو كما يعلم الجميع، ويلحق شارل مارتل الهزيمة بالعرب، وسوف يكون هو أيضاً، فيلهلم برودر، منتصراً في أرض أجنبية، رغم أنها ليست حقاً أجنبية تماماً؛ فقد وُلد في برلين عام ١٩٠٠م. وهو يملك جوازاً ألمانياً حقيقياً — يكلفه تجديده كل سنة خنزيراً كاملاً — وهو بذلك ألماني، وأغنيته هي «دويتشلاند آير آلاس»،^{٢٠} التي يجبر بها من النافذة عندما يصل القطار إلى نينتينسين؛ حيث يجري توزيع القهوة في أكواب من الورق، وحيث ترفرف

^{١٩} ألماني بالإنجليزية هي German أما بالفرنسية فهي Allemagne.

^{٢٠} ألمانيا فوق الجميع.

أعلام ألمانيا التي استيقظت. إن التوعمين فخوران بأبيهما، وزوجته تبكي قليلاً، بدافع القلق وحسب (فلم يسبق لها أن خطت أبعد من موجيلنو)، وليس بسبب لحظات الوداع، وبالتأكيد ليس لأنها آسفة على زواجها من هذا المدعي الثرثار المليء بالقُرح. هذا شيء لا يمكنها عمله، الأسف على شيء ما. ولو سألتها أحد لابتسمت مُحرجة، كما ابتسمت عندما استفسر قريب لها من بوزن عن حبها لهذا الرجل الذي يعشق الكتب والمستمعين كما يعشق الكُسالى البيرة والخمر. لم تفهم السؤال؛ فهي تحمل اسمه، وتُشاركه فراشه، وتلد أطفاله. الأهم من هذا هو قطعة الكروشيه التي سقطت دموعها فوقها لأن هيرمان (الشيروسكي بالطبع)^{٢١} سيُولد عارياً، ولو في برلين. وهذا ما حدث قبل الموعد بستة أسابيع، في دار بشارع «أوجست»، أُطلق عليها اسم «دار الإقامة للعائلات التابع لهيئة الرخاء الشعبي الاشتراكية الوطنية»،^{٢٢} وما زال الجميع يدعونها باسمها القديم «سرير أوجست». إن هرمان لا يشرب ولا يبكي، وهو لا يعدو أن يكون كومة من العظام، لكنه مهم بالنسبة للمخصصات السكنية؛ فبفضله حصلوا على المسكن العلوي في المنزل المجاور للمقبرة اليهودية القديمة؛ ثلاث غرف ومطبخ وحمام ومدخل أمامي وآخر خلفي، وأثاث ساهمت به الدولة، وهو أثاث لا يستطيعون تنظيمه على الفور؛ لأن أمير الشيروسكان، الذي لا يتجاوز وزنه وزن الريشة يجب حمله أولاً إلى قبره، على مبعدة محطات كثيرة للمترو السفلي، بالقرب من منتزه شيلر، في ذلك الجزء من المدينة الذي لا يمكن زيارته اليوم، ولماذا تذهب إلى هناك؟ إن القبر لم يعد قائماً، مثل قبر ملك القوط الشرقيين الذي أُزيل من الوجود في عام الأولمبياد.^{٢٣} إن أمه تُلقي اللوم على اللبن، الذي يتعين ابتاعه من حانوت، وتتساقط دموعها التي لم تجف أبداً، في غسيل الآخرين القذر. ويتولى التويمان بيع الصحف، ويعمل فيلهلم برودر بواباً لفندق، وبائعاً لليويو، ولأوراق اليانصيب، ومنادياً للسيارات، وأخيراً يفوز بعمل حكومي، ساعياً (أمامه فرصة للترقي) في مطابع الدولة في شارع جيتشنر، لديه الآن عدد كافٍ من المستمعين، فهناك التويمان يوم الأحد، والعاملون الآخرون في غرفة الساعة خلال ساعات العمل، والجيران أحياناً في

^{٢١} زعيم القبائل الألمانية القديمة.

^{٢٢} منظمة نازية ترعى الأسر ذات الأطفال الكثيرين.

^{٢٣} عام ١٩٣٩م الذي تولت فيه ألمانيا تنظيم الدورة الأولمبية، ويُعتبر أكثر الأعوام ازدهاراً في تاريخ الحكم النازي.

المساء، لكن ليسوا كلهم؛ فباشكه مثلاً لم يحظَ بالاستماع إليه أبداً؛ فعندما يلتقي باشكه ببرودر في المدخل، يصبق على الأرض أولاً لأن برودر فاز بالمسكن بدلاً منه، وثانياً لأن له علاقات باليهود القاطنين في الطابق الأرضي، آل فالشتاين، الذين أعجزهم السن والكلال عن اقتفاء أثر ابنهم إلى إنجلترا. والحق أن برودر يتردد على آل فالشتاين، بسبب ما لديهم من كُتب. كُتب عن النزوح العظيم، لكنها لم تُعد تُثير اهتمامه؛ فهناك أولاً آلهة الإغريق، ثم سكان التبت، والسومريون، ثم الإينكا. لكن لا يستوعب إلا القليل من كل موضوع ويتخيل الباقي، كما فعل في موضوع الألمان على بحيرة كونستانس، ويقرر أن يدرس موضوعاً واحداً لفترة طويلة حتى يفهمه، ثم يكتب عنه كتاباً يستوعبه الجميع. وهكذا يملأ كتباً كاملة بالملاحظات، لكنه يرسو، دون أن يلحظ، عند أباطرة الصين وإيفان الهائل. وعندما يبلغ فردريك الأكبر، يحدثه فالشتاين (دون أن يحدث ما يفعله) عن موسى مندلسون، الذي أراد أن يجعل أرفع مستويات الحكمة في متناول أدنى مستويات البشر، والذي يرقد الآن أسفل الصخرة الكبيرة في المقبرة المجاورة.

ونتيجة لهذا، تقبع سبعة مجلدات من الأعمال الكاملة لليهودي الأحذب في خوان فيلهلم برودر من عام ١٩٣٩م حتى عام ١٩٤٥م، وفي الخارج يحترق المعبد اليهودي، وتتحطم نوافذ مسكن الطابق الأرضي، ويُبلغ باشكه الشرطة أن بيد روبن فالشتاين وزوجته قد شوهدا من غير النجمة الصفراء،^{٢٤} ويعتقل البوليس آل فالشتاين، وينتقل باشكه إلى مسكن الطابق الأرضي، ويُطرد فيلهلم برودر من دار الطباعة الحكومية بتهمة القيام بدعاية مناصرة لليهود، وعندما يتلقى استدعاءً للخدمة العسكرية ينام مع زوجته لأول مرة منذ سنوات، ويُطرد من الجيش بسبب قُرحة، وتنجب زوجته فتاة، ويموت أحد التوءمين في إفريقيا، وتخلو كافة مساكن اليهود في المنطقة، وينهار الجناح الجانبي للمنزل في غارة جوية، دافناً تحته زوجة باشكه وأطفالهما، ويعمل برودر في تثبيت صمامات القذائف، وتنقل زوجته المياه تحت نيران المدافع من مضخة شارع كرازينك ويتحول باشكه إلى شخص ودود لطيف، ويصاب ثاني التوءمين بطلقات الرصاص في الشارع نفسه، ويُدفن في المقبرة اليهودية، وينفذ برودر زوجته وطفله من نفقٍ للترام السفلي أغرقته المياه، وتتسول الفتاة ذات الأعوام الخمسة التبغ من الروس، وتنشب الجناح الجانبي بحثاً عن خشب التدفئة، وما زالت مجلدات مندلسون تقبع في خوان برودر.

^{٢٤} فرض النازيون على كل يهودي أن يحمل على ملابسه نجمة صفراء تميّزه.

وظلت الكتب سنواتٍ عديدة بعد الحرب فوق المائدة المجاورة للفراش الذي رقد فيه فيلهلم برودر، يقرأ، ويكتب ملاحظاته، ويتكلم، يتكلم، يتكلم، أمام مستمعه الأخير، ابنته؛ ذلك أن زوجته تنطلق إلى ماجدبورج سعيًا وراء السُّكَّر، أو إلى بيسكوف لتحصل على بطاطس، أو إلى فردر لتأتي بالفاكهة. وهي تركب ألواحًا خشبية متحركة أو ظهر عربة، مقتفيةً أثر طرقٍ خطَّط لها هو من فراشه، وعندما تحصل على شيء يعرف دائمًا كيف يمكن مضاعفته دون صعوبة؛ فعلى سبيل المثال يمكن مبادلة السكر والسجائر الأمريكية في السوق السوداء عند بوابة براندنبورج، ثم السفر بعد ذلك إلى بوتسدام (بالقارب البخاري عبر البحيرة في الشهور التالية لانتها الحرب، وبعد ذلك بواسطة القطار البخاري، بالإضافة إلى مسافة بالأقدام عبر جسرٍ خشبي ضيق)، وفي بوتسدام تتم مبادلة السجائر برغيف من الخبز العسكري الروسي، يُقسَّم شرائح، تغطى بدبس السُّكَّر، وتُباع بسعرٍ مرتفع للمستحجِّمين على شواطئ إحدى بحيرات برلين، وأثناء الصيف يشتري الحطب في محطة هيرمان شتراسه (بداية الخط الحديدي الضيق إلى متنفال)، ويقايض في الشتاء بأحجار القذّاحات وفتائلها، ثم يبادل بعض هذه الأخيرة لدى الأسرى العائدين مقابل قذّاحات صنعوها من صناديق القذائف، ويثبت ما تبقى من أحجار وفتائل في هذه القذّاحات، ثم إلى ماجدبورج لبيعها مقابل سَكَّر.

لم تكن زوجته لتعترض على هذا الطريق المؤدي إلى الرفاهية، لكنها كانت تختصره باستخدام السكَّر مباشرة لتحسين الحساء الهزيل، مفسّرة اختفائه بغارة بوليسية، وتنطلق مباشرة إلى بازفك بأخر ما تبقى من ملاءات لتحويلها إلى بطاطس. إنها سعيدة طالما أن معين زوجها من الأفكار لا ينضب، ويقرأ ويتكلم، ويرعى ابنتهما. وينتابها الرعب عندما يصمت فجأة، ويثن بين الحين والآخر، دون أن يعطيها تعليماته، وعندما يكف من القراءة تُهرع إلى الطبيب متجاهلة اعتراضاته، وعندما يأتي الطبيب يأخذ فيلهلم برودر بعيدًا معه. وتتساقط دموع السيدة برودر القريبة دائمًا من السطح، في ملابس الآخرين، ولما كانت لا تريد أن تصحب معها ابنتها في رحلاتها التموينية، أو تتركها بمفردها، فقد تعلّمت الحياكة من السيدة فولف (التي كانت تقطن فيما سبق بالجناح «س»)، ثم انتقلت إلى مسكن برودر عندما بدأت الغارات الجوية على برلين، محتفظة لنفسها بمدخل مستقل). وهي الآن تحيك لكل من يملك الثمن في صورة طوابع تموين أو فحم أو دقيق، ومن عملاتها السيدة باشكه الجديدة التي تزوّجت الأرمل العجوز بسبب مسكنه الكبير، ووهبته بعد سنواتٍ قليلة طفلًا أسمر من سيرجنت أمريكي. وتذكّر السيدة باشكه للسيدة برودر أن

باشكه ما زال يخشى برودر بسبب موضوع اليهود، وأنه يُهرَع دائماً لمساعدة السلطات حتى يكون معروفاً جيداً ومذكوراً لديهم بالخير إذا ما وشى به أحد.

لكنَّ أحدًا لا يفعل، ولا حتى عندما يعود فيلهم برودر إلى المنزل بربع معة وقلبٍ مريض بعد فترةٍ طويلة في المستشفى، قادرًا على المشي ببطء، ممتلئًا بالأفكار. ويجعل باشكه، رجل البريد المتقاعد، من نفسه إنسانًا نافعًا؛ يُورِّع بطاقات التموين، يُراجع طلبات إصلاح الموقد، يجمع التبرعات لحملات التضامن، للصليب الأحمر، ولضحايا الزلازل، وللنصب التذكارية القومية، ولأنصار السلام المسجونين في ألمانيا الغربية، ويتأكد من إثبات كل جديد في سجل المنزل، ويُراجع القوائم الانتخابية، ويعلق صور رجال الدولة فوق الباب الأمامي، ويرفعها، وينصب الأعلام، ويُراقب الداخلين إلى المنزل والخارجين منه، ويقدم المعلومات. وبينما باشكه مشغول هكذا، فإن فيلهم برودر، الذي أُحيل على التقاعد بسبب العجز، يَدْرَع طرقات برلين في شَعْره الأبيض والمهابة التي أكسبه إياها ضيقُ تنفُّسه، بحثًا عن آثار المشهورين، ويتعين على ابنته أن تذهب إلى مكتبة المدينة بعد الظهر سعيًا وراء المزيد عنهم. بدأ هذا كله بمندلسون، الذي ظل وفيًا له في كل الكوارث. لقد تم تدمير قبره الملاصق للمنزل واختفى تمامًا، ولم يُعد من الممكن العثور على منزله في شارع شباندور، لكن هناك عوضًا عنه آثار لليسنج، ونيكولاي، وكورنر، وشولتزدليتشي، وكارل ماركس ورائكه وتسلتر، وشودوفيسكي، وهوفلاند، وليتفاسي، وهومبولت، وهيغل. والقائمة تنمو يومًا بعد يوم، وربما كان خليقًا به أن يضع كتابًا عن برلين ورجالها العظام.

أصبح أكثر تواضعًا، ولم يُعد يُحاول فهم كل شيء. إن اهتمامه مركَّز الآن على حياة الناس، وشيخوختهم بوجهٍ خاص، وتحوَّل هذه التفاصيل في الحال إلى حكاياتٍ من قبيل: «وعندئذٍ قال ليسنج لفولتير: يا صديقي العزيز» ويعلو كُوم دفاتر الملاحظات في الخوان. أصبح عددها أخيرًا ثمانية عشر دفترًا، يتألف كلُّ منها من خمسين صفحة؛ أي حوالي الألف من صفحات بلا هوامشٍ امتلأت بالملاحظات، لكن الإصلاح التعليمي في النهاية يحطِّم قلب فيلهم برودر المريض، وكلما تقدَّم به السن، وازدادت قراءاته، تضاعف إعجابه بهؤلاء الذين يستطيعون فهم تلك الأشياء التي يُغلق عليه فهمها. وتحصل ابنته على درجاتٍ جيدة في المدرسة، وبموافقته الفخورة تلتحق بمدرسةٍ لقواعد اللغة. منذ اختفى العجوز فالشتاين، لم يُعد أمامه من هدف لإعجابه، فأسبغَه على ابنته، وأدَّى به هذا، مع اقتراب موعد امتحاناتها النهائية، لأن يُحرِّرها من دورها في عمله، ويذهب بنفسه إلى مكتبة المدينة التي كان يتجنبها حتى هذه اللحظة في وقارٍ متواضع.

لكن ابنته التي ظَلَّتْ لعهدٍ طويل المدير الفعلي للأسرة، لا تُقَرُّ هذه الخطوة، لأسبابٍ غير واضحة؛ ولهذا يتظاهر ذات يوم، بينما تكون في المدرسة، بالذهاب إلى الطبيب. ويغادر المنزل مرتدباً بذلته، وقميصاً أبيض، وربطة عنق. ولأن باشكه ظل يُتابعه ببصره، فقد استدار يميناً في شارع أورانينبورج في اتجاه مستشفى الشاريتيه. وبعد نصف ساعة، إثر تحويلةٍ حول جزيرة المتحف، يقف عاجزاً أمام جدار من أدراج الكتالوجات أرشدته إليه أمانةٌ مكتبةٍ عجوزٌ عندما سألها عما كُتِبَ عن شارنهورست. وكى لا يبدو مجرداً من الذوق، يحمل أحد الأدراج إلى المائدة كالآخرين، ويقلَّب بين البطاقات جُزأً، دون أن يعرف عما يجب أن يبحث عنه. وعندما يُحاول أخيراً أن يحبس معنى الأرقام والحروف التي تميِّز كل بطاقة يكون قد نسي ما يبحث عنه. وبانتباهٍ يدرس تاريخ النشر وعدد الصفحات ورقم الرف وتاريخ الإلحاق بالمكتبة، كما لو كان مُلزماً بمعرفتها عن ظهر قلب، وهو مذهول من كثرة الأسماء، مرعوب من عدد الرجال (والنساء) الذين كُتِبوا قبله، أحياناً كتابين أو ثلاثة أو عشرةً مختلفة. ويُحاول أن يستوعب معنى عناوين من قبيل Swiss Idiotikon و«تقييم نقدي لنظرية التحول من السواكن الشفاهية الحلقية الجرمانية-الهندية إلى شفاهاتٍ جرمانية خالصة». ويشعر برغبةٍ جارفة في أن يعرف شيئاً عن «المواعظ الجنائزية في الأديرة الرمادية» أو «محاكمات جرنيلاند»، ويظل جالساً عدة ساعات وقد تورَّد من الانفعال، ناسياً طعامه، وأخيراً تسأله كُتِيبَةٌ شابة كانت ترقبه عمَّ يبحث. فيشرح لها الأمر بتفصيلٍ شديد؛ إنه متقاعد، مريض، قلبه ومعدته، يستغرق منه صعود الدرج عشر دقائق، وهو يمشي كثيراً في طرقاتٍ محتشدة بالناس الذين يعرفون إلى أين هم ذاهبون ويجهلون من أين جاءوا، تاريخياً، ويطنون أرصفة، ويقطنون منازل، عرفت آخرين من قبلهم، آباءهم وأجدادهم، لكنه لا يعني هؤلاء، وإنما أولئك المشهورين، الذين بدونهم سيكونون مختلفين، ولو لم يدركوا ذلك أو يُقروا به، مثل لايبتز ولايبنت ومندلسون بورسيج وشاميزو، وإذا كان الناس يرفضون تصديق ذلك فليفكروا إذن في ماركس، أو هتلر، أجل، هو أيضاً. لم تكن فتاة المكتبة تنتوي الاشتراك في مناقشة ولا تملكُ الوقت لذلك، لكنها فهمت وقالت: كتالوج الموضوعات، مادة برلين، قسم التاريخ، فرع البرلنيين المشهورين. ثم أرته الغرفة، وأعطته درج الكتالوج. وعندما رأت أنه بلا حيلة، صحبته إلى قاعة القراءة ليملاً البطاقات التي سُرسل إلى المخزن، فلا بدَّ من العثور على الكتب لإرسالها إلى غرفة القراءة حتى يضعها المشرف على الغرفة فوق مائدة فيلهلم برودر، وفي هذه الأثناء يُلقي السيد ذو الشعر الرمادي نظرةً على الرفوف المفتوحة التي تحمل

المراجع، ويكتشف دائرة للمعارف، ويرغب في البحث عن شيء لكنه لا يعرف ما هو منذ كان رأسه محشواً بالأفكار إلى آخرها بحيث يصعب إخراج إحداها. وأخيراً تُنتج إحدى العمليات الغامضة عبارة «نزوح الأمم»، فيبحث عنها. هناك خارطة يقتفي فوقها أثر الطرق التي قطعها القوط الشرقيون والفاندال، لكن أهميتها لديه تكمن في أنها تذكره كثيراً ببرجفلة، ورابطة الألمان في الخارج، ونويه بتشين. ويقرر التردد على المكتبة كل صباح، ومفاجأة ابنته بمعلوماته في المساء. لكن الكتب الآن على مائدته، أكوام من الكتب الجديدة والقديمة عن برلين وشخصياتها، ثلاثة جدران من الكتب التي تؤلف مربعا مفتوحا. ويجلس إلى الجانب المفتوح، منحنياً إلى الأمام، وقد اختفى خلف الجدران، ولا يتحرك مرة ثانية بعد النظرة السريعة التي ألقاها على العناوين بعينين مضطربتين تصاحبهما يدان مرتعتشان. وعندما شرعت الموظفة ترتدي قُبعتها ومعطفها، ظننت العجوز الوقور نائماً. صفتت حقيبة يدها في ضجة، وطهرت حنجرتها بصوت مرتفع، ثم أطفأت نور السقف، وعندئذ فقط لمست كتفه. أجل، إنه نائم، وليس بوسع الطبيب إيقاظه. ولا ابنته التي تشعر أنها مسئولة لأنها لم تجد الشجاعة لأن تُخبره بأن فكرته الأصلية قد خطرت لكثيرين غيره من قبل، وأنهم بإمكانيات تفوقه، قد وضعوها موضع التنفيذ.

ولأن الكنيسة تؤمن بأن الموتى لم يعد لهم شأن بهذا العالم، وبذلك لم يعد لهم شأن بانقسام المدينة إلى مدينتين و«عالمين»، أو لأنها تأمل في تقييم الواقع المر بتجاهله، فإن دموع السيدة برودر تتساقط مرة أخرى، كما كان الشأن عند وفاة هرمان وثيودريك، في مقبرة شيلر بارك، في ذلك الجزء من برلين الذي لم يعد متاحاً لأحد اليوم.^{٢٥} ولماذا يقوم أحد بالرحلة؟ وتؤدي الابنة امتحاناتها، ثم تعمل في مصنع للمصابيح الكهربائية، ثم تواصل الدراسة في لايبزيغ، أما السيدة برودر، فلديها إلى جوار المنزل مباشرة قبر ثاني التوءمين، الذي عرّض نفسه للقتل في نفس الشارع دفاعاً عن حُطام بورصة الأوراق المالية.^{٢٦} على أية حال، ليس أمامها من وقت طويل؛ لأن هدوء حياة التقاعد في غياب أفكار فيلهم، وإدراكها أنها غير ذات نفع لابنتها التي استقلت بنفسها منذ سنوات، يقودانها سريعاً إلى حتفها.

^{٢٥} يقصد برلين الغربية التي لا يستطيع أحد من ألمانيا الديمقراطية زيارتها إلا بتصريح خاص يصعب الحصول عليه عادة.

^{٢٦} أي دفاعاً عن ألمانيا النازية.

بعد وفاة الاثنين، يقوم باشكه بجمع التبرعات من السكان القدامى في الأجنحة الثمانية، لشراء إكليل من الزهور يستقر ذات يوم فوق مقعد المطبخ في الفناء الأمامي إلى جوار صناديق الفضلات، كما يُقرّر أيضاً التخلي عن بعض من واجباته المُرهقة، وتتلقى الأنسة برودر كلمات العزاء من القس والسيد باشكه والسيدة فولف في مقبرة غير معروفة في برنيسلاوبرج، وهي ليست حزينه وحسب بل ومحرجة أيضاً لأنها انفصلت عن الكنيسة حديثاً. وقبل أن تعود إلى لايبزيغ، تُعدها السيدة فولف، الساكنة الأساسية الآن في مسكن الطابق الرابع مع زوجها (مهنته: ساق، هوايته: تربية الحمام، عاد من معسكر أسرى الحرب في أوائل الخمسينيات) تُعدها بأن تحتفظ لها بالغرفة ذات المدخل الخلفي التي تستطيع منها أن تُطل على المقبرة اليهودية؛ حيث يقوم قبر موسى مندلسون من جديد أمام تلك القبور التي يعود تاريخها إلى أبريل ومايو ١٩٤٥م.

وأمام هذا الباب الخلفي، على درج الجناح ب، وقف كارل دون حراك عدة دقائق، قبل أن يستقر رأيه على دق الجرس.

لكن ليس بعدُ. لقد وقف أولاً في الفناء المظلم، وهو منفعل أكثر مما يجب أن يعترف، وقد دبّ إليه شيء من الخوف بعد لقائه بالسيدة جيورنچ، التي صرخت، واستولى عليه الشعور بأنه أقرب إلى مواطنٍ محترم في إحدى ضواحي الأضواء الحمراء، منه إلى فارسٍ أسفل شرفة معبودته، أو مغامرٍ في أنحاءٍ أجنبية. حفزه الأمل في اكتشاف شيءٍ مميز للأنسة برودر من الستائر أو الضوء، أن يتطلع إلى النوافذ، حتى اختار في النهاية (بوسعنا القول إنه أمرٌ مميز أيضاً) الوسيلة السعيدة؛ أي درج الجناح ج. وبنصف وعيٍ جعل يصوغ الطريقة التي سيصف بها هذه الدقائق للأنسة برودر فيما بعدُ.

توج وصفه اللاحق بهذه الكلمات: «بعد سنواتٍ قليلة سيزور السائحون آخر ما تبقى من هذه المنازل كما نزور نحن منازل كيدلنبرج نصف الخشبية، وسيلقي المرشدون على مسامعهم مقتطفاتٍ من نثر دوبلين أو أرنو هولتز؛ كاد السقف يناطح النجوم، وتردد ضجيج الورشة في الفناء، كان حقاً مسكناً من نوع تل النمل، تتردد موسيقي الأرغن في فناءه، وفي القبو فئران أنت تعرفين الأسلوب.» وقد سارعت الأنسة برودر التي لم تكن تعرف، وفقط تذكرت اسم هولتز من دروس الأدب الألماني، بالقفز فوق حاجز جهلها، وشرعت تتحدث عن تاريخ البناء. ولم تتمكن من التغلب على هذا الخجل والاعتراف بوجود ثغراتٍ في معلوماتها إلا بعد شهر، عندما غيّرها الحب.

كانت هناك خطواتٌ حديدية تؤدي إلى مداخل السلالم الثلاثة في الفناء الأمامي. وفي زُده المنزل الضيقة كان الظلام فاحماً. تحسّس إرب الجدار بحثاً عن مفتاح الضوء،

فاصطدم بأنسجة عناكب، وقاذورات، مسقطاً الطلاء، خادشاً أطراف أصابعه، شق طريقه متعثراً إلى الطابق الأرضي العلوي، وتحسّس الجدار ثانية، حتى وجد مفتاحاً ضغطه، فأحدث ضجة؛ إلى اليمين دق جرس، وإلى اليسار نبّح كلب وجعل يخمش الباب، إلى اليمين صرّحت امرأة، وإلى اليسار زعق رجل. وفي لهجة من يصرخ طلباً للنجدة، طالبت المرأة بأن تعرف من هو، وماذا يريد، أما الرجل فلم يكن يبغي شيئاً سوى الهدوء. صاح بصوت مرتفع: هدوءاً. مضاعفاً الضجة بقعقة قبقابه الخشبي. وشرع الكلب يعوي، ثم انفتح الباب في عنف عن جبل في بيجامة، تبدّى هيكله في ضوء مطبخه، لعن الجرس المرتفع الذي يحرمه من نوم وردية الليل، ولعن السيدة جيورنج صاحبة الجرس والأبله الذي ضغطه. ورصع الرجل حديثه بشتائم ظنّها إرب من لغة الماضي، لكنه لم يهاجم إلا كلبه الذي كان يحاول التسلل إلى الردهة كاشفاً عن أنيابه، مطلقاً عواءً مخيفاً، كي يصل إلى سيقان إرب. لم يترك الرجل ثغرة يمكن أن يُودع إرب خلالها اعتذاراً، لكنه لم يحل بينه وضغط مفتاح النور ومواصلة طريقه إلى أعلى؛ حيث كانت في انتظاره الجدة ماشه والسيدة باشولكه في الطابق الأول، وأطفال توخلر والآنسة لانجه في الثاني والسيد فويخت في الثالث والمرضة آنروزه في الرابع. أما تحت فكانت السيدة جيورنج التي فتحت بابها أخيراً، تحيط كؤاده (الرجل الجبل) والمؤتمر الرأسي للمنزل كله، علماً بخطورة الموقف؛ أن رجلاً كان يكمن في الفناء، لا يعلم غير الله منذ متى، وأنه تفقّد كل النوافذ، وهاجمها، ثم صعد الدرج متسربلاً بالظلام. من يعلم ماذا ينتوي؟ لعلّه تبين أن آل لومان في الخارج وأن أطفال توخلر بمفردهم. يجب أن يتولى أحد استدعاء الشرطة. وفي هذه الأثناء كان إرب يقترب من الطابق الخامس، الذي لم يكن له وجود. وفي منتصف الطريق؛ أي في الرابع والنصف، كان هناك باب مغلق يمكن فتحه بمفتاح ضخم. وقد أبرزت الممرضة آنروزه هذا المفتاح عندما أعلن كؤاده، الذي ارتدى ملابسه وما زال يلعن وهو يرقى السلم، أنه سيأخذ الشخص المريب، من أقصر الطرق، إلى باشكه، الحارس. ولما كان الاعتقال قد تم بين الطابقين الثالث والرابع، فإن أقصر الطرق كان يمتد عبر السندرة^{٢٧} التي تربط بين كافة السلال. أنت ألواح السندرة الخشبية، مطلقة غباراً، تحت الثقل غير العادي لسكان الجناح ج. وقاد أطفال توخلر الموكب بمشعل كهربائي، وقد أحاطت قبضة كؤاده بأعلى ذراع إرب، بينما

^{٢٧} طابق مسروق يُستخدم كمخزن.

تعاونت الآنسة لانجه والسيدة باشولكه على مساندة الجدة ماشة التي أصرت على ألا يفوتها شيء. السيدة جيورننج وحدها هي التي تخلقت عن الجمع، وقد حشيت أن يلحق أدنى ما بردائها وشعرها المصبوغ حديثاً، ولم تكن تزور السندرة إلا في الأوفرول وقد غطت رأسها؛ ذلك أن النظام الجديد للأشياء لم ينتصر بعد هناك في أعلى. كانت السندرة ما زالت تعاني من الفوضى وغياب القانون اللذين تميزت بهما فترة ما بعد الحرب مباشرة، واللذين تم القضاء عليهما، من الناحية الرسمية، منذ عهد بعيد. تجاهلت السندرة كل اللوائح الصحية ومراسيم الوقاية من الحرائق، وقوانين الدفاع المدني، وأغرقت اللوائح التنظيمية الخاصة بسُلطات الإسكان البلدي في القاذورات وأنسجة العناكب؛ ففيها، فوق غرفة الآنسة برودر مباشرة، يُربى الهر فولف، الساقى، الحمام المحظور، وفي أركان أخرى وخلف حواجز من الخشب والأسلاك والكرتون، يختزن سكان الطوابق العليا الفحم، وتعرض «مُلل» الأسرة وآلات الحياكة للصدأ، ويُعشش دود الخشب السمين في آلات البيانو والخوانات التي خلفها من قصى من السكان، وفي ضوء مصابيح الزحف تبدى الضباب متسللاً عبر كوة المنور المكسورة، ولعت هوائيات التليفزيون.

وخز الغبار أنوفهم جميعاً عندما برزوا عند قمة السلم الأمامي، وهم يُزيلون أنسجة العنكبوت من وجوههم، لكن الغبار أعفاهم من جزء من السلم؛ لأنه أصاب كؤاده بنوبة عطس. وأخرجت هذه النوبة باشكه ذا الأذن الحادة (هو وابنته) من مسكنه ودفعته إلى صعود السلم؛ بحيث أمكن النظر في سوء الفهم الحادث وتصفيته عند الطابق الثاني، مما لم يدع للجماعة سوى أن تتقهقر، هادئة محبطة.

استغل باشكه الطريق إلى أسفل في استجواب إرب بطريقة غير مباشرة. أن إرب يجب ألا يغضب من السكان؛ لأنه كعضو في الحزب، يعرف بالطبع قيمة اليقظة، وخاصة في هذه الأثناء؛ فقد وقع حادث سطو بالجناح ج، وهي أول مرة منذ عدة عقود، وقد أوصاهم اللوتنانت مول، ضابط البوليس المحلي، وصديق عزيز لباشكه، بأن يفتحوا عيونهم جيداً. وهذا هو ما يفعلونه، لكنهم لا يعرفون الطبيعة البشرية رغم أنك بالطبع لا تستطيع التعرف على اللص من وجهه، ولعل أحداً منهم لم يكن يعرف أن الفتاة برودر قد عادت إلى برلين. لن يكون ذلك لمدة طويلة، أليس كذلك؟ حقاً؟ إن سماع ذلك لأمرٌ يبعث على السرور؛ فعندما تحصل على تصريح إقامة في برلين سوف تبحث عن مسكن أفضل، وربما تتزوج! (وألقي باشكه نظرة على يدي إرب، لكنهما كانتا في القفاز). ومن الناحية الأخرى فإن أباهما كان يشعر بالاطمئنان هنا. كان رجلاً ممتازاً، فيلهلم، هل عرفته يا سيد ... سيد ...؟

(نظرة متسائلة). اسمي باشكه. حسنًا، لعل السيد إرب من الأقارب. أوه، زميل؟ دودة كُتِبَ أخرى، لم أقصد إساءة، فقد كان والدها كذلك أيضًا. إذن ربما استطاع السيد إرب أن يستخدم نفوذَه كي تحصّل على شيءٍ أفضل، في منزلٍ جديد مثلاً؛ فالمثقفون يتمتّعون بالأفضلية. ما رأيك في كأسٍ من الخمر؟ بعد كل هذه الانفعالات. كلا، كلا، لا يهتم، إنه يفهم الموقف جيدًا، لقد كان هو نفسه شابًا ذات يوم، والأمسيات تنصّرم سريعًا عندما ينفرد اثنان، وهو باشكه، سيري ما يمكن عمله من أجل الفتاة؛ فهو بالرغم من كل شيء، قد حملها على ذراعيه عندما كانت طفلة، وهو يعرف عديدًا من أعضاء الحزب في المنطقة، وفي مكتب الإسكان أيضًا، وهو حقًا مدينٌ بالأمر لصديقه القديم فيلهلم. إن أنيتا سوف ترشد الهر إرب إلى الطريق حتى لا يتوه مرةً ثانية. مع أفضل التمنيات بأمنية طيبة جدًا. ومدّ يده، فاضطرّ إرب لانتزاع قفّازه، وعندئذٍ التمع خاتم الزواج العريض الذي كان سائدًا منذ اثني عشر عامًا، في ضوء السّلم، ولم يعد أمام باشكه إلا أن يبدأ من جديد حول يقظة السكان، التي يجب أن يتفهمها الهر إرب من وجهة النظر الأخلاقية أيضًا، التي كانت دائمًا مشكلة في هذه المنطقة (ما زال الناس بالتأكيد يذكرون أسماء مثل شارع شتاين، وشارع مولك، وشارع أكر).^{٢٨} لا بدّ من اتخاذ خطواتٍ جادة ضد هذه السمعة السيئة (التي تمثّل تركّة تعسة للماضي الرأسمالي)، وهذا يتطلب عينًا مفتوحة، مثلًا، على النساء الكهلات اللاتي يزورهن الغرباء لمدة ساعة أو الليل بأكمله، وعلى النساء اللاتي يعشن بمفردهن ولا يغادرن مساكنهن إلا في المساء. والأفضل أن يكون المرء مبالغًا في شكّه، ولا أحد يحب أن يلتقي في ردهاتٍ مظلمة بسادة يبحثون عن الأنسة فلانة أو علّانة؛ فالمرء يعرف جيدًا هؤلاء الموظفين الذين يأتون من الأقاليم بحافظات أوراقهم وعيونهم البريئة، ولا بدّ أن يوضّح المرء لهم أن الناس الذين يعيشون هنا هم من نفس النوع الذي يعيش لديهم هناك. على المرء ببساطة أن يكون على حذر حتى لا تعود الأمور كما كانت عليه قبل ١٩٤٥م، وهذا أبسط ما يدين به المرء للعهد الجديد والجيل الصاعد.

وبينما كان يقول كل هذا، كان يتطلع إلى ابنته الجنوبية ذات البشرة السمراء،^{٢٩} بحنانٍ أبوي، وابتسمت هي له كما لو كانت لا تفهم شيئًا على الإطلاق مما يقول. لكنها

^{٢٨} كانت هذه الشوارع، حتى نهاية الحرب وقيام النظام الجديد، معروفةً بأنها موطن العاهرات الرخيصات.

^{٢٩} إشارة إلى حقيقة مولدها.

عندما مضت مع إرب (حتى لا يتوه مرة ثانية) ابتسمت بطريقة مختلفة، مثل من يعرف جيداً ما يجري داخل رجل يعبر الفناء المظلم معها. وقد نفذت التعليمات التي أعطيت لها بصورة حرفية، فأخذت بذراعه (حتى لا يتوه)، ملتصقة به، زاعمة أنها لم تتركب في حياتها أبداً سيارة. وردَّ إرب في أدبٍ مشوب بالشroud؛ لأن حواسه لم تكن تستجيب لمفاتيح الجنوب التي تفتحت قبل أوانها، قدّر استجابتها لرصانة الشقراوات. وأخيراً، في الطابق الثالث، تمكّن من التخلّص من أنيتا، ووقف عدة دقائق أمام الباب قبل أن يدق جرسه، شاعراً أن أنيتا ما تزال قابضة على السلم لتسمع الطريقة التي سيتبادل بها هو والأنسة برودر التحية.

وقف دقائق؛ لأن قلبه كان يدق بصوتٍ مرتفع. كان يتطلع منذ الصباح الباكر إلى هذه اللحظة، لكنه شعر فجأة الآن بالخوف من أن تدمر كلمة واحدة أو نظرة واحدة منها كل آماله.

هكذا روى القصة أكثر من مرة للأنسة برودر، دون أن يذكر أنيتا. كان من الصعب أن يذكرها لأنه أخفى مغامرة السلم بأكملها؛ فما كانت لتتفق مع الصورة التي حاول أن يُبرزها عن نفسه؛ فهو لم يتصرف بدرجة خاصة من الشجاعة أو الثقة بالنفس، أو البرود، ولم يدافع عن نفسه؛ فقد تركهم يفعلون به ما بدا لهم، محتجاً بخجلٍ فحسب، مستخدماً في الاستفسار عن بغيته العديد من كلمات الاعتذار، ملتجئاً إلى السخرية مرة واحدة فقط («يهمني حقيقة أن أعرف من تظنونني»)، شاعراً بقليل من الخوف في السندرة، وباختصار إنه تصرف على طبيعته، كما هو، لا كما أراد أن يبدو، وبدا له أنه لو قدّم نفسه إليها في هذا الضوء لكان معنى ذلك النهاية قبل البداية؛ ولهذا صمت تماماً بشأن ما حدث. وعلى أية حال كانت لديهما مادة كثيرة للساعات الست التي جلس خلالها في مواجهتها.

٦

ولما كانت الشخصيات الأساسية في هذه القصة لا تتعاطى الحبوب المنومة، ولما كانت نفوسهم جميعاً تُعاني من ضياع بعض الأوهام، فإن أحداً منهم لم يكن قد نام بعد في الثالثة صباحاً. رقد كلٌّ منهم على ظهره في الفراش (فراش كلٍّ منهم)، الأنسة برودر على مرتبة من القش، وإرب وإليزابيث على مرتبة من الشرائط المعدنية الداخلية، وحدّقوا جميعاً في السقف، وفكّروا فيما طرأ على الآخر من تغيير، مكتشفين أنه (أو أنها) لم يعد يشبه

الصورة المتخيلة عنه (أو عنها). إليزابيث وحدها كانت عادلة بعض الشيء؛ لأن إرب تصرف كما توقعت؛ فلم تكن صورتها عنه هي الزائفة، وإنما هو نفسه الذي كان زائفاً. لكن ما المعنى هنا للزائف والصحيح، الصبح والغلط، المذنب والبريء؟ لقد تغير كارل، هذا حقيقي، لكن كل شيء يتغير؛ فلا شيء يبقى ثابتاً. الديالكتيك كعذر للخيانة الزوجية؟

كان الوقت ما زال مبكراً في هذه المرحلة للحديث عن الخيانة الزوجية؛ فقد بدت نائية أكثر من أي وقت مضى. كانت إليزابيث تُدرك هذا أيضاً. وما أقلقها لم يكن هو استعدادها لها (وهو ما أحسّته بصورة مهمة)، وإنما التغيرات، غير الهامة في حد ذاتها، التي لاحظتها فيه على مدى نصف ساعة من تلك الليلة. كانت غارقة في النوم في الثانية والنصف، ولم تسمع صوت السيارة. استيقظت فقط عندما فتح الباب، وقبلت في صمت اعتذاره («كنت أظنك في انتظاري»)، وعدلت بناء على طلبه عن إشعال النور، ثم لاحظت على الفور بتقزز رائحة الخمر.

ولنقل الضيق بدلاً من التقزز؛ فلم تكن هي التي لا تقرب الخمر، وإنما هو، وخاصة في المنزل. كان يحتفظ ببعض المشروبات حتى لا يبدو أمام الضيوف خارجاً على المألوف، ولما كانت إليزابيث ترحّب بين الحين والآخر بتناول كأس، فإنه كان من الطبيعي أن تثور إذا كان كل ما ينالها من نوبات شرابه (النادرة) هو الرائحة. كما لاحظت بنفور عودته المتأخرة (وهو ما كان يتجنبه من ناحية أخرى بسبب الساعات المقررة للنوم)، كما لاحظت هرعه غير المألوف إلى إطلاعها على كل شيء.

هذا الموقف الأخير ينبع من حاجة كارل لأن يكون أميناً؛ فعلى مدى الاثني عشر أو الأربعة عشر عاماً الماضية لم يُخف عنها أية أسرار (طالما كانت تُبدي تفهماً لكل شيء، أو على الأقل تُحاول في صمت أن تفهم)، ولما كان كل شيء ما زال طازجاً، فقد وجد صعوبة في تمييز الهام من غير الهام. وبالرغم من هذا، كانت نصف ساعة كافية، منذ كانا يفهمان بعضهما، وكثيراً ما كانت التلميحات والكلمات القليلة كافية.

روى في البداية ما حدث بترتيب حدوثه؛ اجتماع الإدارة، استيقاظه الباسم (أجل، كان أميناً إلى هذا الحد)، حديثه مع كراتش، شارع الآنسة برودر، المنزل، حجرتها (المطبخ في الردهة، والمرحاض مشترك بين السكان جميعاً ويقع في الطابق الثاني)، الأثاث (خزانة الكتب التي تضم طبعة مندلسون النادرة، المائدة، والمقعد ذو المسندين، والفراش) والفقرة المقتبسة من أرنو هولتز («كان سقفها يكاد يناطح...») والجدران البيضاء، أصوات الحمام

من أعلى، أشجار المقبرة خارج النافذة، التليفزيون الدائر في الغرفة المجاورة (والذي يصل من خلال الباب الذي يُخفيه صوانٌ للملابس كصوتٍ حوارٍ جافٍّ صادرٍ عن راديو). ثم حاول أن يتذكّر الموضوعات التي ناقشها (لكنه لم ينجح في ذلك تمامًا)، برلين بالطبع، مشاكل المكتبة، مشاريع الإجازات، كريستا فولف،^{٣٠} السياسة الثقافية، كتاب إنزبرجر، أشعار راينر كونتزه، الألمان، البروسيون، حائط برلين، سيكولوجية القراء، الاستيقاظ المبكر، القنبلة الذرية، الشاي بالنعناع، الرياضة وهواتها، المرأة والمهنة، المنافقون، فهرس الموضوعات، جوني ووكر، أصحاب أكواخ العطلات، أفلام ألمانيا الديمقراطية، البوند زفير،^{٣١} ما الذي لم يناقشاه؟

الأمر الشخصي؛ فقد بدت من المحظورات. وازداد تقريره فوضى، لكنه امتلأ بالتفصيلات، عندما شرع يتحدث عن خصائصها، مثلًا كيف تلمس حاجبها باستمرار وهي تُصغي، كيف لا تسمح باستخدام لهجة أهالي برلين،^{٣٢} والطريقة التي تبدأ بها كل فكرة جديدة بعرضٍ شامل لا يجعلها بعيدًا وحسب وإنما عميقًا أيضًا، وعجزها عن رواية النكات، ومحاولاتها اليائسة المتكررة لأن تفعل، ومعرفتها التفصيلية المدهشة بالتاريخ، واستمتاعها بالكلمات الأجنبية، التي تنطقها بدقة فائقة وأحيانًا جيدًا جدًا (مثلًا فرنسة pur اللاتينية البسيطة بحيث تصبح pyr)، وهو ما لم يجعل منها — للغربة — مدعاةً للسخرية ولا مثقفًا، وانتهى بحكم شامل؛ إلى الجحيم بهذه الليالي الساهرة، وبهذه المناقشات، ومرحبًا بالأمسيات البهيجة في المنزل مع الزوجة والأطفال والراديو والكتب. وإذا لم يكن هذا واضحًا بما فيه الكفاية، فليكرّر مرةً ثانية: إنها أكثر من قابلهن فكرًا، تتميز بأحكامٍ جادة ومتسرّعة في أغلب الأحيان، متعلمة لكنها غير حكيمة، غير متسامحة لأنها تفتقد إلى التجربة، مثالٌ دقيق للجيل الجديد الذي لا يمكنك فهمه لأنه نشأ في ظروفٍ مختلفة وقرأ كتبًا مختلفة.

^{٣٠} من أبرز الكتاب المعاصرين بألمانيا الديمقراطية، ولدت عام ١٩٢٩م، اشتهرت بأول رواية لها وعنوانها «سماءٌ مقسّمة». تعتبرها صحف ألمانيا الغربية من الكتاب المتميّزين.

^{٣١} جيش ألمانيا الغربية.

^{٣٢} يأنف المثقفون من اللهجة الدارجة الخاصة بأهالي برلين والتي تُسمع عادة في الأماكن الشعبية، والتجمّعات العمالية، ويتم فيها استبدال بعض الحروف والأصوات بغيرها.

«عندما تعلمتُ الأبجدية في ١٩٤٦م، كنا قد اجتزنا الحرب، وليست خبرتنا سوى تاريخ بالنسبة لها، إننا نتقدم في السن يا إلي.» كان خائب الأمل وغاضبًا، لكن إليزابيث لم تستجب. رقدت بلا حراكٍ في الظلام، شاعرةً بالخطر (لكن بالقوة أيضًا على مواجهته) مقاطعةً إياه مرةً واحدة فقط (زوجة حقيقية) لتسأل عن شكلها. وعندما انتهى، وانصرف، وقد خاب أمله نتيجةً لصمتها، قالت: «إذن فقد وقعت في الغرام».

إذا ما أرجعنا حديثه المتدفق طوال نصف ساعة للأمانة، كان ذلك نصف الحقيقة أو ربعها فحسب، وبالتالي غير حقيقي. كان لهذا الفيض عددٌ من الدوافع المتدفقة في قوة أو السائلة في هدوء؛ الرغبة البسيطة في رواية ما حدث، الحاجة إلى الاعتراف لتخليص ضميره، الخشية من أن تقلق زوجته، الخوف من شكواها. تفجر ينبوع الأمانة بصورةً طبيعية (في هدوء)، لكننا نعرف كيف يحدث هذا مع العشاق والمتزوجين، في بداية البداية، هناك اعترافٌ كبير صادق، وثقةٌ في الغفران؛ فكل ما حدث يمتُّ إلى الماضي، قد وقع قبل العهد الجديد، فقد شرعيته لأن المرء قد تغيّر، وكل شيء تغيّر. أجل، تغيّر؛ لأنه منذ اليوم الأول، تعني الأمانة إحداث الألم للشريك، ولا أحد يودُّ إلحاق الأذى بالمحبيب. لكن أحدًا لا يرغب أيضًا في الكذب، وعندما يقول الآخر: «أريد أن أعرف كل شيء»، فإنه ليس صادقًا تمامًا؛ لأنه أيضًا يخشى ألم التفاصيل. والنتيجة أن المرء يكتفي بحقيقة مُشدّبة، حقيقة تمت سنفرة حوافها الجارحة، أو قُسمت هي ذاتها إلى أجزاء تبدو أخف، ويمكن ابتلاعها بلا صعوبة. فهناك مثلًا السؤال عن شكل الآخر (وهو سؤالٌ ماهر من إليزابيث، منذ كانت تعرف النوع الذي يجذبه، والأساليب التي يعبرُ بها عن كل درجة من درجات حماسه)، هذا السؤال يمكن علاجه دون ألم بدون كذب؛ فبدلًا من القول بأنها ممشوقة القوام، هشّة مثل الخزف العتيق، غنية بالاستدارات، متناسقة الجسد، تشبه نساء روبنز (أو أي كليشييه آخر حماسي)، يمكن للمرء أن يقول إنها مقدّدة أو رمزٌ جنسي لدن على شيء من البدانة، أو يتفكّكه قائلاً: «إن شيئًا واحدًا يجعلها تتماسك وهو إيمانها بمهنة المكتبات كقضية»، أو «العقل الكبير يتطلب وعاءً ضخماً» (وهو قول يمكن تعميقه بالغلطة الفرويدية التي يتم فيها استبدال حرفٍ بآخر).^{٣٢}

^{٣٢} وعاءٌ ضخّم بالألمانية يعني Riesengefass وإذا استُبدل حرف F في هذه الكلمة بحرف S سارت Riesengesass ومعناها عجيزةٌ ضخمة.

لم يذهب إرب بالطبع بعيداً إلى هذا الحد؛ فلم يكن هذا هو أسلوبه، ومن التجني عليه أن نزع ذلك؛ فما كان باستطاعته أن يفعل ولو أراد. لكنه تمكّن بشكلٍ ما من الجمع بين السنفرة وملف الكليشيات بمهارة (لم يصبح الفأس ضرورياً إلا فيما بعد) فيقول مثلاً شيئاً ودياً ومجاملاً عن وجهها بينما يضيف أنه غريب، والواقع أن وجهها يبدو غريباً بالفعل بصورةٍ مفزعة إذا شُهد من مقربة، على بعد بوصتين أو ثلاثٍ عندما حاول تقبيلها. ومن الطبيعي أن تذهب هذه الحقيقة ضحية ورقة السنفرة كما حدث من قبل لقرار زيارتها التي ألح أنها تمّت بدافع «الواجب»، وشرائه الخمر في الطريق، واجتذابه حافظة أوراقه فجأةً في الساعة التاسعة قائلًا: «أوه، إن معي بالصدفة شيئاً من الخمر. هل أستطيع؟ هل تُحبين؟»

والموضوعات التي تحدّثنا عنها، لم تكن بالطبع بريئة تماماً كما حاول ملخصه القصير أن يوحي؛ فقد كانت الأمور تجري بصورةٍ رسمية تماماً (الواجب هو الواجب، والخمر ما تزال في الحافظة) عندما تحدّثنا عن قرار لجنة الإدارة بشأنها، لكنهما سرعان ما انتقلا للحديث عن برلين، في صورة أسئلة وأجوبة (هل هي مدينة ظريفة؟ لكن هناك الضواحي والبحيرات وأكواخ العطلات والهواء الشهير، لماذا تُسمى بالحظيرة؟ طراز الباروك البروسي، عمارة التسعينيات، الضواحي الجديدة، هل كان من الضروري إزالة القصر القديم؟ ألا يدعو الأمر إلى الأسف؟ منطقة فيدينج الحمراء السابقة، مدينة القطاعات الأربعة، مدينة العالمين، العاصمتين) وكان لها رأي في كل شيء، ومعرفة واسعة، حكمٌ دقيق، كان الأمر كله مشوّقاً، لكن الأمور الهامة فقط كانت فيما يبدو هي الحقائق الهامشية التي يحصل المرء عليها من خلال أسئلة ماهرة. لقد ولّدت في هذا المسكن وفي ذلك الحين أيضاً كان الحمام يهدل (كان ذلك هو العام الأخير له في المدرسة وتبعه العمل الإجباري ببروسيا الشرقية، ثم التدريب، لم يكن فارق السن كبيراً لدرجة الاستحالة)، وهي تريد الإقامة هنا، لكن أهنأك رجل وراء هذه الرغبة أم لا؟ كلا، في الغالب ليس هناك. لكن لماذا؟ أبسبب تجربة فاشلة؟ إنها تتجنّب الأسئلة؛ فالأمور الشخصية محظورة من جانبها فحسب؛ فلو كان الأمر بيده ما قبل أن ينشأ أطفاله هنا وسط فتافيت الجير والشوارع المسفلّنة، ولما تزوّج أصلاً (يتم سنفرة هذا بالليل في حجرة إليزابيث). لماذا يحدث دائماً أن أفضل النساء لسن هن اللاتي يتزوّجن أولاً؟ أيعود السبب في حنين النساء إلى عبودية الزواج إلى البيولوجي أم التاريخ؟ تُرى ما الأثر الذي تركه لدى الأطفال (سكتة قصيرة) منظر المومسات في الشوارع في السنوات الأولى بعد الحرب؟ كانت إجاباتها جاهزة على كل شيء، لكن دون أن تتحدّث

عن نفسها، أو تسأله عما يُحب الحديث عنه. تتابعَت الهزائم، وعند إحداها، عندما فرغت الزجاجة، بدأ فجأةً يتكلم عن نفسه، كي يتحداها، ثم ما لبث أن وجد متعةً في سرد متاعبه لها؛ ففي أي مكان آخر يمكن أن يفعل ذلك؟ من ذلك الذي يفهمه؟ بالتأكيد ليس إليزابيث، الطيبة، المكتفية بذاتها (لكنه لا يذكرُ هذا فإليزابيث من الموضوعات المحظورة). إنه يتحدث عن عمله، البداية الصعبة (أخصائي البساتين السابق، الجندي، الأسير، في مدرسة المكتبات، أتعرفين كتاب هرمان كانت^{٣٤} «قاعة المحاضرات»، أجل، هكذا كان الأمر، صعباً ورائعاً، رائعاً وصعباً)، نجاحاته، منزله، حديقته، سيارته، كل ما كان يحلم به أصبح، والآن ماذا؟ لكن الآنسة برودر تعبت بكأسها في ضجر، وتملك إرب شعورٌ بأنه ارتكب خطأً ما. لعلها لا تُحب الرجال الذين يشكون، وبالتأكيد خاب أملها لأنه حطم بنفسه الصورة الخارجية التي حاول أن يقدمها عن نفسه، أو ربما شعرت بأنه أهملها. وها هو يغير الموضوع من ثانية إلى أخرى، ويبدأ في الحديث عن الفتيات ذوات العقول، والصعوبات التي يواجهنها لأن الرجال (الآخرين بالطبع) لا يقبلون الإناث اللاتي هن أنداد لهم، فضلاً عن اللاتي يتفوقن عليهم، ويبدو أن هذا الوضع تحكمه قوانين الشهوة، أو الغريزة الجنسية، لكنها لا توجد — أم توجد؟ — في صورة واضحة، إنه لا يفهم هذا، لكنه يعرف كيف يتكلم الرجال عن أشياء مثل هذه.

لكن الآنسة برودر، في هذه النقطة، تتناول الأمور الشخصية، وتوضح له أنها لا تعاني من هذه المشكلة، ولا تشكو من شيء في هذا الشأن (شكراً كثيراً على اهتمامك)، وهو (الغبي) يُسيء الفهم، ويعتقد أن لحظته قد حانت، فينهض واقفاً، ويدور حول المائدة، ويُقرب وجهه من وجهها. وعندما يعود إلى مقعده، تسأله فجأةً سؤالاً شخصياً، سؤالاً لا يمكن ببساطة توجيهه إلى أحد بعد منتصف الليل، وبعد زجاجة فودكا (من أعلى الأنواع، مستوردة)، ولعل هناك استحالة في توجيهه على الإطلاق، نفس الاستحالة التي تواجه أسئلة من قبيل: هل تؤمن بالله؟ هل خُنت زوجتك مرة؟ ما هو الحزب الذي أعطيت صوتك في عام ١٩٣٣م؟^{٣٥}

وهكذا (بعد قرابة ست ساعات من الغزل العقيم) سألتها: «لماذا أنت عضو في الحزب؟» ألم يكن من الأفضل إجراء حديثٍ قصير بالليل مع الزوجة، يستحيل فيه الانسياق إلى

^{٣٤} يكاد يكون هرمان كانت (وُلد عام ١٩٢٦م) أهم كتاب ألمانيا الديمقراطية اليوم.

^{٣٥} في ذلك العام استولى النازيون على السلطة.

التفاصيل. ليس فقط من العسير ذكر الحقيقة إذا كانت تؤذي الآخرين، لكنك أيضاً عندما تفعل تعترف بأنك تصرفت كدُمية تحركها الخيوط. عفواً؟ السؤال يتكرر. ويتهرَّب منه لاحقاً إلى الإطراء؛ بمفرده في الليل مع فتاة على هذا القَدْر من الجمال ثم سؤال كهذا؟ «أتدركين حقيقة كم أنت جميلة؟» «لقد قيل لي ذلك من قبلُ بطريقة أقل ابتذالاً.» ثم تُكرِّر سؤالها مرةً أخرى. وأخيراً يبدأ من البداية: الحرب، المُثُل المزيَّفة، الانهيار الداخلي، الشعارات المضحكة حول إعادة البناء والتي لم يأخذها على محمل الجد إلا عندما تجلَّت النتائج الأولى، عدو الفاشية الذي يدير مدرسة المكتبات، الكتب، السلام، منظمة الشباب ... لكنها قاطعتُه. إنها لا تريد أن تعرف لماذا انضم للحزب، لماذا هو عضو به اليوم. ويشعر أنه يتعرَّض للهجوم، ويحاول أن يتبيَّن الاتهام الذي تُوجَّه إليه. أهو شعور «الصباح التالي» (لقد تحقَّق كل شيء والآن ماذا)، أم نواقصه الأخلاقية؟ لكنها لا تتهمه بشيء، إنها فقط مهتمة بالحقائق، وهي في الحقيقة واقعية بشكلٍ مهين. وخلاصُه النهائي هو نظرة إلى ساعته، بفزع ولا تحاول استبقائه. وفي الظلام بالمنزل قام بتقييم أمين للأُمسية كلها. وشعر بالضيق. لكن لماذا؟ وأعلن بإخلاص أن كلمات إليزابيث الختامية ليست إلا هُراء. لكن هذه الكلمات أَرْضَتْه؛ فالحب يمكن تبريره. لكن الأسوأ أن تكون قد أدركت الحقيقة؛ أنه زار الأنسة برودر بهدف ارتكاب عملٍ خليٍّ من أعمال الفسق.

من النادر أن تكون طرق الحب هي أقصر طريق بين نقطتين؛ ذلك أنها تتعرَّج، تصعد وتهبط، تلتفُّ كالأفاعي، وتدور كالحلزون، وتمتد فوق الجبال والأودية، المتعة والألم، وتبدو كالماتاهة، وخاصة لمن يمشي بها، يزحف خلالها، أو يطير فوقها. لماذا لا تمضي هذه الطرق عَبْر الشهوة ببساطة؟ لكن حتى هذا لم يكن قضية كارل؛ فقد أحبها منذ استيقظ باسمًا (ولم يكن غضبه نابغاً إلا من الإحساس بأنه ارتكب شيئاً خاطئاً، الخوف من أنه قد لا يفوز بها أبداً)، وليس هناك من سببٍ للافتراء عليه واتهامه بأنه مغامرٌ محدود بإطار الجنس وحده.

يقول المثل: «الحب الحقيقي دائماً على صواب». وليس نصف مصيب، كما كانت الأنسة برودر لا بُدَّ قائلة في مقتبل شبابها، عندما كانت تجعل شعرها على هيئة ذيل حصانٍ ذي رأسٍ بارز، وتسرق الحطب من الحطام، وعندئذٍ كانت ستدُق بإصبعها على جبهتها. وفي الأعوام اللاحقة (بعدما تقدَّمت في الموضوع ببطء) كان من شأنها أن تتحدَّث عن المقولات الأخلاقية التي لا يمكن استخلاصها من المشاعر الثابتة بدرجة وأخرى. لكن في تلك الليلة، قبل الثالثة بقليل (أبقاها روتين التجميل المسائي الإجباري مستيقظةً إلى ما

بعد ذلك الموعد، وبالرغم من ذلك كانت، بصفتها أقل الأطراف تورطاً، أسرعهم إلى النوم) كل ما كان يمكن أن تَفَتَّرَ عنه شفتاها، اللتان تحظيان بإعجابٍ كبير، لو كانت مطبوعة على الحديث إلى نفسها، هو «خسارة!»، أو «شكراً لله» (أو شيء بين هذا وذاك)، وموضع التعليق هنا ليس شعاراً من الشعارات، أو إحدى التفاهات النظرية، وإنما هو الرجل كارل إرب، رئيسها كارل إرب، الذي خيَّب أملها؛ لأنه لم يكن يتفق والصورة التي كوَّنتها لنفسها عنه.

قد تقولون إن هذا خطأها. لكنها أيضاً، وهي أكثر شخصيات هذه الحكاية قاطبةً يقظة، كانت طفلةً من أطفال عصرنا، وصحفنا، ومدارسنا، كُتبتنا، ومعنى هذا أنها تعلَّمت أن ذوي الشأن لا يحملون قُرْحاً على أجسادهم، ولا يتأخرون في الاستيقاظ، أو يرتكبون أخطاء. وبعض الوقت كان قد تملَّكها حماسٌ طفولي لتلك «النماذج البطولية»، ثم وجدتهم باردين مُضْجِرِينَ، وبين المرحلتين مرَّت بالأزمات المعتادة؛ عندما ظهرت القروح من وجوه الأبطال، عندما لم تُعد الحياة تتألف من أعمالٍ عظيمة، وإنما من توافه سارّة أحياناً منفرة أحياناً أخرى، عندما تَكشَّفت حقيقة الدوافع السامية سموّاً مطلقاً خلف القرارات السليمة، عندما اتضح أن العظماء من هُواة جمع الطوابع المشغوفين، وأن الحب يُسبب ألماً مبرّحة، ويتطلب منشفة.

لقد تغلَّبت على أزمات من هذا النوع في وقتٍ مبكّر بعض الشيء. انكسَّمت صورتها الضخمة عن أبيها العالم إلى صورةٍ متفسخة لمعتوه يبعث على الخجل، يتحدث طول الوقت عن أشياء لا يفهمها، لكنها لم تلبث أن نمت من جديد إلى صورةٍ واقعية من الحجم الطبيعي لشخصٍ موهوب لم تُتَح له فرصته تطوير إمكانياته. كان حبها الأول، وهو شاعرٌ تعرَّفت به نتيجة رسالةٍ حماسية، يعكف كل مساءً على تخدير الإنسان القديم في نفسه بالخمير ليتمكّن من الإنشاء للإنسان الجديد. وأبدى أحد مسئولي منظمة الشباب استعداداه للفرار معها إلى الغرب (عن طريق بلغاريا حتى يبتعد عن أسرته). أما الليالي الرومانسية التي كانت تنتظرها في معسكرات العطلات فقد قضتها في مكافحة البعوض. وانفصمت أواصر صداقات بسبب مشاعر لا معنى لها من الغيرة. وأصبحت الصورة التي لا يمكن الحياة بدونها مبعثَ ضجرٍ بعد ستة شهور. وانتهت ليالي الكرنفالات، التي يجري الإعداد لها أسابيع، بالقيء. وتلاشى سحر الكتب المحبوبة. وثبت عبث الثقافة التي كان الحصول عليها شاقاً.

لقد تعلَّمت في الحقيقة كيف تميّز بين المثل والواقع، بين الفن والحياة، لكنها بالرغم من ذلك كانت، أكثر من مرة، تنتظر من الناس أكثر مما يمكنهم أن يُعطوا. وانطبق

هذا على إرب، على سبيل المثال. لكن الأمر لم يكن سيئاً، لم يكن أزمة، وإنما مجرد خيبة أمل صغيرة قبل النوم لا يمكن تجنبها، ظل صغير ضعيف فوق المنظر الطبيعي المشمس لبهجتها؛ فقد فازت بالوظيفة، وستبقى في برلين وتواصل عملها. لقد بيّنت لها التجربة أن المتعة المستمدة من عملها وكل ما هو متصل به، قد ظلت ثابتة رغم الآمال الضائعة، ولأن كل شيء في التحليل النهائي (الأدب، السياسة العلم، التكنولوجيا، وفوق كل شيء الناس) له علاقة بعملها، فإن اهتمامها بالأشياء وبالناس لم يتغير، مثلما كان شأن هدفها، الذي حدّته في وقت مبكر من حياتها؛ فحينما كانت ما تزال تذهب إلى المدرسة، كانت تجلس في مكتبة المدينة بين جميع القراء كي تُشبع نهم أبيها المجرد من الهدف للمعرفة، وألّفت أن تتساءل عن ثمار كل هذه القراءات بالنسبة للفرد؛ فعلى خلاف أمها (التي كانت تلعن كل الكتب بصفتها مسئولة فيما يبدو عن فقر الأسرة) كان جميع الذين تركوا لديها انطباعاتاً قوياً يرون في القراءة شيئاً طيباً. وبدا لها الارتياح في صحة هذا بلا معنى مثل الارتياح في صحة جدول الضرب، ونتيجة لهذا لم يكلف أحد نفسه بحث هذه المسألة، ولا حتى موظفو المكتبات، الذين يؤكّدون أن القراءة أمر طيب من أجل تبرير منفعتهم للمجتمع.

ولكن بالنسبة لها (أمام عينها كان هناك كل من أبيها وقروح الأبطال التي يخفيها الأدب)، لم تبد المسألة واضحة تماماً؛ فمن الكتب العلمية تتعلم كيف تُبنى الجسور، وتبينها، تتعلم قوانين تطوّر المجتمع، وتطبقها. لكن ما هو أثر الأدب؟ (حتى إذا ما اقتصر الأمر على ما يُسمى بالشرائح الممتازة). ماذا يؤثر فيمن وكيف؟ إذا صور العمل شيئاً أخلاقياً، فهل يكون له حقاً أثر أخلاقي؟ هل تصوير الشر يحمل حقاً على تجنبه؟ هل يجب أن نفترض، في كل حالة، وجود الرغبة في تمثّل أبطال هذه الأعمال؟ من الذي تجتذبه المؤلفات الغريبة؟ ومن تجتذبه المؤلفات العادية؟ وما هو القدر الذي يجري استيعابه؟ القدر الذي يجري تمثّله؟ وما هو الدور الذي تلعبه في ذلك التجربة والتعليم والمعرفة؟ كيف يعمل العنصر السيكلوجي في القراءة؟ كانت دراساتها هي وسيلتها الأساسية للإجابة على هذه الأسئلة، وبذلت جهداً كبيراً في دراسة أساليب المكتبات وإحصائياتها؛ لأنها كانت تعتبرها أدوات لأبحاث جديدة. ولم تغضب عندما اكتشفت أن كثيرين قبلها قد تقصّوا هذه الأسئلة. قرأت ما كتبه ووجدته غير كافٍ، مثلما هو الشأن في كل ما كُتب من تاريخ للأدب، وعجز تماماً، للغربة، عن أن يقدم تاريخاً لتأثيرات الأدب.

وخلال فترة دراستها العلمية عكفت على الإحصائيات، وأجرت استفتاءات خاصة بها (لا من أجل الوصول إلى نتائج، وإنما لاختبار الأساليب)، وسرعان ما أدركت أنها

لن تتقدّم كثيراً دون أن تحصّل على تدريبٍ سيكولوجي واجتماعي. لكنها كانت ما تزال في مقتبل العمر. وبعد سنواتٍ قليلة من النشاط العملي كأمينّة مكتبةٍ سيكون بإمكانها مواصلة الدراسة. وقد وقعت ذات مرة في أعدادٍ قديمة من المجلات التكنيكية على مقالاتٍ عن موضوعها، يميّز بعضها، وهو من إنشاء كارل إرب، بالمعلومات والتشويق. استفسرت عنه، كان معروفاً بأنه من خبراء المكتبات الجيدين، محبوباً من زملائه، وبذلت جهوداً لننقل إلى مكتبته، لكنها عندما سألته من مقالاته، لم يكذب بيدي اهتماماً.

وها هو يأتي إليها، رجل كبقية الآخرين، على قدر من الغرور الذي لا يتصف به غير البلهاء، ممتلئ بنفسه، وبالكأبة مع الفودكا، لا تكاد تثيره القضايا التي لا بدّ أنها أثّرت فيه بعمقٍ ذات يوم، تشغل رأسه فكرةً واحدة: هل ستنام معه أم لا. كانت تعرف كل شيء عن ذلك، ولم تتردّد هشتها، ولا حتى لاعترافه بهزيمته اعترافاً مغلفاً بقناع من الحكمة والسخرية. والحقيقة أنها لم توجّه إليه ذلك السؤال عن الحزب إلا لترى ردّ فعله عندما يُحاول الإجابة (بالفعل سرّها عجزه، وكانت تتوقّع منه السخرية). والحقيقة أن الشيء الوحيد الجارح لها هو نظرتة لها كمجرد هدفٍ جنسي وحسب. أما الشيء الوحيد الحسن فهو وصوله على غير توقّع، ولم يتوفّر لها الوقت لمتعة الترقّب، لكنها يجب أن تنام. وإلا سمع الطبيب في الصباح من قلبها أنها لم تحصل على الراحة الضرورية. وفكّرت: كان يجدر بي حقاً أن أقذف به إلى الخارج عندما بدأ ذلك الروتين المخجل بزجاجة الخمر. ثم استغرقت في النوم.

ألم يسرّها كونها مرغوبة؟

أجل، لكنها تعلّمت أن تكبت سرورها؛ فقد تتدفّأ في شمس الإعجاب حتى يفوت الوقت، فتستسلم في لحظةٍ ما، بدافع العرفان والحنو (وأيضاً لأنه ليس من السهل الحياة دون رجل) له، رئيسها، زوج أخرى. وبعد ذلك يصبح الأمر فظيلاً؛ الأكاذيب لزملائها، النظرة السريعة للساعة وهما في الفراش، الوحدة أيام الأحاد، الاعتذارات عندما يكون هناك عيد ميلاد لأحد أطفاله. لم تفكر في الأمر بوعي؛ فلم يكن هذا ضرورياً، إذ كانت لها تجاربها التي استقرّت في أعماقها، وأصبحت نوعاً من الغريزة، لا يحتاج الأمر إلى جلبها إلى مستوى الوعي؛ لأنها تمارس تأثيرها في كافة الأحوال، تقوم بدور الفرملة لمشاعرها، تُبقي على يقظتها، وتمنعها من نسيان إحباطاتها.

وفيما بعد، عندما جعلت تستمتع بتذكّر بدايات حبها، كانت غالباً ما تؤكّد الأثر الإيجابي لتحفظها الأصلي. ألا يبدو هذا أشبه بالحسابات المتروية؟

الغريب أنه في هذا المجال يُعتبر الأمر دائماً أكثر نبلاً إذا كانت الدوافع المحركة هي المشاعر. المسألة أنه لم يرق لها؛ لأنها لم تكن تعرفه بعد، ولأنه لم يُبدِ نحوها ذلك الاحترام الذي هو أساس كل حبٍّ حقيقي. ولو كانت هناك حساباتٌ في الأمر، لكانت حساباتٍ ماهرة حقاً، مسألة ونتيجتها. لقد توفّر له الوقت كي ينمو وينضج، فما كان أحد ليعلم مصير هذا الحب لو مضى كل شيء بنعومة كما كان يشتهي؛ ذلك أنه عندما اشترى الخمر في السادسة والنصف لم يكن يفكر إلا في قليل من اللهو، وعندما كان ما يزال عاجزاً عن النوم في الرابعة صباحاً، ونهض ليكتب لها خطاباً، لم يكن يفكر إلا (والأفضل أن نقول: أصبح يفكر بالفعل) في كسب ودّها. وبالرغم من ذلك، كان دائماً يرفض نظريتها عن مزايا البداية الصعبة؛ لأنه آمن بأن حبّهما مسألةٌ قدرية؛ فهما، مهما حدث، قد خُلقا لبعضهما، وكان من المحتم أن يلتقيا بهذا الشكل أو ذاك. وقد سرّها وأثر فيها أنه يفكر هكذا، لكنها كانت تعرف أفضل منه.

كانت تنتمي ببساطة إلى جيلٍ مختلف. كان الحب (والأخلاق) لديها مشاكل عملية أساساً.

لعله الجيل، ولعله مجرد جنسها، الذي يفضّل الرجال أن يعتبروه أضعف الجنسين حتى لا يُضطرّوا للاعتراف بأنه (على الأقل حيث نشأت الأنسة برودر) أكثرهما معقولة؛ فمثلاً، إن من يتأمل أجنحة منزل فالشتاين السابق (الذي تُديره السلطات البلدية الآن) بعينٍ غير متحيّزة، سيُضطرّ للاعتراف بأن أفراد الجنس الذكري لا يتأخرون في نموهم وحسب (وهو أمرٌ معروف ومُعترف به)، لكن نموهم لا يكتمل أبداً؛ ولذلك لا يستطيعون الحياة دون لعب (واسمها الشفري: هوايات)؛ فعندما تنصرم الثماني ساعات التي يلعبون فيها دور البالغين، ينصرفون إلى طيورهم، وجرذانهم، ونباتاتهم، وقطاراتهم الكهربائية، ومجموعاتهم من سدادات الزجاجات وطوايع البريد ومراكات صناديق الثقب، والرايات الورقية، ويملئون ملاعب كرة القدم، ويلعبون الورق، ويصنعون نماذج للطائرات، ويغرقون أنفسهم في الشراب في الحانات (لأنهم إن لم يفعلوا ذلك ما أخذهم رفاقهم على محمل الجد). كل ذلك تتحمّله النساء، اللاتي تقع عليهن مسؤولية الطعام والملابس والمنزل والأطفال، بالحب والصبر اللذين يكتنهما البالغ للطفل، بل لكي يمنحن البهجة يتظاهرن بالاهتمام وبأنهن يأخذن الألعاب بجدية. لقد قدن رجالهن «المريلين» من الحانات إلى المنزل، غنّين طول الحرب بالحمّام (فأطعمنه من بطاقتها التموينية)، ونقلن طوايع البريد إلى مخابئ الغارات الجوية، ولم يهزأن عندما عبّر المرح الطفولي بالملابس عن نفسه في أغنية

رأسٍ غريبة، وشرائط، ونجوم وميداليات. لم يناقِضن أبداً قَسَم الحب، كن مسرورات بهم، رغم أنهن يفقنهم إدراكاً؛ كان بوسع الرجال أن يسمحوا لمشاعرهم بأن تغلي وتغور، أما النساء فعليهن الاحتفاظ بها دائماً تحت درجة الغليان، مطلقين على الخوف المبرر من النتائج اسم «المحافظة على احترام الآخرين»، مراعين الحذر عندما يُطلقن العنان لأنفسهن. مشاكل عملية؟ بالطبع، فماذا غير ذلك؟ إن السيطرة على النفس مشكلة، لا جدال.

حتى إليزابيث التي تعلّمت وتمرّست بأمورٍ مختلفة تماماً (الزوجة المحبّة يجب أن تتركس نفسها بثقةٍ للعناية بزوجها وراحته، وكثمن لهذا، تكيف نفسها معه) توصّلت في تلك الليلة (بينما كان إرب يواصل، على الورق، مغامرته غير المستولة)، إلى تيارٍ مشابه من التفكير (ذلك الذي يُسمى افتراءً بأنه عملي)؛ فبالرغم من الكرب والضيق الشديدين اللذين استوليا عليها، فُكّرت في النتائج المحتملة للانفصال، المنزل الذي سيبقى لها، فرصتها في الحصول على دخلٍ ما، كيف تُعنى بالأطفال؛ فأُنبل الفتيات يتعلّمن الحساب عندما يصبحن زوجاتٍ وأمّهات، والصمت والتفكير لا يُلغي أحدهما الآخر، والاستسلام الصابر للمعاناة قد ينقلب فجأةً إلى فعل. لقد حرّصت حتى الآن على أن تُهيئ السلام والنظافة في المنزل، وكانت تظن أن ما تفعله هو الصواب. لعلها كانت مخطئة؛ فربما كان يحتاج إلى شيءٍ مختلف.

لكنه هو نفسه لم يكن يعرف على وجه الدقة؛ فهو لم يفكر في الأمر تلك الليلة، بل لم يُحاول تحليل مشاعره «البرودرية»؛ إذ شغلته محاولة مواجهة فشله. فكّر في أجوبةٍ جديدة، ونظرات، وأعمال، وأسئلة مضادة وأخيراً كتب «الرسالة رقم واحد» في هذه المغامرة، وهي رسالة تبريرية في مرارة من عضو في الحزب إلى شخص لا يتمتع بعضويته (شخص قادم من القمر أو من بون)، يجب أن تُتاح له أخيراً الفرصة ليعلم أن الحزب ليس جمعيةً من جمعيات الدعوة إلى الأخلاق والفضيلة، وأن الأخلاقيات الاشتراكية لا تتطلب بالاحتم قسم العفة، وأن الجرائم الموجهة ضد أخلاقيات العمل أخطرُ بكثيرٍ من تلك التي تقع في المجال الشخصي، ولا تؤذي المجتمع ككل. هكذا دافع عن نفسه ضد هجوم لم يحدث، عازياً إياه إليها؛ لأنه لم يعرف السبب الحقيقي في خيبة أملها، التي جعلتها أولاً ترفض محاولته لتقبلها ثم تسأل عن عضويته في الحزب. هكذا تجنّب عناء التفكير في نفسه، والاعتراف بأن غروره لا يتحمل الرفض البارد، متى شرع في مغازلتها بحمية. وتمخّض عمله عن خطابٍ غبي مُفعم بالكلمات الحادة، انتهى دون تحية أو

توقيع، تسلّمته في الصباح، قبل السابعة بقليل (يا للمقابلة الماكرة!) مُذَيَّلًا بالحاشية التالية:

«الساعة الآن النصف بعد الرابعة. كم كنتُ أتمنى بدلاً من محاولة النوم بغير جدوى، أن أكون إلى جوارك في السيارة عَبرَ الطرقات التي يخيم عليها الضباب في الطريق إلى آلت - شرادوف. ومع تباشير الفجر الأولى نجلس مع أبي إلى جوار مدفأة متوهجة، لنحتسي ألد قهوة في العالم.»

شعرت الأنسة برودر بعدم الارتياح عندما وجدت الرسالة (دون طابع أو ختم بريدي) في صندوق بريدها أثناء مغادرتها لمنزلها في الطريق إلى الطبيب. يا له من عنيد!

٧

كان كارل في النوبة الأخيرة بقسم الاستعارات. كان عمله متخلفًا بصورة لم تحدث من قبل، وارتكب أخطاءً كان يعيها على زملائه طوال سنوات. جلس في الركن أمام كتاب مفتوح، أو وقف في النافذة يتطلع إلى ثلج المساء المتساقط، بينما القراء يتجولون بين الأرفف لا يعرفون ماذا يريدون، ولا يجدون ما يبحثون عنه، ولا يجرون على مخاطبة ذلك الرجل ذي الوجه المتجهّم. ظل قريبًا من المكتب؛ أي بالقرب من التليفون. وجعل يحدّق فيه كما لو كان منومًا، وحدّق فيه التليفون بدوره بعينه الهائلة وظل صامتًا. ولما كان عاجزًا عن التفكير في شيء آخر غير المكالمات التي وُعد بها، فقد شعر بعد عدة ساعات أن حبه وأمله ومستقبله يتوقف على اتصالها به.

والحق أنه أطلق العنان لعواطفه بطريقة لا تناسب سنّه أو مركزه. وكان هازلر، الذي يفتقد إلى المعرفة بأفكار أمناء المكتبات عن الكرامة والشرف، قد اقترح ذات مرة إعفاء المدير من ساعات العمل المقررة له في قسم الاستعارة حتى يتخلص من عبء زائد، فدافع كارل عن حقوق المدير وواجباته في هذا المقام؛ ذلك أن التخلي عن العمل في قسم الاستعارة يعني فقدان الأرض التي تقف عليها قدمك، التخلي عن الأساس، فقدان الاتصال بالنشاط العملي، بالناس، الجماهير، العمل في فراغ، الانعزال، الانسحاب إلى مكتبك الساكن، فقدان النفس في العمل الإداري والمسائل النظرية و... إلى آخر الحجج المعروفة. وأدرك هازلر في النهاية أن الساعات الأسبوعية المقررة لمدير المكتبة في قسم الاستعارة هي كالقدّاس اليومي بالنسبة للقس؛ لأن قسم الاستعارة (كما يتعلم المرء في مدرسة المكتبات) هو النقطة المركزية في عمل أمين المكتبة.

عمل «أمين مكتبة الشعب».

إن أمناء المكتبات العاملين في مكتبات علمية، أو مكتبات النقابات والمصانع والمنازل والمؤسسات لا يرد ذكرهم في هذا الكتاب، وهكذا يكفي ذكر الاسم المؤلف لهذه المجموعة المهنية، مما يتسم بثلاث مميزات؛ فأولاً، بوسع الأخصائي، وهو ما سوف يفعله، أن يعتبر هذا الوضع دعوة حارة إلى وحدة جهاز المكتبات التي جرت المطالبة بها منذ عقود، وثانياً أن هذا يعطينا الفرصة كي نبين دون تطفل للرجل العادي، أنه لا يجب الخلط بين أمناء المكتبات وباعة الكتب (الذين يتقاضون أجوراً أقل)، وثالثاً يُتيح لنا تجنب التسمية التي أعلنها الحكومة بشأن أمناء مكتبات الشعب، التي سيؤدي استخدامها في هذا الكتاب إلى إضافة خمس وعشرين صفحة إليه، مما يكلف الاقتصاد القومي (إذا طمعنا في أن يُطبع منه عشرة آلاف نسخة) حوالي ٢٢٥٠٠٠ صفحة من الورق، وهو ما لم يأخذه في الاعتبار آباء (أو على الأصح أجداد) الاسم الرسمي الجديد: «أمناء المكتبات الجماهيرية العامة». ما الذي جعلهم يجردون أمين مكتبة الشعب من اسمه التقليدي في عصر ديمقراطية الشعب وبوليس الشعب وحركة تضامن الشعب، وأيضاً حوانيت كتب الشعب؟ الإجابة هي «مطابخ الشعب»، التي ما زالت تعبق برائحة الاسم القديم، والرابطة التاريخية مع كارل برويسكر من جروزنهاين وفريدريش فون رويمر و«اتحادات الشعب التعليمية» النابعة من الطبقة المتوسطة في القرن الماضي، وبعبارة أخرى تقاليد قائمة لكن غير مرغوبة، ولن يتم تناولها هنا بتفصيل أكثر من ذلك؛ لأنها لا تكاد تلعب دوراً ما بالنسبة لكارل إرب، ولا تلعب أي دور على الإطلاق بالنسبة للأنسة برودر. ثم إن التناول الأشمل لهذا الموضوع ليس ملائماً للرواية التي تلتقي في هذا الشأن مع طائفة من الورق تصعد عندما تُمسك الخيط مشدوداً، وتهبط أو تتحطم عندما تُرخيه (استعارة مأخوذة من أعمال جان بول. لكن من يعرفه؟ إنكم على أي حال تعلقون في غرفكم لوحات الغرباء).

دعونا نمسك بالخيط مشدوداً: لقد انتهك أمين المكتبة إرب أقدم واجباته بأن ترك لمرضه النفسي (الذي أسماه في البداية شيئاً من الكدر لكنه صار يدعوه الآن بالحب) العنان بدلاً من ترويضه بجاروف النظام. ونتيجة لهذا صار ينام نوماً مضطرباً ويرى أحلاماً فظيعة، ونادراً ما يتكلم مع زوجته وطفليه، ويصرخ دونما سبب في الآنسة زافاتسكي الحساسة، وصار عاجزاً عن التركيز في العمل، يعاني من شكل من أشكال مرگب الاضطهاد؛ فعندما يلج غرفة يعمل بها في صمت بعض موظفي المكتبة، ينتابه يقين بأنهم كانوا يتحدثون عنه لتوهم، وشعر أن كراتش تسيطر عليه الرغبة في الانتقام، وأن

الآنسة فستمرمان، التي تعرف كل صغيرة وكبيرة مما وقع في هذه الغرف خلال العقدَيْن الأخيرَيْن، تعرف أيضًا بشأن حبه، وأن كل ملحوظة يبدئها هازلر مليئةٌ بالتلميحات. وبالرغم من خوفه وحذره ألقى من المستحيل مقاومةً إغراء الحديث كلما أمكن عن الآنسة برودر. وأصبح الانحراف اليومي عن مساره المعتاد إلى داخل المدينة، ثم المرور ببطء من أمام منزلها، عادةً.

كان يُعاني كما لو كان مريضاً حقيقة ... وبعد أسبوعٍ واحد فقط كان بوسعه أن يرحّب بردٌ سلبي أفضل من هذه العذابات.

لكنه بحذر لم يدفع الأمور في هذا الاتجاه. حدّث نفسه مستخدمًا إحدى العبارات المألوفة أيام الحرب «نهايةً مرعبة أفضل من خطأ متصل ولا نهائي»، لكنه تجنّب كل مخاطرة؛ لأنه كان يأمل في نهاية للعرب بلا ألم، أشفق على نفسه، وأفسح المجال للأعشاب الطفيلية الضارة لمشاعره أن تترعرع وتخلقُ النبات الرقيق لأخلاقيات العمل (مبرهنًا بذلك على أن الحُجَج الواردة في رسالته كانت بلا معنى)، وقاسى من ذلك (بشدةً)، لكنه ألقى اللوم كله عليها؛ فلو كانت قالت «نعم وآمين» في أول مساء، ما تعرّض هو أو عمله للمعاناة. هي — المرأة الأمينة المنضبطة المؤمنة بالمساواة مع الرجال — كانت قادرةً على التوصل إلى قرار سريع؛ فبعد الرسالة الأولى، على أكثر تقدير، أصبحت تعرف مشاعره، وعندما زارها في نفس المساء، بزعم السؤال عن نتيجة لقائها بالطبيب، كان من السهل عليها أن ترفضه. كان سيعتذر إليها عندئذٍ ولا يعود مرةً أخرى. لكن الذي حدّث أن آماله كانت تتلقى دائماً وقوداً جديداً. لم تسمح له بمغازلتها، لكنها دعته للدخول، وقدمت إليه عشاءً، وجاذبته أطراف الحديث حتى منتصف الليل، رغم أن الطبيب أمرها بالالتجاء إلى الفراش في الثامنة. وخلال مرضها هذا، زارها عشر مرات، ونادراً ما كان ينصرف قبل الثانية عشرة، لكنها لم تُعطه أبداً الفرصة ليتفوّه بالكلمة التي ربما كان من شأنها أن تجلب القرار؛ وبعد هذا، هل يدهشنا أن نراه في آخر يوم من أيام مرضها يهمل واجباته في قسم الاستعارة؛ لأن مكالمته الموعودة قد تأخّرت؟

أما الوعد فكان تحقيقاً لرغبة من ابتداعه؛ فقد قالت له الآنسة زافاتسكي: «هر إرب، لقد تلفنتُ الفرويلين برودر، وسوف تعود إلى العمل غداً صباحاً.» عندئذٍ استفسر إرب عما إذا كانت الآنسة برودر قد رغبت في الحديث إليه. أجابت الآنسة زافاتسكي (أخشى ما يخشاه أن يكون ذلك عن عمد) بشيءٍ من عدم الوضوح أنها أنبأت الآنسة برودر بإمكان الاتصال به حتى الساعة السابعة في قسم الاستعارة. بعد هذا لم يجرؤ على أسئلة جديدة،

وبدلاً من ذلك جعل يرقُب التليفون، وهو يتساءل للمرة المائة عما يدعوا الأنسة برودر إلى تحمُّل زيارته دون استياء واضح، ما لم تكن تنوي الاستسلام. لم يكن بوسعه أن يصل إلى نتيجة ما؛ لأنه يعرف القليل عن النساء، ولا يعرف شيئاً مطلقاً عن أمثال الأنسة برودر. ونتيجة لهذا كان دائماً يوجّه لنفسه السؤال الخطأ: هل أروق لها أم لا؟ بدلاً من أن يتساءل: أي نوع من الأشخاص هي؟ ماذا تحتاج؟ وماذا تخشى؟

ما كان ليُوجّه إلى نفسه أسئلةً مثل هذه؛ لأنه كان يعتقد (مثل أغلب الروائيين) أنه من التجديف أن نبحث عن الأسباب في نشوء الحب (أي التربة التي يمكن أن ينمو فيها). وبالإضافة إلى ذلك، فإن ملكات التفكير في هذا الركن من حديقته الذهنية كانت مخنوقة بالأعشاب والطحالب؛ بحيث إنها لم تكن تنبُت إلا ضعيفةً صفراء وهشة. لم يكن حتى في وضع يساعده على تخيل ما يروق له حقيقةً فيها (غير مظهرها وشعرها وصوتها)؛ نكاؤها، ثقافتها، ثقتها بنفسها؟ إن معرفة هذا ليس بالشيء الكثير، لكن لا بأس به، وربما يساعده على أن يكف عن معاملتها كفتاة صغيرة ترغب (دون أن تبين) في المغامرات والرجال، ومستعدة للإعجاب برجل قوي متفوق مُستعد للإقدام على أي عمل من أعمال الخسة والندالة، نتيجةً لذلك، ظلت لغزاً بالنسبة له، وظل هو لغزاً بالنسبة لها، مما أثار فضولها. كانت تعرف أنه يقدّم إليها قناعاً، لكنها لم تكن تعرف ما يختفي خلف القناع. لم تكن ترتدي أيّ أقنعة، لكنها كانت مسيطرةً على نفسها، متحفظة، حتى تترك الباب مفتوحاً لكافة أنواع الاختيارات. كانت في الثانية والعشرين. وكانت وحيدة. لكن ربما كان هذا من المتطلبات الأساسية لمشاريعها الدراسية. وكان يمكن أن تكون على ثقة من هذا لولا نقطة هامة، يُمكن تجنبها أحياناً، لكن لا يمكن إزالتها تماماً. كانت نقطة لصالح إرب؛ فقد كان يروق لها أن تنظر إليه، ومن هذه الوجهة كان إمكانيّةً محتملة. لكن هذا أيضاً كان شأن عشرات غيره، فليس بوسعه أن تنظر إلى الأمور من هذه الزاوية وحدها. كانت طفلاً احترق ذات يوم، والتأمت الجراح لكنها لم تخف من الذاكرة. وكانوا جميعاً من نوع ذلك الرجل الذي يتظاهر به إرب: الفرسان الذين تحدّوا الموت والشيطان، الساخرون الذين لا يخشون غير ضمايرهم، أسرى آليون (روبوت) لأطماعهم الذاتية؟ مكتئبون عند الشراب، وأسودّ في مخدع سيدتي. كانت موشكةً على الاختناق بين هذه الحالات البارزة من الغرور والأنانية لو لم تلذّ بالفرار في الوقت المناسب. انهار أخيراً الوهم المجنون بأنها يمكن أن تصبح أقوى من خلال التحالف مع هؤلاء المتبجّحين، وأضعفها نضالها للمحافظة على نفسها، لكنه أعطاهما تجربةً وجعلها أكثر حذراً. كانت هذه نقطة في غير صالح إرب، أو

على الأصح قناعه؛ فكلما أزاح القناع قليلاً، بدأ درعها المعدني يلين قليلاً. هناك المساء التالي لأول خطاب (وهو الخطاب الذي لم يُشر إليه أيٌّ منهما)؛ أي المساء الثاني الذي (تميز مثل الأمسيات التسع التالية بخُلُوه من القبلات والخمر) امتدّ حتى منتصف الليل. بدأ إرب ذلك المساء في صورة الرئيس النشط الذي يعود زميلاً مريضاً، وأنهاه واثقاً أنه قد دُمّر كل فرصة كانت أمامه.

إنهما يجلسان متواجهين إلى المائدة التي تحمل ما يكفي اثنين فقط من الآنية الفخارية (كانت قد وهبت كل ما فاض عن حاجتها عندما ماتت أمها)، وهو يشرب شايًا قويًا لا يستسيغه حقيقة، ويأكل خبزًا أبيض كان سيلفظه بازدراء في حالة أخرى، ويثني على الشواء الجاهز، رغم أنه لا يحب سوى النوع المنزلي المحسّن (بالبصل والتفاح والعنز)، ولا يُثَلّف شهيته أن الزبد وشرائح السجق قد استقرّوا على المائدة في الورق الذي ابتيعا فيه (لتجنّب العناء؛ فهي لا تُحب إضاعة الوقت في أعمال المنزل)، وهو يتخلى عن شوكته عندما يرى أنها لا تستخدم واحدة. وعلى الجملة فإن ألفة تناول الطعام تسبّب له الارتباك، لكنه يخفيه بالنكات حتى تبدأ في الحديث عن مقالاته القديمة. وبعد شيء من اللغو عن أوهام الشباب، يطلق العنان لنفسه، فينسى دوره، ويتحدث عن الحماس الذي استولى عليه في مدرسة المكتبات، منذ أكثر من خمسة عشر عامًا عندما اشتّم لأول مرة مشاكل استقصاء مشاكل القراءة. إنه يصف لها الحماس الذي جعل ينقّب به بين المؤلفات السيكلوجية، وتأريخات الأدب والثقافة، والسير الذاتية، وكيف قام بالأبحاث، وكتب المقالات، أثقل على الجهات العليا بالاقترحات، ثم أخيرًا كيف انقشعت الأوهام عندما تبين استحالة صياغة سليمة، وعندما ظلت نداءاته من أجل التعاون بلا صدّى، وعندما اعتصمت الجهات العليا في مبدأ الأمر بالصمت ثم اتخذت موقفًا سلبيًا؛ ليس هناك ما يمكن قوله ضد ضرورة مثل هذا البحث، لكن الوسائل المقترحة تبدو بصورة تبعث على الشك أقرب إلى علم الاجتماع (وهو ما كان يُعتبر في ذلك الحين علمًا برجوازيًا تمامًا)، بالإضافة إلى أن الأمور يجب أن تعد بشمول أكثر.

«وهكذا انتابك اليأس؟» - «أجل» (في نغمة الشهيد) مرفقةً بنكتة هادفة للدلالة على أنه فوق مثل هذه الأمور. إن قناعه يعود إلى مكانه، ولا تتفوّه شفتاه بشيءٍ ما (بغير قصد) يملأ قلبه فجأةً ويناضل من أجل التعبير. ماذا يمكن أن تظنّ به لو اعترف بعمق خيبة أمله (وخاصة بالنسبة لقصوره الذاتي وفتوره)، وألمه عندما تبين محدوديته ونقص طاقته وجبنه (عندما انصرم حماس الشباب وبدأ العمل الجدي)، وهجرانه لكل طُمُوح،

وخجله من نجاحه الظاهري (الذي يعود في جزء منه إلى أنه لم يتسبب أبدًا في صعوبات ما) وسلبيته المعوّقة، وأخيرًا تراجعته إلى راحة الرفاهية، منزله وحديقته وسيارته؟ الواقع أنه يدرك هذا كله فقط في مواجهته لها، شابة لكن غير ثملة، يتجه نشاطها نحو العمل الجدي، إنه يدرك ذلك ولا يتبينّه في جلاء، إن أسطلتها تُثخنه بالجراح، لكنه لا يصرخ، وبدلاً من ذلك يُبدي العزم والتصميم ويبتسم، ويتجنب الموضوع. لكنها لا تكف، وتُحاول مرارًا الاستفادة من خبرته، لتستخرج منها أشياء تُفيدها في عملها؛ أي كل ما هي مهتمة به، لكنها كي تتوصل إلى ذلك، لا بدّ وأن تُكَيّف نفسها معه، تتعرف على وجهه الحقيقي. ولن تكون المغالطة عونًا على شيء، لأنها لن تؤدي إلا إلى دعمه في دوره. عليها أن تُغريه باهتمامها الجلي في الحديث عن أشياء لها أهميتها لديه، عن الماضي، والحديث عنه أيسر، عن الأشياء التي شكّلتها؛ صباه في القرية، الحرب، فترة عضويته في منظمة الشباب (وهي الفترة التي يتم استبعاد إليزابيث منها).

إنه يعود مرارًا إلى هذه الموضوعات عندما تنغزه، وهي تفعل، لأن حكاياته تبعث الحياة في صورة السنوات التي كانت بالنسبة لها حتى الآن أحادية اللون، وقد كانت مهتمة دائماً بالتاريخ، بل إنه يتذكّر مطبوعات النازي، هذا الفراغ الذي يتعين على كل مهتم بتاريخ تأثيرات الأدب في ألمانيا أن يملأه. وتُحاول أن تفصل الجزء الخاص من ذكرياته عن الجزء الأكثر عمومية، لكن هذا ليس ممكنًا دائماً على الفور؛ فكل شيء يثير اهتمامها، ثورته في الطفولة ضد السلطة الأبوية، والانطباعات الأولى لصبي القرية في المدينة الكبيرة وأثناء توزيع المنشورات في برلين الغربية. وتقوم بعمليات حسابية سريعة لترى كم كان عمرها عندما كان يشترك في الاستعراضات التي لا معنى لها بميدان الثكنات، ويساهم في تدفئة بيوت النباتات الزجاجية، أو يتدرب على تحسين خطه في المكتبات الخاوية، ويستوقفها أنه يبدو شابًا عندما يروي بتفكّه ودون غرور حكايات الفشل المبكر الذي لحق بمحاولاته القيام بدور دون جوان، أو «لعنة الصحيفة غير المقروءة» التي أصابته عندما كان يعمل في «فرقة عمل تابعة لوزارة الثقافة»^{٣٦} وفاته أن يلحظ، بسبب من الحماس الفائق، إشارة البدء بحملة جديدة. وحتى وهو يحكي هذه القصص، يأسف لأنه يفعل، ويصف نفسه بالبله، ويودّ لو يخترع شيئًا، انتصارًا أو احتجاجًا عاصفًا، وضرباتٍ عنيفة فوق المائدة، وشكاوى للوزارة، لكنه لا يستطيع أن يروي لها أكاذيب صارخة. وهو يرى ضحكاتهما،

^{٣٦} يسخر المؤلّف هنا من المبالغة في التنظيم والبيروقراطية.

لكنه لا يملك الحَدْس بما تفكّر فيه. كم هو شاب! تسأله عن الوسائل التي لجأ إليها، لكنه يزعم أنه لم يعد يتذكر؛ لأنه (وقد عاد من جديد إلى دوره) يريد أن يدور ليصل إلى هذه العبارة: «كم أودُّ أن نقوم معاً ببعض الأبحاث ذات يوم!» بالطبع في الريف، بعيداً عن زوجته وأطفاله (الذين تودُّ لو تلقي عليهم نظرة؛ هناك ما يكشف عن الرجل أكثر من المرأة التي تزوجها والأطفال الذين أنجبهم؟)

وهي تضيق بأمثال هذه الملاحظات؛ فمعناها أنه لا ينوي التخلي عن نوايا لا تُشاركه إياها، وهذا ما يجعل قيام علاقاتٍ عملية ودية بينهما أمراً مستحيلاً. وعندما يكون معها تدخُن كثيراً، ولا تنام المدة التي أمر بها الطبيب، ولعلها كانت مُستردةً صحتها لولاه، وهكذا فإنها لا ترحّب بمجيئه، وتُبدّي له ذلك، وتتخذ كل مرة قراراً بأن تقذف به إلى الخارج في العاشرة، وتقول للطبيب إنها تشعر بالتحسُّن، كي تعود للعمل. وقد أرضاها أنها لم تتحدّث إليه عندما تلفنت؛ لأن عزمها على إيقافه عن استخدام لهجة الألفة في الحديث معها، يمكن وضعه موضع التنفيذ بصورة أفضل في أول أيام العمل وليس عبْر التليفون؛ ولهذا السبب يُحاول إرب عبثاً، بطاقة حب مركزة على طريقة «التليباثي»، أن يُجبر التليفون على الرنين. وفي السابعة تماماً تخلي عن المحاولة، مصمماً لا أن يتجه بسيارته كالعادة إلى داخل المدينة، وحسب، وإنما أيضاً أن يعجل أخيراً بالنهاية المرعبة. وبعد أن دفع بأخر القُراء إلى الخارج بإطفائه الأنوار، وتمنّى لمساعدته وهو شارد ليلة طيبة، إذ بفتاة في جينز وبلوفر تستوقفه؛ أنيتا، زهرة الجناح (أ) السمرء، الفتاة التي تعتقد أنها ابنة باشكه: «كنتُ مارة بالصدفة، وخطر لي أن أطل عليك؛ فربما يُقلّني الهر إرب إلى المنزل، وهو على أية حال يأتي إلى منزلنا الآن كل مساء.»

بدت السيدة إيزيلت، المساعدة (كانت ما تزال واقفة في المدخل تعقد غطاءً من البلاستيك فوق شعرها المصفّف حديثاً؛ لأن الجليد الهش بدأ يتساقط) كما لو كانت ستندفع إلى نجده، لكنه رغم حاجته إلى المساعدة تمنى أن تختفي قبل أن يتردّد اسم برودر. وما كان بوسعه أن يطلب ذلك منها؛ لأن الرغبة في الانفراد بهذه العينة الشابة الشهية قد تُفسّر بصورة خطأ؛ ولهذا حاول أن يغيّر الموضوع مستفسراً من أنيتا منطقياً عما تودُّ قراءته. كان لذلك وقع سيئ لديها؛ إذ أنتج شيئاً من السخط وغمغمة مفادها أنها ليست من هذا النوع من الفتيات. أي نوع؟ واحدة بنظارات وبلا صدر تقتل وقتها بالقراءة بدلا من العمل؟ أو ربما مثل الفرويلين برودر؟ وبدا أنه من الأفضل عدم توجيه السؤال والانتقال إلى منظمة الشباب، التي كانت في الغالب مسئولة عن ظهور أنيتا في

هذا القطاع من المدينة، لكنها لم تسمح لنفسها بالتحول عن موضوعها الرئيسي، فأزاحت السؤال جانباً، وعادت إلى موضوع السيارات، وحقيقة أنها لم تركبها — زعماً — أبداً. ثم انتقلت إلى الجو السيئ، والمسافة البعيدة التي تفصلها عن موقف الترام، بينما كانت تخطر في أرجاء المكتبة وتقاطع نفسها بملاحظاتٍ من قبيل: «أوه، يا لها من كمية كبيرة من الكتب! هل قرأتها جميعاً؟» ويشير إرب للفراو إيزيلت بما معناه أنه قادر على معالجة الموقف، ويلاحظ بارتياح أن يدها تُمسك بمقبض الباب. لكن هذه كانت اللحظة بالذات التي استفسرت فيها أنيتا عن المكان الذي تعمل فيه الآنسة برودر. واستخدمت في ذلك اسمها الأول الذي كانت السيدة إيزيلت تعرفه بالطبع هي الأخرى.

لكن القارئ لا يعرفه بعد.

بدافع من الأمانة. لأن هناك أسماء تصم الأبرياء الذين يحملونها، وتستدعي للذهن ارتباطات بعيدة عن الحقيقة. يعرف الروائيون هذا؛ ولهذا يهتمون اهتماماً بالغاً بالأسماء التي يطلقونها على أبطالهم، ويعرف القراء أن فيلهلم مايستر، أو ماسكه، أو تونيو بونيفانتس أو فايخمانتل لم يكتسبوا هذه الأسماء صدفة. وإذا ما أسميناها كلوديا، أو كاتارينا، أو بتينا، أو ربما أنا، نكون قد وجدنا مخرجاً من هذا المأزق، لكن واجبات المؤرخ تحول دون ذلك؛ لذلك من الأفضل أن نتحدث عن إرب الذي لم يقرر فقط في السابعة أن يفر من اتخاذ القرار، وإنما أيضاً أن يبتاع فودكا (كقوة دافعة ثم قاتلة للألم)، وقد رأى هذا القرار يتعرض للخطر بظهور أنيتا؛ لأنه لا يستطيع في وجودها (من أجل الآنسة برودر) الذهاب إلى حانوت بيع الخمر؛ لهذا قال لأنيتا إنه لن يذهب إلى المدينة اليوم، لكنه يستطيع أن يقلها حتى موقف الترام، وهو عرض قبلته بعداء واضح. وفي الشارع كانت ساخطة لأن أحداً لم يلحظ كيف صعدت إلى السيارة برشاقة. وبدأ أنها ساخطة على أشياء كثيرة؛ على صديقها الذي وصفته بأنه مغفل (وهي في الغالب تقصد أنه خجول) وعلى التوصلية القصيرة، وعلى صمت إرب، وعلى رفضه المؤدب مرافقتها إلى مقهى. وعندما توقفا أمام محطة الترام، أبدت اهتماماً مفاجئاً بالتفاصيل التقنية، أرادت أن تفهم ما هو ناقل الحركة، ووجدت ثمة ما هو موحٍ ويدعو للسخرية في مصطلح جهاز تشبيك التروس، وأرادت أن تُمسك بالمقود للحظة فمالت بليونته نحو إرب الذي تذكر فجأةً الكمثرى التي ترى من نافذة المطبخ في ألت — شرادوف (من نوع الفان ماروم كما يُعرف). وبعد أن حثها على مغادرة السيارة ثلاث مرات، فارقتها أخيراً متجهمةً قائلة: «أراك فيما بعد».

ومن أول كشك للتلفون قابله اتصل باليزابيث. وأمام حانوت الخمر الذي يظل مفتوحاً حتى ساعة متأخرة داخل محطة فريدريش شتراسه وقف في طابور طويل، ولم يكتشف

أنه نسي حقيبتته إلا عندما صار أمام البائع. كان قد تركها في المكتبة؛ ولهذا اضطر أن يحمل الزجاجتين في يده. أوقف سيارته في ميدان مونييجو، وواصل طريقه سيراً على الأقدام. وفي المدخل الرئيسي التقى بأنيتا، وكانت تبريراته تُثير الشفقة. قالت: «تصوّروا»، وأغلقت باب الشارع بالمفتاح.

٨

حان الوقت لأن نُلقي نظرةً مقربةً على إليزابيث. لكن كيف. ليس في هذه القصة ما هو أكثر من ذلك صعوبة.

ربما نبدأ هكذا: فوق صوان الملابس الخاص بالجدة تُوجَد أصدافٌ غريبة الشكل. تضعُها على أذنك فتَهْدِر. تهزُّها، لا يحدث شيء. تنظر داخلها، ظلام. لكن الهدير الغامض مستمر. هكذا كانت إليزابيث. هذا ما قاله عنها إرب.

كان هناك شيءٌ ما غامض بشأنها. إذا ما سألتَ من يعرفونها عما إذا كانت تتمتع بالجابية، لترددوا وقتاً طويلاً قبل أن يردُّوا بالإيجاب، ثم يضيعون في محاولة للإيضاح؛ إنها جاذبيةٌ هادئةٌ بدرجةٍ غريبة، متحفظة، غير متباهية. لكن كل من رآها شعر، فكَر، عَرَف وقال على الفور: إنها إنسانٌ جيد.

أما كيف تم تكوين هذا الرأي، فهو ما يظل أمراً غامضاً. قال آخرون إنها تفتقد إلى الحيوية. بل قال أحدهم إنها عفيفةٌ طاهرة. ولعل سرُّها يكمن في أنها كانت هادئةً ودودة، بصورة أكثر ثباتاً من الآخرين. كانت متحفظة بدرجةٍ غير عادية.

وهذا لا يدلُّ على شيء؛ فالتحفظ قد يُخفي الوفرة أو الفراغ. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تعلم متى كان ذلك؛ منذ اثني عشر عاماً مضت، أم في زمن هذا التقرير، أو بعده بستة شهور؟

كانت تكتب فيما مضى أشعاراً وقصصاً مقتبسة (هاوزمان، هو فمانشتال ريلكه، هسه)، وترسم أوراق الأشجار والأزهار والمناظر الطبيعية المتخيَّلة بمهارة. وقد واصلت هذا النشاط بعد زواجها في الأمسيات التي ينصرف فيها كارل إلى عمله ولا يراها. كانت تخشى توجيهات ناظر المدرسة التي تأتيها من كارل ولا تملك الردَّ عليها. «قرأتُ كتاب «مشاكل اللغويات» بناءً على نصيحة كارل. لقد استوعبته كله، لكني لا أفهم لماذا يتعيَّن

عليّ أن أعرف كل هذا؛ فهو لا يُعينني على التقدم أكثر مما يفعل «الفارس ذو النجمة الذهبية»^{٣٧} الذي يُضجرني تمامًا.

يجب أن يبعث فيّ كل هذا اليأس؛ فلعل كارل على حق بقوله: إن نشأتني تُغلق أمامي الطريق إلى القوالب الاجتماعية في الشعور والفكر. لكن لماذا لا يحدث هذا معه؟ وهل يتعرّض حُبنا حقًا للخطر إذا كان تونيو كرويجر أهمّ لديّ من الحرّس الفتي؟^{٣٨} هذه بعض عبارات من يومياتها، التي ليس لها عدا ذلك من قيمة كبيرة؛ البجع في الشتاء، يجدر بالمرء أن يشتغل بالتمريض، القناذف في الحديقة، الخريف على شاطئ البحر، الكتب، لوحة العذراء لفان آيك، كنيسة الدير في بريتشوف، تحية رصينة للحب، قلق بشأن الحرب الكورية، المكتبة، ابتياع الأثاث، مشاغل المنزل، الأطفال، المرض، كوبا، الأفلام، وأحيانًا عبارة كالتالية، عندما يزورها والدها بتصريح مدته يوم واحد: «عندما أرى ماما واقفة هناك إلى جوار أبي، أتساءل دائمًا: هل يجب أن يكون الأمر كذلك؟» ما هو هذا الذي يجب أن يكون؟ ليست هناك من كلمة أخرى عن الموضوع، وهي نفسها كانت غير راضية عن هذه اليوميات؛ لأنها في مساء ذلك اليوم الرطب الذي تساقط فيه الجليد ولم يكن كارل هناك كتبت بعد أن لجأ الطفلان إلى فراشيهما: «يا لعبت هذه المذكرات التي تمتد على مدى أربعة عشر عامًا! إنها لا تكاد تساعد في تذكر ما حدث بالفعل، أنصاف حقائق، السطح، جمال الحشائش الناعمة فوق المستنقع، واجهات ملوّنة. كم هو عسير أن يكون المرء أمينًا مع نفسه!» ولعلها أرادت أن تواصل الكتابة، لولا أن الجرس دق، فمضت إلى الباب، ولم تكتب شيئًا آخر ذلك المساء.

إن الحادثة التي أُلِف إرب أن يرويها كالملاحم (وربما بنفس المحتوى من الحقيقة) لا تُنبئنا بالمزيد؛ فقد أرسلته مدرسة المكتبة لزيارتها (أثناء عصر ما قبل التاريخ في حبهما) كي يتغلّب على يأسها بخُطب طيبة عن المستقبل. وقد أَلْفاها في غرفتها (غرفتهما فيما بعد)، ودودة بلا دموع، رغم أنها علّمت قبل يوم نبأ الثقب الموجود في رتّتها بحجم حبة البازلاء، ورغم أنه تم بالفعل حجز فراش لها في المصحّة. وعندما شرع يواسيها بالكلمات

^{٣٧} عنوان قصة قديمة من النوع الرومانسي.

^{٣٨} تونيو كرويجر هو بطل رواية لتوماس مان بهذا الاسم تتناول مصير أحد برجوازيّ العشرينيات في ألمانيا، أما «الحرّس الفتي» فهي رواية فادييف المشهورة عن شباب الشيوعيين السوفييت في نفس الفترة.

التي أعدّها بعناية، أشارت فجأةً إلى النافذة لأنها (وليس هو) قد رأت طائر الرفراف، ولا بُدَّ من الانتظار في صمت حتى يعود بعد ثلاثين دقيقة (دون أن يراه أيضًا هذه المرة).

وبعد أن وصفت الطائر السحري السريع لمواسيها، ودعته بابتسامة. وقال إرب فيما بعد: «إن اللغز الذي قدمته لي في ذلك اليوم، ما زال حتى الآن بلا حل. كان بوسعي أن أتحدث معها عن أي شيء، فيما عداها هي. كنتُ أعرف كل شيء عنها فيما عدا الأمور الهامة. إنها قادرة على أن تتكيف مع أي إنسان، لكنها لا تُعطي لأحدِ الفرصة كي يتكيف معها.»

لكن ماذا ينبئنا ذلك؟ في الأغلب بشيءٍ ما عنه. إنه قد تدفأ في وهج حبها دون أن يلمس ما أسمها بلُغزها.

هل كانت تودُّ شيئًا مخالفًا؟ لقد كانا على أية حال، بطريقتهما الخاصة، سعيدين معًا طوال اثنتي عشرة سنة.

كان راضيًا بالحياة معها. هذا هو كل ما تعرف. كان هناك سببٌ واحد لصمتها بشأن مشاعرها؛ فلم تكن قادرةً على الحديث معه. لكن ذلك كان بإمكانها مع الآخرين، كما حدث في تلك الأمسية من شهر نوفمبر التي نصفها الآن. عندما دقَّ الجرس، وضعت مفكرتها جانبًا، وفتحت الباب. وجدت أمامها رجلًا يسأل عن إرب، وقبل بسرعة دعوتها لانتظاره، فنفض الجليد عن معطفه، وتقدم بساق صناعية ذات صرير، والتقط بعضًا من قطع البلاستيك المتداخلة الخاصة ببيتر. وطلب منها ألا تعبأ بشأنه، ثم شرع يصنع من هذه القطع أحد النماذج. كان بوسعها أن تتحدث مع هذا الرجل.

ربما لأنهما كانا يحتسيان الخمر؟

أما كان بوسع إرب أن يشاركها الشراب؟ كان التقرير السنوي وكتاب شولوخوف الجديد، والحديقة، وغسيل السيارة، أهم دائمًا لديه، وعندما يجلس معها أحيانًا في المساء يكون هو الموضوع دائمًا.

أدرك هازلر أيضًا كيف يجتذب انتباهها الصامت الرغبة في الاعتراف.

لكنه لم يُفرض عليها بذات نفسه. كان وحيدًا مع هذه المرأة لأول مرة، ولم يدرك كيف أن اهتمامها الباسم بما يصنعه بقطع البلاستيك قد أذاب شعور الغربة بينهما. لم يدرك لماذا بدأ حقيقة يتحدث بينما كان يضم قطع البلاستيك في حائط، ثم يصنع حائطًا آخر موازيًا له، كانا حائطين طويلين، لعلهما يمتدّان ثلاثين مترًا، وتصل بينهما جدران جانبية قصيرة، لا يزيد طول الواحد منها عن خمسة أمتار. كان منزلًا مستطيل الشكل، يحتاج إلى ثمانية

أبواب أو تسعة في حائطه الطويل، لكن قطع البناء لم تكن تكفي كل هذا العدد، فصارت به ستة أبواب فحسب. وخلف كل باب كان هناك ما يُشبه الصوان، وهذا هو المطبخ، ومن ورائه حجرة أكبر، هي غرفة الطعام والنوم والمعيشة، تضم سريرًا للجَد هازلر، الذي تضاعل حجمه بحيث أفسح مكانًا لحفيد له عند القدمين، وسرير آخر للأب والأم هازلر، وثالث لصغيرين، وسلّة لأصغر الأطفال، وبالإضافة إلى ذلك صوان ومائدة. كرّر ذلك تسع مرات ووضع فوقها سقفًا، منحدرًا بالطبع، وليس هنا ما يصلح لذلك لهذا يمكن الاكتفاء بكتاب المدرسة، وعندئذٍ تصبح لديك عناصر العمال في نوياشتريجلاو، لنأمل أن يكون البولنديون قد هدموها، أو حولوها إلى شيءٍ آخر. ويكفي أن تنزع هذا الجدار وذاك، وتستبدل هذا الباب، ليكون لديك منازل رائعة من ثلاثِ عُرفٍ رائعة للملاك الضيعة الجُدُد. للأسف أنه لم يصبح مهندسًا معماريًا متخصصًا في تحويل مساكن العمال القديمة. بالطبع لا يجب أن نتصوّر أن الجدران مغطاة بألوان النموذج الحمراء والبيضاء اللامعة؛ فهي مصنوعة من آجرٍ محلي أصفر اللون قَدِر يأتي من مصانع الآجر التابعة للضيعة والتي لا تبعد كثيرًا، ولعلها تقع هناك حيث تجلس فراو إرب. وها هي المضخّة، وهنا المغسل — مقعدان لتسع عائلات — وعلى الجانب الآخر من الطريق المدرسة، وإلى جوارها منزل القس والكنيسة التي تُقام بها احتفالات الأعياد؛ التعميد، العشاء الأول، العمداء، الزواج، والفصح، القربان، الكريسماس، وعمليات دفن الموتى الغالية، وأكولوت هازلر في المقدمة دائمًا عندما تكون هناك حاجة إليه، حتى بعدما التحق صبيًا بمصانع الآجر. كان دائمًا يدق الجرس في الوقت المناسب، يركع، ويقف، ويمر من اليسار إلى اليمين ثم من اليمين إلى اليسار، ويحمل كتاب الصلاة بكبرياء، ويلغو باللاتينية كما لو كان يفهمها، وكان ما زال يحفظ كل ذلك عن ظهر قلب في ستالينجراد، لكنها لم تنقذ ساقه. تلك هي الكنيسة حيث كان يشعر بالراحة أكثر من المنزل، لم يكن ارتفاعها يقل عن هذا الحد، قطعة الحلوى في مقابل دق الجرس، وبومة تعيش في السقف، وفي السندرة كانت النباتات ذات الوبر الشائك والبابونج التي جمعها الإخوة والأخوات الكبار في الحرب العالمية الأولى تنتظر الحرب الثانية. وكانت الكنيسة في فارنيفتز (التأكيد على المقطع الثاني)^{٣٩} صغيرة بالمقارنة معها، بدت هكذا مع شبه برج، وثكنات صغيرة للغاية، من الداخل أيضًا كما يبدو، لكنه لم يخطُ داخلها أبدًا؛ لأنها كانت بالنسبة إليه منطقةً خارجية بصفته شيعويًا جديدًا كما أنها كانت بروتستانتية أيضًا.

^{٣٩} المقطع الثاني وحده — فترز — يعني بالألمانية (نكتة).

«هل لك في كأس أخرى مثلي؟ إن لها مذاقًا أفضل عندما تكون هناك رفقة. كنتُ أنصوّر دائمًا أن اعتدال كارل في الشراب يعود إلى تأثيرك. إنني أعتذر.» هل كان عمدة؟ كلا كان هذا فيما بعدُ في موزيفتز، ولم تكن هناك كنيسةٌ على الإطلاق. في فارنيفتز (التأكيد على المقطع الخطأ كان يكشف الغرباء) كان هو الرئيس والموظف الوحيد لمكتب المسجّل؛ حيث قام بتسجيل المواليد والموتى، وعقد زواجًا واحدًا ونصف زواج فقط. ركن هازلر إلى الصمت، وأبرز مساكن العمال، والمغسل، والكنيسة، والمدرسة، ثم وضع تصميمًا لمبنى جديد. وحوّلت قطع البلاستيك اللامعة كل شيء إلى مبانٍ حديثة، ودون شرحه ما أدرك غيره أن هذا كوخٌ على حافة القرية، وذاك حجراتٌ صغيرة، ومنزل، ومرحاضٌ خارجي، وحظيرة لعنزتين.

«هل ذكر كارل متى سيعود؟» - «كلا، لكن لماذا توقّفت؟ ما هو هذا المبنى؟ أهو منزل أحلامك؟» يمكنك أن تدّعيه هكذا، وإن كان المعنى مختلفًا؛ منزل كان فيه سعيدًا سعادة الأحلام، منزل انتهت فيه السعادة كما تنتهي الأحلام عند اليقظة. كان هذا حيث عاشت جودرون، التي لها شعر رابونسيل^{٤٠} في لونٍ أشقر، وقد نشأت في نويشترينجلو وعلى مبعدة ثلاثة أبواب، وبسببها ذهب إلى فارنيفتز، وبسببها أيضًا غادرها. كان يكسب ١٨٠ ماركا في ذلك الحين، وكانت ممتلكاته تتألف من كمية من الملابس الداخلية تملأ حقيبةً من ذلك النوع الذي يُحمل فوق الظهر، وبطاقة عضوية الحزب، وساقٍ صناعية، وكان الرجل الآخر يملك حانوتًا للجزارة؛ أي منجمًا من الذهب. وقد أبدى البعض تفهمًا لاختيارها له، لكن أحدًا لا يستطيع أن يطلب هذا منه، لقد كان التحول سريعًا للغاية؛ لأنه لم يعلم به إلا عندما وصلتته مذكرة بنأ الزواج المُنتوى. كانت الأسابيع التي أعلن فيها عن الزواج في الكنيسة بالنسبة إليه المطهر الذي لم يعقبه التطهر والخلاص، وإنما أعقبه جحيم يوم الزواج، وهو جحيم كان عليه هو نفسه أن يلهب وقوده بخطابٍ احتفالي،^{٤١} وبالمراسيم الرسمية، والتهاني. ألقى كلمته، وتحدّث بنعومة وبرود عن التفكير والقرار والسعادة والواجب، وما لبثت النار أن أخذت تضطرم في صدره عندما رأى دموع جودرون، فتحدّث فجأة عن انعدام المسؤولية والاستهتار وبيع الأرواح، ثم تفجّر لهيبًا، ورفض أن يقبل المسؤولية

^{٤٠} بطلة أسطورة ألمانية قديمة كانت تمُدّ جدائل شعرها الطويل من نافذتها فيتسلّقه حبيبها.

^{٤١} بحكم وظيفته كمسجّل.

عن هذه التجارة في اللحم البشري، وترك المكتب والقرية. اغرورقت عينا إيزابيث، كما يحدث دائماً عندما يجري أمامها حديث عن مآسي الآخرين، لكن هذه لم تكن دلالة تنم عن ضعف، وإنما عن وجود غديرٍ دمعية نشطة، ظلت للغرابة جافة طيلة سنوات عندما كانت هي نفسها الحزينة.

قال هازلر: «إنها الحادية عشرة. أنا ذاهب.» - «ابقَ أرجوك. لماذا جئتَ حقيقة؟» - «ليس هناك ما هو عاجل.» - «أهو أمرٌ غير سار؟» - «أجل، إني أكره أن أثقل عليك به.» - «بالطبع، الزوجة لا كلمة لها في الأمر.» بدا قولها حافلاً بالمرارة حتى إنه رفع رأسه من اللعبة وأراد أن يعتذر، لكنها كانت قد تحوّلت إليه، إلى قصته، إلى الفتاة ذات الشعر الشبيه بشعر رابونسيل: «أهذا هو السبب في أنك لم تتزوج أبداً؟» - «من يعلم ما كان سيؤول إليه أمري لو كان الحال قد استقر بي في فارنيفتز؟» لم يكن أحدٌ يعرف الإجابة، بما في ذلك إيزابيث، لكنها فكّرت في هذا النوع من الجهل، وأمكّنها بذلك أن تتحدث عنه، بل وعن نفسها أيضاً. «ماذا كان سيحدث لي لو لم أكن قد تزوّجت، ولم أدرس لأكون من أمناء المكتبات، ولم أعش هنا وإنما في نويشتريجلو^{٤٢} أو ميونيخ^{٤٣}. إن التفكير في المؤثرات المحتملة لن يكون له معنى إلا إذا أمكن حقاً تحديدها بوضوح، إذا ما تساوت كميتها مع قدر الشخص كله؛ فحتى في حالة النباتات، لا تُطلّعنا البيئة والطقس والتربة على كل شيء ما لم نكن نعلم طبيعة البذرة. والإنسان لا يأخذ فقط إنما يعطي أيضاً، إنه لا يعكس بيئته وحسب، بل ويؤثر فيها «لماذا يقشعر بوتر من شيء تحبه كاتارينا؟ لماذا تُعجبه أشياء لا تثير إلا معارضتها؟» إن طفولتي المحروسة بعناية بين أسيجة الحدايق قد قيّدتني إلى هذا المكان، وأنا أسأل نفسي عن أثر ذلك في مشاعري وأفكاري وعما عنّته بالنسبة لزواجي؛ أي بالنسبة لكارل. لماذا يعتبر المرء الروابط قيوداً، ولا يعتبرها كذلك أحياناً؟ لماذا يحب المرء شخصاً ما، ولو على حساب سعادة المرء الذاتية؟ هناك تفسيراتٌ لكل هذه الأشياء، لكنها لا تفسّر كل شيء. وأمام الفرص التي نملكها اليوم، يصبح نقص التعليم سبباً، لكن أليس الأمر أكثر مهانةً عندما لا يعرف المرء شيئاً عن نفسه. عندما أُعطي لأطفالي نصيحةً ما، فإنني أسأل نفسي دائماً من أين تأتي الأمور التي أقدمها لهم على أنها حقيقية وسليمة.

^{٤٢} هي الآن ومنذ نهاية الحرب جزء من بولندا.

^{٤٣} في ألمانيا الغربية.

وصوت من ذلك الذي أجعله من نفسي؟ أتراني سأفكر وأتكلم بنفس الطريقة إذا كنتُ لم أتزوج، أو تزوجتُ شخصاً آخر؟ عندما أفكر في الفروق وطبيعة التطور البشري التي لا يمكن حسابانها، لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن يستمر الزواج عدة عقود. أنا أعرف أن «التطور المتبادل» هو الكليشيه الذي يقوم على سبيل الرد عادةً لتجنب كلمات غير سارة؛ لعل التكيف والخضوع هما اللذان يقومان في أغلب الحالات بدور المونة التي تُبقي على التصاق النصفين المتباعدين، إن لم يكن شيئاً أسوأ من قبيل «الفائدة المتبادلة»، العادة، الخوف من التغيير، الضغط الخارجي على الخواء الداخلي، كما هو الشأن في نصفي كرة مجدبرج. لا يقبل كل إنسان أن يبقى دائماً مجرد نصف، وفي الغالب لا يصل المرء حتى إلى هذا النصف، وإنما يكون مجرد (و فقط لندرك ونعترف بصعوبة هذا) الكوكب التابع في فلك النجم الأكبر، يدور حوله لأن القوانين، لا تلك الخاصة بالطبيعة، وإنما أحياناً الخاصة بالحب، تقضي بهذا.»

احتج هازلر على التعميم، مفكراً في الرجل الذي أصر على أن لكافة الإنجليز لحى حمراء؛ لأن الإنجليزي الذي عرفه كان هكذا، وفي الطبقات التي عفا عليها الزمن والتي تعتبر انهيارها انهياراً للعالم كله، لكنه استفسر بصورة مباشرة (كان يفضل لو تجنب الموضوعات الشخصية، لكنه كان يعرف أن التجنب في أغلب الأحيان تكتيك سيئ) عن زواج إرب، الذي كان يعتبره دائماً زواجا ناجحاً. وأكّدت إليزابيث ذلك بابتسامة، وبالادعاء بأن الحب والسعادة عندما يتحققان يمكن أن ينفي أحدهما الآخر، وظلت في إطار التعميمات ثم ما لبثت (طبقاً لطبيعتها الحقيقية) أن بدأت تتكلم، وفي خلال حديثها اتضحت أمور كثيرة، لكنها لم تكن بالطبع كل شيء. كان الأمر ببساطة هكذا: إن إرب يعرف كل شيء أفضل منها، هذه حقيقة؛ فهو أفضل منها تعليمياً وتدريباً وأكثر خبرةً وتجربةً، تعلم أكثر منها، ورأى أكثر، وبحث الأمور بدقة أكبر. وهو يُبرز هذا كله يومياً.

ويبدو إرب في صورة من يعرف كل شيء، ويستعرض ثقافته لكن الأمر ليس كذلك؛ فهو يقدم العون أينما وعندما يستطيع. كان يُصدم في البداية بجهلها، لكنه لم يكن يدعها تلحظ هذا دائماً. والواقع أن الأمر لم يُزعجه حقيقة؛ فكما عشق فيما بعدُ سخافات ابنته وغرابة أطوارها، أحب ضعف إليزابيث، ولم يجد أبداً صعوبةً في أن يُحاول، بصبر، وبالصدقة والحب، الارتقاء بثقافتها ومواهبها إلى مستواه.

لنعدُ إلى الوراثة. نحن الآن في شهر يونيو، في بداية صيف حبهما. لا شيء يفصل بين قلبيهما غير بلوفر وصدرة، وليس في عينيها سواه (عندما ينظر)، ومن أجلهما خاصة

أزهرت الشمس عديداً من الزهور على شاطئ الشبريه، وأعربت إليزابيث عن عرفانها بأن جعلت تكتشف شيئاً مدهشاً في كل زهرة، داعية إياها بالاسم، سواء كانت تعرفه أو لا؛ لأنها تستطيع دائماً أن تخرع شيئاً؛ بنفسجة عباد الشمس، عين الغزال، حلوة المرج أولاً تتق بي، وهي أسماء ألفاها هو أكثر جمالاً من الأخرى الحقيقية التي يعرفها والتي (ضاحكاً من غرامها بالتعميد) يذكرها (مع أصولها اللاتينية بين قوسين)؛ الأمر الذي يجده هو نفسه مضحكاً ومؤثراً في آن واحد. إنها لا تعرف غير اثنين من الألقاب الرسمية هما فيولا تريكولر وبريمولا فيريس، وهذان فقط لأن الكاتبين ليناو وشتورم قد يستخدمانها في عنوان بعض كتاباتهما. ويتعين عليه أن يعلن أسماء الزهور الحقيقية مع ذكر تاريخ ميلادها ومواطن ضعفها الملحوظة، لينتقل على الفور إلى نقاط الخلاف بين شجرة البتولا التي تنمو في المناطق الرملية وتلك التي تنمو في المناطق الجليدية، وهي التي تعجب بها إليزابيث لسبب واحد هو خضرتها التي تشبه النقاب.

وعندما يبلغان القناة يكتشف أنها تظن ما يُسمى بالأكاسيا أكاسيا حقيقية؛ فهي لا تعرف أنها في الواقع روبينا تأتي من أمريكا (وماذا أيضاً؟ البطاطس والذرة والتبغ)، وليست من النباتات الأصلية لأفريقيا أو أستراليا مثل الأكاسيا الحقيقية، وهي لم تسمع مطلقاً بفرانسييس دريك والكابتن كوك (اللذين يردان على خاطر فوراً بهذه المناسبة). وهذا يقدر على الفور غدها الدمية، ولا يسبب فقط تدفق المياه وإنما يؤدي أيضاً إلى جفاف حبالها الصوتية، حتى إن حبيبها المذعور يُضطر للانتظار طويلاً حتى يتلقى إجابة على استفساراته الملهوفة: «لأني شديدة الغباء»، ويستطيع أن يحتوي الفتاة التي هدأت الآن بين ذراعيه، وهو نفسه بين الضحك والبكاء. هذا هو ما حدث، لكن تعقيبها عليه كان: «أرجوك أن تصدقني، يا هازلر، عندما أقول إن أسوأ ما في الأمر أنني لم أكن أملك تفسيراً لدموعي، التي لم أستطع تجنبها والتي آذته، وعلى كل فقد أردته كما كان، ودفعته لأن يكون هكذا، يجب أن يُبرز ثقافته كي أستطيع تمثيلها وبلوغ نفس المستوى».

إنها تكتب بحث الامتحان (في سنة لاحقة بسبب إصابتها بالسُّل) وهو (تقريباً ضد رغبتها) يبذل الكثير لمساعدتها، موضحاً الصعوبات، مصححاً الأخطاء، الإضافات، موقظاً أفكاراً جديدة عن طريق الأسئلة السقراطية، وهو يكرس الكثير من الوقت لهذا، وتذوب هي في داخلها بالعرفان وتبكي. وتعود كل يوم إلى المنزل من مكتبها الصغيرة المتهمة بأسئلة وشكوك، ويظل هو إلى جانبها حتى ساعة متأخرة من الليل، يساعدها في الفهرسة والتنظيم، وتخطيط مشاريع الأرفف الجديدة، والإشراف على ما أعدته من قوائم الوارد

والصادر، ويتركها وقد سيطر عليها شعور بالعجز التام؛ فبدونه ما كانت ستتمكن من تنظيم هذه الكومة من الكتب. وتكتشف فجأة أنها صارت تأمل في أعماقها أن يرتكب خطأ ما، وتعارض آراءه التي يشرحها بصبر (رغم أنه بالطبع، دون أن يعترف بذلك، يعتبر معارفه المتخصصة معارف عامة) حتى تضطر للاعتراف بأنه على صواب، وتستسلم أخيراً وتوطن نفسها على الصمت، وهو ما لا يلحظه إلا بعد أعوام، مما يثير ضيقه لأنه لا يجد تفسيراً له. وخلال هذه الفترة، تُقرر أنها ترغب في طفل، وعندما يصبح في إمكانها أن تستعرض بطنها المتضخم أمامها، يصبح كل شيء على ما يُرام؛ لأن هذا شيء لا يمكن لأحد غيرها أن يقوم به.

سألها هازلر: «والآن بعد أن كبر الأطفال؟» - «هل تعرف أن الساعة بلغت الواحدة؟» - «هل قال كارل إلى أين هو ذاهب؟» ودون أثرٍ من دموع، بهدوء وابتسامة، تجيب: «أجل، إلى موعد مع الرفيق هازلر.» هذه هي إليزابيث على حقيقتها. لم يعرف هازلر ما إذا كان يجدر به أن يُعجب بها، أو يعتبرها على شيءٍ من الغرابة، لكنه شعر أن الوقت قد حان لمواجهة الصراحة بالصراحة (ورغم أن التراجع يمكن تبريره بتأخر الوقت) لأن يذكر لها سبب مجيئه، مما سيعني إدخال السلك الوظيفي في المأساة العائلية البازغة، رغم أنه، كأعزب، لم يكن الممثل الملائم له (إنه لم يقرأ حتى النصوص المقررة في هذا الشأن، ثم إنه قد مضى العهد الذي كان بوسعك فيه أن تقول، وربما تؤمن أيضاً، بأن كافة الإجابات يمكن العثور عليها في تلك النصوص). وأمكن بسرعة التغلب على مشاعر التضامن الخجولة (ألا يجدر بالمرء أن يساند بأي ثمن مزاعم شخصٍ يحمل ذات البطاقة الحزبية ومن نفس الجنس، عن مكان وجوده؟) كما أمكنه أن يقمع فورة غضبٍ ضد إرب ويختزنها للوقت المناسب. وبعد أن سألها: «هل تعرفين أين هو؟» ليختبر رد فعلها للألم، بدأ يُدلي بتقريره، بينما أصابعه تصنع بقطع البلاستيك أشكالاً هندسية يمكنها أن تنبئ الطبيب النفسي بالكثير عن درجة اضطرابه. وأدّى تقريره إلى إيقاظ رد فعلٍ لدى إليزابيث لم يكن يتوقعه.

«إن الاجتماعات واللجان، والمناقشات، والكونفرنسات، والاحتشادات، والمؤتمرات تشترك مع المواقب والصلوات وطقوس الحج، في أن قيمتها الحقيقية لا تتمثل فيها وإنما بدونها، في الميدان المواجه للكنيسة. في دار إقامة الحُجاج، في الاستراحة التي تتخلل المؤتمر، في وجبة الغداء المجانية بدون الأسرة، حيث يمكنك الحديث إلى من لم تكن تعرفهم قبل الآن إلا بالاسم؛ حيث تسمع نكاتٍ جديدة، الأمثال الشعبية لعصرنا؛ حيث يمكن كسر الاحتكار

الإعلامي للصحافة التكنيكية، وإضافة صفحة شخصية إليها؛ حيث يتم تقليب التربة لأساس زواج أمناء المكتبات، وحيث يمكنك أن ترى الجانب الآخر لوسام الاستحقاق. في مثل هذا الموقف يحدث أن يسمع المرء براءة كيف يجذب أحد شاربى الفودكا المتحمسين، في غمار التخفيف عن ذات نفسه، انتباه جاره في المقعد التالي (المعروف بأنه يرغب في استبدال توزيع الأدب بإنتاجه) إلى صراعٍ جدير بشكلٍ أدبي؛ مدير، في الأربعين، متزوج، يُحب مساعدته أُمينة المكتبة، التي يُعجّب بها مساعده أمين المكتبة، موقف ثلاثي مزدوج ذو خلفية كُتبية، لم يكتُب عنها من قبل، يوسف وبرودر^{٤٤} المختار. بالطبع ليس من السهل على المدير (وهو أيضًا مسئول عن الصحة الجماعية) أن يبحث عن رشاش السم؛ فعليه أن يقتفي أثر جدول الطين حتى أحد منابعه الكثيرة، حيث يجد أخيرًا الشاب ذا الشعر المقصوص قصًا بالغًا، الذي يعلن أن السم موجود منذ البداية، وكل ما يفعله أنه يُبرزه للعيان، ويلوّنه بلون الحقيقة الأحمر، كما يدعي، أو لون الغيرة الأخضر كما يعتقد رئيس القسم. هذا الشاب اسمه كراتش، وهو يزعم أنه عندما أراد أن يقوم بزيارة مسائية للطائر المعجزة في برلين، المنطقة البريدية رقم ٢٤، وجد العش محتلاً بإرب، وأنه سمع من وراء الباب بعض الأحاديث المريبة. أحمر أم أخضر، هذا هو، أو هذا كان، السؤال هنا (أي بالنسبة لرئيس القسم الذي كان في تلك الأثناء قد غطى المائدة بمربعات بيضاء وحمراء تُشبه لعبة الحجلة).»

وردُ فعل إليزابيث؟

إنها تبدي اهتمامًا بكراتش، وتريد أن تعرف ما إذا كان حقًا متعلقًا بالأنسة برودر، وما إذا كان إرب مسئولًا عن خسارة مزدوجة، وتضع نفسها مكانه، وتدمع عيناها وهي تفكر في مشاعره خارج باب الفتاة التي يُعجب بها، كانت عيناها بالتأكيد ستمتلئان بالدموع حتى تفيض، لولا جرس قاطع رنينه الرحيم خيالها وكلماتها. مضت إلى التليفون. ونظر هازلر إلى ساعته أولاً (الثالثة إلا عشرين دقيقة) ثم تطّلع إلى وجهها، هل هذه المرأة حقًا لا تعرف الغضب، ولا الخوف ولا الحقد؟ أم أن عواطفها من العمق بحيث لا تظهر على السطح؟ أم أنها نسيت كل هذه الأمور؟ لم تُبدِ أثرًا من دهشة أو فزع عندما قال لها صوت رجلٍ غريب: «هنا مركز الشرطة رقم ١٢٠ ...»

^{٤٤} كلمة برودر بالألمانية معناها الأخ.

بدا له كما لو كان يعود إلى منزله؛ ذلك أن المدخل، والفناء المظلم، والخطوات الحديدية المؤدية إلى الجناح (ب)، لم تُعد تبعث على الانقباض. عثر على الفور بمفتاح النور إلى يسار المدخل. ولم تُعد تَكَات ضوء السَلَم الأوتوماتيكي، والرائحة، والدرجات البالية التي ارتقاها ثلاثاً، بغريبة، استقبله الكلب في الطابق الأول (واحد على الأقل في كل سَلَم، هل كان هناك أكثر في ألت - شرادوف؟) نابحاً عندما مرَّ مسرعاً، وقَدَّم له الباب الوحيد ذو الطلاء علامة منتصف الطريق، ألا وهو الطابق الثاني، وفي الثالث اهتزَّ الدرايزين، وعندئذٍ لمح هدفه، اللوحة النحاسية العريضة اللامعة التي تحمل الاسم: ف. برودر، وإلى جوارها الجرس، الذي عمل بالضغط في حركة دائرية يصدرُ عنه بعدها لفظٌ غير واضح يتعيَّن دعمه بالطرق على الباب، إذا كان المذياع دائراً بالداخل. لكن المذياع لم يكن هو الذي عَجَز الجرس عن منافسته هذه المرة، وإنما صوت السيدة فولف. لم يطرق كارل الباب؛ إذ بدت له استحالة الالتقاء اليوم بالآنسة برودر في حضرة شخصٍ ثالث. كان قد قرَّر أن يُنبئها على الفور بما يريده؛ القرار، أما الآن، ولغير ما خطأ من جانبه، فیتعیَّن تأخير هذا القرار. كان يُسعدُه أن يتمشى ساعةً أخرى في الجليد الموشك على الذوبان، ليراقب تغیر ألوان إشارات المرور عند «أورانينبورجرتور»، أو الرقصة الصامتة التي تؤديها الملاءات والقمصان في آلات المغسلة الكهربائية، لكنه لم يكن يملك مغادرة المنزل؛ لأن أنيتا أغلقت الباب الخارجي من خلفه. وهكذا ارتقى نصف طابقٍ آخر في الظلام حتى بلغ باب السندرة الحديدي، الذي وصلت إلى سمعه من خلفه أصوات لغو، وطقطقة، وجر، وخربشة. الحَمَام؟ أم الفئران؟ جلس على الدرجة العليا، وأوقف زجاجتي الخمر إلى جواره، وأصغى لفراو فولف، التي كانت تقف الآن فيما يبدو في مدخل الباب الفاصل بين الغرفة وركن الطهي في الصالة. وتحدث بسرعة كأنها في عجلة من أمرها، رغم أن هذا فيما يبدو لم يكن حقيقة الحال، أو لعلها نسيَت عجلتها عندما جعلت تحكي عن عهد الجوع والبرد، وهو الزمن الذي يطيب الحديث عنه عندما يكون موقدك ساخناً، ومعدتك ملأى.

«كنتُ لم أزل شابةً وقتئذٍ، كما تعلمين، ومنذ عام ١٩٤٢م كان زوجي أسيراً في الغرب؛ ولهذا كنتُ أتلقي خطابات، وكنتُ أحياناً أخرج للنزهة، لم يكن الأمر سيئاً. كنتُ أذهب فقط إلى هاوس فاترلاند حيث كانت الجدران تحمل صور الراين والسفن والقلاع، الشباب لا يذكرون ذلك، كانوا يصنعون هناك عواصف، برعد وبرق حقيقيين؛ فالظلمة

سائدة، ومشط لوريلاي^{٤٥} مصنوعٌ حقيقةً من الذهب. كان الجنود يترددون على ذلك المكان؛ إذ كانت محطة إنهالتز غير بعيدة، وذات ليلة أردتُ أن أعود بأحدهم إلى المنزل، كانوا يستدرُّون الشفقة، لكن الأمر لم يكن قاصراً على ذلك كما تعلمين، وعندما بلغنا جسر مونينجو دوت فجأة صفارات الإنذار، وأصبحنا بمفردنا في خندق المقبرة، كان يُدعى أيرفين؛ ما زلتُ أذكر، وكان بالتأكيد ذا تجربة، لكنني تذكّرتُ فجأةً أن ماكس في المنزل بمفرده، فقفزتُ إلى الخارج وتبعني أيرفين وهو يرتجف، ثم جرى عندما أصبح في الطريق، أرايتُ؟ لكننا عندما وصلنا القبو بدأ يلعن، وكانت تلك هي النهاية؛ لأنه ظن في الأمر طفلاً، وبالفعل كان هناك ماكس، لا بدُّ أنك تذكّرينه، أترين؟ ومنذ تلك اللحظة كنتُ أصحبه معي دائماً في سلة ذات قفل، يقبع بها في هدوء تام، حتى عندما كنتُ عند الحلاق، وجريت إلى المخبأ بشعرٍ مبتلٍ ملفوف حول أدوات عقصه، وضحكنا من فريتز الذي لم يكن قد أتم حلاقة ذقنه، تعرفين أنه لم يقع شيء بيني وبينه؛ لأنه عندما خلع سترته (أحدث ذلك قعقة هائلة؛ لأنها كانت مغطاة بالميداليات وغيرها)، إذا بأمك فجأةً في مدخل الغرفة، في مثل هذا المكان، وفي تلك الأيام لم يكن الخوان يحجبه، وجعلتُ أمك تتكلم وتتكلم، حتى تأخر الوقت للغاية وتعيّن عليه أن يسرع ليلحق بقطار الإجازة، ونتيجةً لهذا ظللتُ دائماً مخلصاً لزوجي، لكن ما أبهجه أكثر هو أن ماكس كان ما يزال حياً، أترين؟ انزعي الريش الآن؛ فهذا أسهل طالما أنه ما زال دافئاً؛ فلا أظن أن أحداً سيزورك اليوم، وإلا كان قد جاء الآن، وتذكّري قلبك؛ فأنت لست في قوة أمك، ومثل هذه الأمور مرهقة، ورغم أن الزمن تغيّر تغيراً فإن الزواج ما زال هو الزواج؛ فالمرأة هي التي تقع في المتاعب دائماً، والواقع أنني مدينةٌ لأمك بأني أنفجر فيه بين الحين والآخر وأعطيه دُشاً، لكن الخوان الآن صار في الطريق، وعلى كل فأنت من المهارة بحيث لا تسقطين بسهولة في برائن واحدٍ من أولئك الذين يخطفون البصر، وقبل أن يتم الذي تعرفينه يُدلون بالخطب البليغة، وبعد ذلك ترينهم مسرعين، ولو حدث شيء يتلاشون في الهواء، مثلاً حدث للفراو باشكه مع السرجنت.

هكذا أفاضت، أحياناً في المطبخ خلف الباب الأمامي مباشرة، ثم واقفة في فتحة الباب الأمامي، ثم خارجه في الصلاة، وإصبعها على زر النور حتى لا يكف التكاك الأوتوماتيكي،

^{٤٥} بطة أسطورة ألمانية قديمة كانت تستخدم مشطاً من الذهب.

حتى انطلقت أخيراً: «أتمنى لك نومًا طيبًا!» والتصافح بالأيدي، وخطوات، لا إلى أسفل كما كان يتوقع (أربعة طوابق ثم عبر الفناء ثم أربعة أخرى إلى أعلى) وإنما نحو السندرة (فهو طريقٌ أقصر وغير مبتل)؛ أي نحو كارل الذي كان يجلس في الظلام، لا يملك أحدٌ رؤيته، لكنه يرى. والذي قال، بكل ما وسعه من رفق: «لا تخافي»، لكنه فزع هو نفسه من صرخة السيدة فولف. والتعبير الثائر على وجه الأنسة برودر عندما رأته (وزجاجة). لم تسمح له بالدخول إلا بعد أن كرّر ثلاث مراتٍ اعتذاراته المتعثرة، وقادته إلى مقعده المألوف بإيماءة من رأسها، ثم جلست بدورها، ولم تقاطع اعتذاراته المتكررة. كما أنها لم تكن على استعداد لأن ترى فكاكة الموقف التي حاول مستميتًا إيضاحها، وعاقته بقدر الإمكان عن توجيه السؤال الحاسم، لكنها من الناحية الأخرى. قادتته إلى السؤال برفضها الانغماس في الحديث، ولعبت بتفوق تام ذلك الدور الأنثوي الذي زعمت أنها تزدريه، فسمحت بتوجيه السؤال، في النهاية، رغم أنها رأت كيف كان يعذبه تجاهلها الرد بالإيجاب أو النفي، وأبقته على مدى ذراع بأن اتجهت إلى العموميات عندما كان المطلوب هو أن تتحدث عن نفسها.

لعلها استمعت برؤيته يتلو، ولعلها سرت لمجيئه؛ ذلك أنها بدلاً من أن تعيده إلى الطريق، دعت إلى مشاركتها الحما. وكان هو غارقاً في أسرها لدرجة دفعته إلى مجاراتها؛ فبدلاً من أن يطالب بإجابة أو يذهب، تغلب على غضاظته وتناول واحدة من الطيور الدافئة المجردة من رءوسها والتي كانت ما تزال تنزف، وجعل يقتلع ريشها طائعا. وبنفس الروح ساعد في طهيها. كان سعيداً بتناول الطعام معها، وبالخمر التي لم ترفض تناولها، وهو رغب به لأنه أقنع نفسه بأن عوامل الكبح هي التي تحول بينها وإعطاء رد واضح. ومن الطبيعي أن الخمر أحدثت أثراً؛ فقد تحدثا (الموضوع: مشكلة الأدب الخفيف الخطيرة) بكثرة وسرعة كما لو كان هو الموضوع الوحيد الذي فكراً فيه طوال حياتهما، ولن تتاح لهما أبداً فرصة أخرى لعرض آرائهما بشأنه. وبعد أن أفرغا بضع كئوس، شعر بأن قراراً ما لم يعد ذا أهمية، بشرط أن يستطيع دائماً الجلوس هنا ورؤيتها والإصغاء إليها، وكانت تُسوِّي حاجيتها باستمرار وهي تطارد عبارةً بديعةً بأخرى (مُخَفِّيةً المكرر منها باستخدام كلمات أجنبية)، لا تستطيع البقاء في مقعدها، تتكلم وتُصغي، وتسير إلى الموقد لتدفئ يديها ثم تعود إلى مقعدها. نهض كارل بدوره ليُدْفئ ظهره، وعندما عاود الجلوس، مضت هي إلى الموقد مرةً أخرى وهي تتحدث برقة، وعادت إلى مقعدها عندما سار هو، ثم نهضت

وعانقت الموقد،^{٤٦} مُلصقةً خذّها الأيسر إلى الخزف البني الناعم، ولم تتحرك عندما اقترب كارل ليُدْفئ خده الأيمن. مضت في الحديث، وبدا أنها لم تلاحظ التحركات الدائرة بالغرفة ثم قالت (كما لو كانت قد احتفظت بنتيجة تفكيرها لهذه اللحظة): ربما لا يبدو المرح شيئاً نابياً إلا لأن الظروف نفسها مجرّدة منه. عند هذه النقطة رفع كارل يده؛ يسراه، ووضع سبّابته برفقٍ شديد فوق بشرتها أعلى البلوفر، حيث تنساب رقبتها إلى كتفها، الأيمن، قائلاً: «بالضبط»، وضرب مثلاً لذلك من الألحان العسكرية الخفيفة المعونة ثلاثاً والتي تنتمي إلى كلا الأسلوبين «الألماني القديم والألماني الحديث»، والتي حثّمت عليها طبيعتها أن تتّسم بالزّيف وتفقد إلى الجودة، بينما كانت (وخذّها ما زال مستنداً إلى الجدار الخزي) قد أغلقت عينها لثانية، وتجمّدت ثلاث ثوانٍ، ثم (بينما تسلّل طرف إصبعه إلى أعلى فوق رقبتها، ليتوقف عند مبدأ الشعر) احتاجت على الأقل لعشر ثوانٍ قبل أن تجد شيئاً تقوله عن روح الفكاهة لدى توماس مان. لكنه لم يُنصت لذلك حتى النهاية؛ لأنّ فمها كان هناك، وشعرها أيضاً، وصدرها.

لم يعد يفكر في أي شيء، ثم فكّر قليلاً في السعادة وثلاث نقاط (النقطة الأولى: ملاطفات التمهيد، النقطة الثانية: الفعل نفسه، النقطة الثالثة: ملاطفات ما بعد الفعل). لكن الأمر لم يحدث بهذه الصورة. كان كلّ منهما يعرف ما يمكن أن تصنعه الخمر. ولكلّ منهما كانت رقصة الموقد تحمل شيئاً من الجروتسك^{٤٧} (كما هو بالضبط شأن الحرب: رجال بالغون يطاردون بعضهم بعضاً مثل شخصيات فني مور كوبر،^{٤٨} يتبادلون الكراهية دون معرفة شخصية، أو كشأن النقود أيضاً؛ أوراق تتحكم في الوجود. يا له من هدفٍ معقول وإنساني العمل على إلغاء الحرب والنقود!) لكنّ كليهما بالرغم من ذلك كان مُضطراً لأن يلعبها، هي لأنها لا تستطيع القول ببساطة: إنني الآن أنتظر عناقك، حقاً إنني لا أحبك.. لكن الخمر قد أطلقت سراح شيءٍ أسيطر عليه عادة. وهو بسبب خوفه العظيم من أن يبدر عنه ما قد يضايقها (فحادث القبلّة الفاشلة التعيس لم يغب بعدُ عن الذاكرة).

^{٤٦} يتمثل هذا النوع من المدافئ، الذي تتميز به البيوت الألمانية القديمة في كتلة من الحجر مساحتها مترٌ مربع بارتفاع الطابق وسط الغرفة، وتغطي جدرانها مربعات من الخزف، وفي منتصفها فتحة كبيرة لوضع القود لها بابٌ حديدي، وتلعب دور الفرن، والمدفأة في آنٍ واحد.

^{٤٧} فن الزخارف المتميز بغرابة تحيل كل ما هو طبيعي إلى بشاعة أو كاريكاتير.

^{٤٨} روائي إنجليزي من الدرجة الثالثة كتب عن مغامرات الهنود في أمريكا الشمالية.

واضطّرَّ للمشاركة في المباراة المثيرة للغاية رغم افتقارها إلى الوقار، كي يتأكّد من أن إصبعه على بشرتها مرغوب حقًا. وعندما أصبح إصبعه على بشرتها فكّرت: يا إلهي، هذا أكثر مما حدّث لي من قبل على الإطلاق، وبدأت تخشى على استقلاليتها. لكنه شعر بسلطانه عليها دون أن يُسعده ذلك؛ لأن الشهوة لم تُعد منذ حين هدفه، لكنه أراد أن يستغل سلطانه، فترك إصبعه ينزلق على عنقها ويتحسّسه، ودفعها إلى الفراش ورقد إلى جوارها، وضغطها إليه، وأبرز لها رغبته، وأرادها حقًا، لكنه في نفس الوقت أدرك أن الأمر لم يُعد يتمثل في فمها أو صدرها أو جنسها، وأنه لم يكن يأمل في الشهوة بل في أكثر، يأمل في أن تتحوّل الرغبتان، إذا كانتا قويتين بما فيه الكفاية، إلى حب. لكنه أخطأ. كانت تزداد برودة بنفس المقياس الذي تزداد به علامات رغبته. كان لمس طرف إصبعه قد قهرها، وإذا بقوة هجومه تُعيدها إلى وعيها. الآن بدا مثل كل الآخرين. وفي كل مرة يتوسّل بما يظنه جديرًا بالرجال من سلوك، كانت تنسحب منه إلى داخلها، وتتحوّل إلى متفرج، تبتسم لسلوك الرجال، تبتسم بألم وخيبة أمل، لكن بالطريقة التي تبتسم بها لطفل عزيز، هل يظن حقًا أنه قادر على أخذها رغم إرادتها؟ أمسكت بحزم اليد التي امتدّت أسفل البلوفر وقالت في صوتٍ عادي: «على فكرة. كم الساعة الآن؟» لكن ذلك لم يُفد بشيء، فاحتدّ صوتها: «كفى، أرجوك!» لكنه لم يَكف. بل ضاعف محاولاته. وأصبحت قبضته مؤلمة. وكل ذلك لا يستطيع التخلي عن الاعتقاد بأن النساء يرغبن في غزو الرجال لهن، لأنه آمن (المرة الأخيرة) بأنه يجب أن يترك لديها انطباعًا قويًا؛ لأنه رفض أن يدرك أن الفرصة قد فاتت، وبإيجاز لم يكن يعرفها.

كانت رغبته الآن مجرد تظاهر. وقوّته قوة اليأس، الأمر الذي تملك مواجهته. هكذا كَفّت عن المقاومة، ورقدت ساكنة، متصلبة، صامتة، عندئذٍ تركها وشأنها. رقدًا متجاورين دون أن يتلامسا. لكنها شعرت بضرورة الحذر (من نفسها أيضًا): لهذا السبب بدأت تتكلم: «كم هي مدعاة للشك كافة الأوصاف التي يطلقونها على الحب والجنس!» هكذا بدأت، بطريقتها الاستطرادية الموضوعية، التي تلجأ إليها عادةً عندما تريد أن تُعلن شيئًا ذاتيًا، وبهذا تركت له وقتًا يستعيد فيه قلبه ورثائه إيقاعهما الطبيعي. كانت لغتها الآن، كما هي دائمًا، نقية، دون أثر من عامية، واضحة، سليمة، منمّقة، نتاج اصطناعي بالتأكيد، ولم لا؟ كانت تقدّر الفن والثقافة تقديرًا كبيرًا، وتقدر في الرجل أساسًا تلك العوامل التي ترفعه فوق الطبيعة (تشاجر معها إرب فيما بعد عدة مرات حول هذا الموضوع، وفي أثناء ذلك سمحت لنفسها أن تُستفز وتعلن أن كل كرة من إناءٍ خزفي في متحف أكثر أهمية

لديها من البلبل، والبنفسج المائي أو المناظر الجبلية). وكان هناك أثرٌ من هذا الموقف في محاضرتها عن الأدب والحب والشهوة.

«البعض يُقبلون بلاعقلانية الحب، يرفضون رؤية الجوانب غير النشوانة للحالة، ويقنعوننا بتفاصيل — مثل النظرات والكلمات والإيماءات — سارت مألوفة بالتوارث، أن شخصين يتبادلان الحب، وأنه إذا لم يتدخل أحدٌ في أمرهما، فإذا بالسعادة من غير جدال. ويقتصر الآخرون على الحوافز البدائية، التي إما يصوّرونها على أنها تُثير الاشمئزاز — الرجل حيوان — أو يصفونها بأنها أعظم المتع.» هي دائماً تقيم إطاراً نظرياً صغيراً حول ما تريد قوله، وتقوم بلغةٍ طويلة، لكنها سرعان ما تقترب من هدفها بتصويبٍ محكم: لقد بدأت الآن بأنبياء المتع الجسدية، اليونان الجدد، رجال عصر النهضة (وهم ليسوا عمالقة في شخصياتهم فقط، وإنما أيضاً في قوة عواطفهم، وبالتالي من ناحية الجنس) الذين أرادوا في النهاية تحرير الشهوة الحسية، والذين يواجهون الآن، بعد منتصف الليل، وفي الجناح (ب) السؤال التالي: تحريرها من ماذا؟ من فرط الاحتشام؟ وأين ما يزال ذلك يمثل عقبةً حقيقية؟ ربما من الثقافة، من القوة البشرية التي تكبح جماحها؟ أيجدر بالمرء أن يهتف مُرحباً عندما ينهار السد ويفيض النهر المحرّر على الحقول والقرى؟ إن الناس عندما يصفون الشهوة المحرّرة بأنها التعبير الملائم عن المجتمع الجديد، لا يمكن أن يقصدوا التحرّر من الأخلاق، من القواعد الاجتماعية للسلوك. فهم يعنون في الغالب قيد «الواقع»، أو بمعنى أدق «الواقعية». فلا بُدَّ وأن يتحرر المرء من هذا القيد إذا ما كان يرغب في الدفاع بحمية عن شيءٍ ما ليس إلا خيالاً وإن داعب أحلام الكثيرين. أن مُتّع الفراش المطلقة شيءٌ لا وجود له في الواقع، ومن باب أولى في حالة الشعراء الذين يميلون إلى البدانة، والذين يجتمعون مرةً في الأسبوع بعشيقات في نحافة عود القصب، وبعد ذلك يستبعدون من قصائدهم كل المتلازمات المزعجة؛ الكذب على الزوجة، الخوف من الحمل، الخوف من الفضيحة، وحدة الفتاة لمدة ستة أيام، السؤال المكبوت دائماً عن الطلاق الذي صدر به الوعد ذات مرة، فضلاً عن النواقص الجسدية المحتملة. إنهم يبذلون جهودهم لنسيان كل هذا، لكنهم بالتالي لا يستطيعون تحقيق ذلك إلا في قصائدهم. إنها تفهم هذا؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل المثل (دون شعر) إلا في الذاكرة التي تقدم دائماً الأوهام للمستقبل. وهنا بلغت أخيراً ما أرادت قوله في هذا الموقف الأفقي الشاذ؛ ففي غضون الأيام القليلة القادمة، ستأتي لحظة تفكّر فيها هكذا: في المرة التالية سيكون كل شيءٍ قد نُسي، وأيضاً القبح الذي سينبُع منه، لكنها لحسن الحظ لن تكون قادرةً على الإتيان به في المرة التالية أيضاً.

«لأن حسيتي ليست حرة، ليست حرة مثلاً من التطلع إلى الاستمرارية، ومطلب الاحتكار. إنني أقدر نفسي لدرجة تمنعني من أن أصبح عشيقتك. كلا، أرجوك لا تقل شيئاً الآن، فأنا لم أنتهِ بعدُ. في بداية هذا المساء تحدّثت عن الحب، بشيء من الخفة على ما أعتقد. يجب أن أترك السؤال بلا إجابة، فلستُ أعرف واحدة، وكياني كله يقاوم محاولة العثور عليها، ربما لأنني أخشى المسؤولية، لأنني سأتحمل المسؤولية، لو واصلت الانقياد لعواطفك وحدها. هل أصنع بعض القهوة؟»

لكون الرئيس لم يكن راغباً في قهوة أو قبلات أو الكلمة الحاسمة. ولم يعد يرغب في ترك انطباعٍ معيّن. ونتيجةً لهذا فإنه لم يقفز إلى قدميها قائلاً وداعاً إلى الأبد بإيماءٍ باسلةٍ عليها أن تعبّر عن كلّ من المعاناة وقوة الإرادة الدّكرية، ولم يقلّ بابتسامةٍ حزينة إن قفزةً من النافذة ستحرّره إلى الأبد، بل إنه حتى لم يطلب سيجارة. بدلاً من ذلك بدأ يناقش الجزء الأول من حُججها؛ أي الجزء العام. الواضح أنها انساقت لميلها إلى التعميم، وسيكون من العسير عليها أن تبرهن على كافة مزاعمها؛ فلا بُدَّ وأن تذكر أسماء، وفوق كل شيء يجب أن تقدّمها بصورة تاريخية ما دام هذا هو ميدانها، التاريخ مطبّقاً على الحاضر، ما دامت مثاث قليلة من الأمّات فقط هي التي تمتد كحاجزٍ جغرافي بين عصرين.^{٤٩} إنه هو الآخر لا يطبق أبطال الجنس الذين ينظمون شعراً، لكنه يكره أكثر دعاة الأخلاق الذين يقدّمون معزوفاتهم بأعلى صوت؛ لأنهم أخذوا كفايتهم من كل الموبقات. وأسوأ هؤلاء هم طراز كولومبوس، الذين يدأبون على اكتشاف الجديد في المودة السائدة، بما في ذلك الأخلاق بين الحين والآخر. والناس الذين يعلنون نهاية الاحتشام لا يثيرون إلا ضحكاً، لكنه لم يكن يضحك، والواقع أنه كان جاداً للغاية كما كانت هي دائماً عندما أجابته ودافعت عن نفسها بل واشتدّ حماسها عندما قاطعها قائلاً: «ولكنك قلتِ ...» ثم كرّر ما قالته بصورة غير صحيحة. واصل الكلام، دون أن يعبأ بمقاطعتها له قائلة إن ما يعنيها هو الحقيقة وليس الأخلاق، وأوضح لها (صواباً) أن حُججها متناقضة، وأثبتت (صواباً) نفس الشيء بالنسبة إليه، وأمكنه أن يُقجم قولاً مناسباً بالكاد لماركس، ورأت عليه بتهديده يائسة والقول بأن المرء يستطيع بالاستشهادات أن يثبت أي شيء بما في ذلك عكسه، وللتدليل على ذلك ألقت عليه محاضرةً مرتجلة عن مركبّ النقص لدى المرأة؛ لا تستند إلى محمد أو شوبنهاور أو نيتشه، وإنما إلى ذلك المبجل من الجميع جوته (وبدافع الإثارة المحض كانت

^{٤٩} يقصد سور برلين الذي يفصل بين الرأسمالية والاشتراكية.

تعرف أبياته عن ظهر قلب): «ما تحبه النساء وتكرهه يمكننا المصادقة عليه، أما أحكامهن وتقديراتهن فهي دائماً لخبطة مؤسفة.» وجعله هذا يضحك لكنه أيضاً (للغربة) أثار معارضته، رغم أنه كان بوجه عام يهاجم في كل مناسبة مرض الاستشهاد بأقوال الآخرين، ناقضها وناقضته، وعارضها، وبدا كلاهما شديد الغضب. وكانا سيتبادلان الصياح بالتأكيد لو كانا زوجين. وحدث كل هذا بالليل، فوق سريرها العذري، والخمر تجري في دمائهما. زوج غريب من البشر.

نار ومياه.

كانت هي المياه بالطبع. فقد أطلق دائماً على خاصية الانضباط في النساء وصف البرود، وعلى احترام الذات التدبير الماكر — نقصد بمن فعل ذلك الرجال الذين يُسيطرون على أمثال هذه المجالات، والذين يؤمنون في أعماقهم بأن قوانين الزواج الأحادي لا تصلح إلا للنساء. إننا، بنعمة الرجل الرب، ذي التجربة الشهوانية، والروح المتقدة، نسجل هنا ونعلن أن هذه الفتاة ستصبح نديمتنا، زوجتنا الميرغنطية^{٥٠} زوجة اليد اليسرى، محظيتنا، زوجتنا الاحتياطية المؤقتة، عشيقتنا، ويترتب على ذلك، أنه في حالة خلوها من البرود، لن يحول شيء دون مباهاج الفراش.

أما الفتيات اللاتي ينفرن من الظهور بمظهر غير عصري يبدون فيه كالعنب البري، متحفظات، فهن دائماً طائعات. إنهن لا يستمعن إلى غرائزهن الأنثوية التي تُنبئنهن (من أجل ادخار شيء للمستقبل) بالألّا يبدأن بما يجب أن يكون الذروة، فيُسهلن الأمور على الرجل، ولا يطالبنه بشيء، ويدعن جلالته يهوي في أحضانهن، حتى لا يُخيبن الأمل وبذلك يخيبن الأمل فعلاً؛ لأنهن يحقرن من شأن أنفسهن، وينحططن بها إلى مستوى السلع التالفة، بدلاً من أن يقتدين بالآنسة برودر، التي لم يؤد رفضها إلى إخماد حبه وإنما جعله يتقد اتقاداً، مما أدى إلى تحويل صاحب الجلالة كارل المعظم إلى كارل إرب الأكثر لطفاً والمدرّك لحدود سلطانه؛ ولهذا اعترف بالعاهل المجاور، ومن ناحية الأمر الواقع والمشروعية، واضطّر في نهاية الأمر إلى تقديم فروض الاحترام الواجب لها. وافترقا دون أن يسوياً نزاعهما.

^{٥٠} الزواج الميرغنطي هو الزواج غير المتكافئ بين شخص من أسرة أوروبية نبيلة وشخص من طبقة اجتماعية أدنى مقاماً، تظل فيه منزلة الفريق الأدنى على حالها.

افترقا دون أن يصلا إلى حلٍّ وسط. لكن كلاً منهما كان واثقاً أنه ما زال أمامهما كثير من القول، ربما من باب الجدل.

وكان يجدرُ بذلك أن يثير لديه الشك.

فكّر في الأمر، لكنه وصل إلى نتيجةٍ إيجابية. وهذا ما يجعل من العسير تقييم هذه المغامرة؛ لقد كانت شيئاً إيجابياً، بالنسبة لها، وله، وللجميع (بالاستثناء المحتمل، محتمل: للأطفال). لقد استيقظ أخيراً بعد أعوام من السُّبات. وبينما كان يهبط السلم، ويعبرُ الفناء المغطى بالجليد، شعرَ بقدرته على معالجة القرارات التي تُواجهه، كافة القرارات، ليس فقط تلك المتعلقة بالأنسة برودر وإليزابيث والأطفال، وإنما أيضاً الأخرى، المرتبطة بالمكتبة. خطرت له المكتبة فجأة، وكان من السهل أن يتبينَّ السبب في ذلك؛ لأن برودر والمكتبة تنتمي إحداهما للأخرى، مثلما هو شأنُ إليزابيث والحديقة، وكما كان يتحدث للواحدة مراراً عن الأطفال وتشذيب السياج وإصلاحات السقف، سيُجادل الأخرى بالتأكيد حول كافة مشاريعه، مشاريعه التي دُفنت وابتُوي الآن التنقيب عنها؛ مكتبة الحديقة، قسم الموسيقى، التنسيق مع مكتبات المصانع، قاعة المحاضرات. لم تكن الخمر هي التي أمدّته بهذا العزم، وإنما الهزيمة التي بدت تُخفي في طياتها انتصاراتٍ قادمة، وجداله مع الأنسة برودر (ذلك النقاش غير الهام تقريباً والذي جرى من موقعين غير محدّدين، ونشأ بدافع من الرغبة الذكورية الطفولية في الانتقام، وكان المقصود به مداراة حرَج الموقف، لكنه أراه في الحقيقة أنه ما زال قادراً على المجادلة على قدَم المساواة، وأنه من المفيد التخلي عن السلوك الدكتاتوري المريح)، وإدراكه لأن ردود الفعل الدفاعية الجادة لم تتمكّن من قتل مشاعره.

لا شك أن هازلر سيفاجأ، هكذا فكّر وهو يتقدّم وسط موسيقى راقصة صاحبة من باب الشارع المفتوح. هناك وقف صبيٌّ يحمل راديو ترانزستور، برفقة اثنين آخرين بدوا جميعاً متطابقين؛ فقد كانت تسريحة شعورهم واحدة، وبالمثل أيضاً ستراتهم وسراويلهم، والحركات الإيقاعية التي كانوا يشجّعون بها أنيتا. كان ذراعها عند خصرتها وقد انحنت ركبتيها، وجعلت تهزُّ مؤخرتها وصدرها البديع، وواصلت الاهتزاز وهو يمرُّ بها ويطلب من السادة الشبان أن يُفْسحوا له الطريق. وهذا ما رفضوه، وهم يرفعون صوت الراديو وطققة ألسنتهم، حتى استسلم لحافز القيام بشيء، وحاول أن يشق طريقه بينهم. شعرَ بالرغبة (التي لم تكن تواتيه إلا في الأحلام) في تجربة معلوماته عن الملاكمة من أيام الشباب، لكن الفرصة لم تُتَح له؛ فقد أمسك به الصبية من يمين ويسار من معصميه وأعلى ذراعيه.

وفي أسر هذه القبضة الماثلة لأفاعيل الشرطة دفعوه بغلظة إلى الطريق. وتبعَهم أنيتا، مبيئة لهم أين يذهبون، متحدثة، تشرح أحياناً، وتُلاطف أحياناً أخرى، وتُهدد أحياناً ثالثة. امتد بهم الطريق خلال شوارع بيضاء خالية، لم يعلم بأهميتها التاريخية (الملاجأ اليهودي، نصب شاميزو التذكاري الذي ما زال يفتقد الأنف الضائعة في الحرب العالمية الثانية، حُطام معبد يهودي، منزل هومبولت، قبر هيجل، منزل بورزيغ) إلا فيما بعد وسرعان ما نسيها. ولم يُطلقوا سراحه إلا عندما بلغوا مركز شرطة متهدماً في الطابق الأول؛ حيث أبدى شرطي متعب تلهفاً على الاستماع لكل شيء على لسان هذه الشخصيات الواعدة. وطبقاً لدفتر الشرطة حدث هذا في الساعة الواحدة والدقيقة الثانية والثلاثين. ومضت ساعة كان إرب يبحث عبثاً فيها عن دور مناسب له. لكنه كان قد وعد بأن يكون هو نفسه بشكل تام!

حقاً، إنه في حضرة الأنسة برودر لم يعد يلعب أي دور، لكنه هنا رأى نفسه مضطراً إلى ذلك؛ لأن ذاته الحقيقية كانت مختلفة تماماً في ناحية ما، ولأنه كان في حاجة إلى ما هو أشبه ببديل يقدمه إلى مركز الشرطة بعد أن يزوده بتعليماته، لكن هذه التعليمات كانت متناقضة للغاية؛ ففي البداية احتجاج حاد، ثم استبدل هذا بموقف التفهم لواجب الشرطة التي لا بد لها وأن تستمع لكل ما يريد الشخص قوله، ثم الغضب واستخدام عبارات عن «الحرمان من الحرية الشخصية»، ثم الاستماع في صبر وتماكك للنفس إلى كافة الأكاذيب التي كانت ترويها أنيتا عنه وعن هدف عواطفه. وبمنظرة يائسة هز رأسه، وقد انتهت محاولته الهادئة لمقاطعة التدفق الأنثوي للحديث («هل يمكنك أن تصغي إليّ، أيها الرفيق اللوتنانت...؟») بابتسامة مستسلمة، وأخيراً، وقد استقرت رأسه المرهقة فوق يده، أسلم نفسه للانتظار.

لقد ثبتت هنا صحة تلك العبارة التي ترددها الصحف مؤكدة أن الوقوف موقف المتفرج فقط لا يكفي؛ ذلك أن إرب لم يستطع التأثير في الشرطة لأنه لم يكن بكل قلبه في الأمر. لكنك لا تستطيع أن توجه إليه اللوم على ذلك؛ فليس بوسعك أن تكون بكل قلبك في كل مكان في وقت واحد، وهناك في التحليل الأخير علاقة ما لهذا الأمر باختلاف الطباع؛ فبعض الناس يميلون بكل قوة إلى ملاحظة الأشياء، بما في ذلك ذواتهم هم، ولا يستطيع أي إنسان أن يقفز فوق ظله ولا حتى أولئك الذين يبذون قادرين على ذلك؛ لأنهم بلا ظل، بعد أن باعوه لإحدى الشخصيات السوداء.

لقد أعدت أنيتا انتقامها جيداً. كانت ملابسها بسيطة، لكنها تنطبق على مقاييس جسمها، وحديثها بسيطاً ومباشراً، واتهامها خطيراً، حبهته بنجاح. لقد تعلّمت الكثير من

باشكه؛ اللهجة القلبية الصريحة التي بها مسٌ من احترام للشخصية الرسمية، ومحاولة التزام الموضوعية التي تتخللها على فتراتٍ غير منتظمة انفجاراتٌ غاضبة بواعز الحماس للأخلاق، والإشارات إلى أوجه قصورها ونواقصها. وإلى كل هذا أضافت ما كان يفتقد إليه والدها المزعوم، جسداً شاباً وبراءة، كان لهما تأثيرٌ كبير بسبب تناقضهما، بسبب التوتر القائم بينهما، وهو توترٌ يأسف أي رجل (بما في ذلك رجل الشرطة) ألا أن يكون بوسعه إذابته في الحال. كانت هذه العذراء البالغة النضج عائدة، كما قالت، من أمسية هائلة في نادي الشباب عندما لاحظت هذا الرجل، وهو عضو في الحزب (نظرة إلى الشارة المثبتة في عروة سترته) ومتزوج (نظرة إلى خاتم إصبعه)، يتعثر خارجاً من الباب العمومي (وهو ثمل للغاية) متجهاً إلى سيارته، حيث صعد إليها وجلس خلف المقود ثم أدار المحرك، وكان سيسوقها متعباً لو لم يتدخل هؤلاء الشبان الثلاثة الممتازون وهي أيضاً («قبضوا عليه بالطريقة السلمية»)، وأحضروه إلى هنا. ربما لم يكن هذا من حقهم. لكن القيادة المخمورة («يكفي أن تشموا أنفاسه») جريمة خطيرة، أليس كذلك؟ وكل مواطن، بما في ذلك الشباب، من حقه وواجبه أن يحول دون وقوع هذه الجريمة، أليس كذلك؟ لكن هذا ليس هو كل شيء، هناك شيء آخر يصعب على فتاة أن تتحدث عنه لأنها لا تعرف الكلمات الملائمة، الصحيحة والمهذبة والرسمية، إنها لا تعرف سوى الكلمات التي تسمعها في المنزل وفي الشارع، لكن لا بدّ من قولها، وسوف تفهم الشرطة. لقد كان هذا الرجل في زيارة فتاة أو امرأة، أو أيّاً كان ما يتعيّن قوله، تعيش بمفردها في الجناح (ب)، تستأجر غرفة في مسكن السيدة فولف وليس هذا الرجل هو الوحيد الذي يزورها، بينما تقبّع زوجاتهم المسكينات في المنزل غارقات في البكاء بالتأكيد، لكن بالطبع هذا ليس من شأن الشرطة؛ لأن مغامرات الرجال المتزوجين بقدر ما تعلم، لا تقع تحت طائلة العقاب. أليس كذلك؟ إن أنيتا لا تفهم هذا؛ فالدولة هي التي تعقد الزواج وتنهيه إذا ما دعت الضرورة، وبالتالي يجدر بها أن تُشرف على سريانه، لكن هذا ليس هو ما يعينها هي وجيرانها؛ فما يثير قلقهم هو استمرار هذه الفتاة في سلوكها وسمعة المنزل والشارع، اللذين كانا يحظيان بسمعة سيئة في الماضي؛ ولهذا يجب أن يكون كل فرد على حذر، وحتى لو لم يكن يعرف شيئاً محدداً فإن تلميحا كهذا لن يؤذي أبداً، فإذا ما اتضح خطؤه، يكون هذا أفضل («وفي هذه الحالة، انس أني قلتُ شيئاً»).

كان هذا هو كل ما قالته، والآن على الرجل أن يحاول إنكاره. كانت سيارته ما تزال في مكانها، وقد غطاها الجليد بالطبع، فهو حتى لم ينظف زجاجها الأمامي. وخطت أنيتا

خطوةً إلى الخلف، وانضمت إلى رفاقها الصامتين، وبدا فمها جذاباً للغاية حتى وهو مُغلق، لدرجة أن التقريع بشأن تهوُّرها واندفاعها كان ودياً للغاية، ولم يُحدث دفاع كارل القصير عن نفسه إلا أثراً ضئيلاً. لم يكن هناك مجال للحديث عن العقاب؛ لأن كل ما كانت تريده هو تحرير مذكِّرة بالأمر، أن الفتاة المعنية تُدعى برودر، ولقبها هي باشكه، وها هي بطاقتها الشخصية.

«حسنًا، والآن يمكنك أن تذهبي إلى فراشك. طابت ليلتك.» كانت أنيتا على وشك الانصراف، بعد أن انحنت قليلاً في مرح، عندما حققت انتصاراً آخر غير منتظر؛ فلم يكن كارل يحمل معه بطاقة. كانت في حافظته التي تركها في المكتبة في الساعة السابعة عندما اعترضت أنيتا طريقه.

وبينما كانت ذات إرب الأخرى تقدّم ردود الأفعال، كان هو نفسه راقداً فوق فراش الأنسة برودر، يواصل النقاش، الذي أخذت أهميته بالنسبة لكليهما تتزايد في عينيهِ. ولما كانت الحُجج التي يسوقها لا يمكن الرد عليها الآن، فقد وجدها لذلك رائعة، وقيمة للغاية، ويجب لهذا ألا تبقى مجرد أفكار. لهذا لم تمضِ ساعات قليلة، حتى كان، بدلاً من النوم (وبعد حديثه مع إليزابيث) يسجّلها على الورق في خطاب، «الخطاب رقم ٢»، الذي كان يحمل تاريخاً وتوقيعاً لكنه بلا بداية، والذي يتألف فقط من شذرات أفكار لم يرتبها لأنه لا يمكن ترتيبها. كانت هكذا:

«إن أعظم الأحداث في الحياة قصيرة وفريدة؛ الميلاد والوفاة. فإذا خشي المرء هاتين الخاصيتين في الحب، ألا يعني هذا الخوف مما هو عظيم؟ إنها تحب كل ما هو واقعي والدُّوار العاطفي، كاليقظة، من الأمور الواقعية. يبدو لي أنها لا تُحبها، وإنما تخشاها.

هناك رغبة لا تتحقق أبداً، وهي أن تبقى الأمور على ما هي عليه. إنه لجدير بالثناء ذلك الذي لا يملك، عند رؤية المائدة المبسوطة، إلا أن يفكر في الفضلات، والصحاف المتسخة، والعظام المقضومة، والبُقع التي تلوّث غطاء المائدة. من النادر أن يلتقي المرء بشخص جدير بالمجادلة.

إن الحياة بالمعنى الحقيقي، الواقعي تماماً، لا يمكن أن تكون إلا الوجود الواعي في الحاضر. أيعيش على الإطلاق ذلك الذي لا يستطيع ممارسة ذلك، ويقف في مفترق الطريق بين الماضي والمستقبل دون خوف، دون دُوار، متناسياً التجربة والبصيرة؟

أُوجد من يتمتع بقدر عالٍ من الحكمة يحول بينه وبين الحب؟
أفضل دواء لعلاج الحب العظيم هو الاستسلام لأقل إغراء.
إنه لحدث؛ عندما يُدرك أنه كان قميئاً بأن يهتم أيضاً بما قالت، لو لم تكن امرأة.

حقيقة الجمال النائم: لقد أيقظت الأمير الذي أقام سياجاً بينه وبين العالم
من أجل السلام.»

كل هذا فُكر فيه خلال كلمة الادعاء التي أدلت بها (أنيتا)، بل وأكثر من ذلك، مما لم يضمنه الخطاب، مثل: كل محاولة للغواية تستند إلى أكذوبة. ولعل الأنسة برودر قمينية بأن تترجم «الأكذوبة» إلى «وهم»؛ وبالتالي تؤكّد نظريتها عن قصور المتعة الجسدية، لكن لعلها حدّست (وهذا أسوأ) ما كان يفكر فيه: إليزابيث؛ ذلك أن عدم ذكر اسمها على الإطلاق بينهما كان أكذوبة، أكذوبة تمت بواسطة الصمت المتعمّد؛ ففي حديثهما الليلي، لم تكذّر فقرة لم تخطر له فيها المرأة التي عاش معها أربعة عشر عاماً، على سبيل المثال أو البرهان أو الدحض.

لم يكن لديه ما يقوله بشأنها إلا كل خير، وقد شعر أن هذه لم تكن الفرصة الملائمة لذلك، لكنها كانت أفضل الفرص. وفيما بعد، كانت إيضاحاته تتسم فيما ندر بالتحفّظ، إنه لم يفترّ عليها أبداً بشيء، ولم يلقِ على عاتقها أبداً بالجريرة (التي لم تكن جريرتها)، وقد فعل ذلك بالتأكيد بدافع الأمانة، لكن ذلك الدافع أيضاً لم يكن بلا أسس تكنيكية (موجّهة ضد نفسه). كان السبب الأساسي لصمته في ذلك المساء، هو أن اسمها كان سيقع كالحاجز بينه وبين الأنسة برودر. وطالما أنه ما زال يأمل في الفوز، فلا بدّ أن يبقى الشعور بالظلم ضئيلاً قدر الإمكان، ولم يكن ليجرؤ على تجسيد الشخص المخدوع، فلا بدّ له من إعطاء المخادع الفرصة ليتخيل وحشاً، برجوازية صغيرة، جبلاً من الثلج، أو مريضةً بالشبق الجنسي، يُصبح خداعها عدلاً. كان يعرف أن صدور اسم زوجته من فمها سيكون أفضل وسائل الحماية ضده.

وَألم تُحدِس الفرويلانين الأربية ذلك؟ لماذا لم تسأله عن زوجته؟ لماذا لم تسأله عن الأطفال؟ لعلها لم تكن راغبةً في مثل هذا الدرع الواقى؟

كان إرب قد بدأ يُدير هذه الفكرة في رأسه عندما أعادته صدمة البطاقة الشخصية الضائعة إلى مركز الشرطة، مستلزمةً منه تفسيراً. وجعل الشرطي، بعد أن صرف أنيتا والصبية، يسير جيئةً وذهاباً وهو يُصغي إلى تفسيره. وبدأ أنه يصدّقه؛ فقد أصبح أكثر

وَدًّا، وقدّم لإرب السجائر، بل صنع له قهوة، وجلس إلى جواره. كان من نفس العمر، ضخّم الجثة، بعينيّ طفل وصوت مدرس، بدأ بمحاضرة عن الشراب أثناء القيادة،^{٥١} وأراه صوراً (شبكة تبريد محرك السيارة من خلال نافذة حانوت، أطفال موتى، رفراف مهلهل، حطام سيارة كامل)، وسَرَد على مسامعه اللوائح، وأحكام المحاكم، ثم انتقل بصورة ما إلى سباق السيارات، وثرثر مع القهوة حول كاراكيولا، براوشينش، شتوك،^{٥٢} متذكراً أرقام المتسابقين وتواريخها، لكنه في نفس الوقت انتقد أخلاقيات إرب بهدوء وشيء من الخجل، وهو يهز رأسه بحزن ... عضو في الحزب، وفي وظيفة قيادية، وبدون بطاقة! ماذا يُفعل به؟ لعله يستطيع الاتصال تليفونياً بمن يؤمّن على أقواله، لكن من، شخص من القسم الثقافي، حقاً؟ حسناً، هازلر، الرقم موجود في دفتر التليفون. هل هو من الذين ينامون نوماً عميقاً؟ لماذا لم يعد سباق السيارات شعبياً هذه الأيام، لكن من كان يعرف في الماضي أسماء متسابقى الدراجات؟ لم يكن يُسمح لأحدٍ من هؤلاء أو أولئك بالشراب فضلاً عن القيام بمغامراتٍ غرامية. كلا، لا أحد يردُّ على التليفون. لكن الساعة الآن النصف بعد الثانية، ماذا سيقول إرب لو لم تكن زوجته بالمنزل في هذا الوقت من الليل؟ لو أراد النصيحة، فإن الحقيقة هي الأفضل دائماً، اعترف وتعهّد بتحسين سلوكك! ماذا يرى في فتاة كهذه؟ ليست من هذا النوع؟ حسناً، الأمر سواء، بل أسوأ بكثير؛ فمثل هذه الأمور تؤثر على عملك. لو تخيل أن رئيسه على علاقةٍ بواحدة من السكرتيرات، كلا، كلا، حقاً! الحب؟ والآن لم يعد ليتنانت الشرطة يعرف ماذا يقول. اكتسى وجهه بتعبيرٍ رسمي، وأدار الرقم الذي كتبه له إرب، لكنه توقّف قبل آخر رقم. ثم أعاد المسماح: «وكيف تمضي القصة بعد ذلك؟»

إن لهذا الشرطي المجهول الاسم أثراً مؤكداً، لكن غير حاسم، على التطورات القادمة، لكن ليست بالمعنى المرغوب، وهو انتصار المبدأ الأخلاقي الذي يمثله. على العكس: حقاً أن إصبعه المحذّر قد أوضح الاتجاه المطلوب، لكن ذلك تم في الوقت الذي كان فيه الطائر محلّقاً، كما أن الإصبع لم يُعيّن الطريق السليم، ونتيجةً لهذا عجز الطائر عن تجنب الهاوية، بل بلغها بصورةٍ أسرع. إن نصائح هذا الرجل المستقيم المحايد بأن يتخذ كارل

^{٥١} تُعتبر ألمانيا الديمقراطية من أكثر البلدان صرامة في التمسك بلوائح المرور وعقاب المخالفين، ويتعرض السائق بها لفقدان رخصته إذا كان ثملاً، وفي المخالفات البسيطة يُجبر على الاستماع إلى محاضرة طويلة ممّلة عن أخطار التهور في القيادة.

^{٥٢} من أبطال سباق السيارات الألمان في الثلاثينيات.

طريق الأمانة، والحق، والاستقامة، قد شَجَّعَتْه على اتخاذ قرارٍ سابق لأوانه. وبالإضافة إلى هذا اكتشف أن وصفه لمغامراته تلك الليلة لم يُصَدَّق؛ فقد قال له الليتينانت: «إذن فقد قضيتُما الليلة تُناقِشان الكتب حتى منتصف الليل.» كان غاضبًا، وأخيرًا أدار رقم تليفون إرب.

١٠

مرَّ الحديث (من الرابعة إلى السابعة صباحًا) خلال مراحلٍ متعددة. افتتَحَ إرب إحداها بهذه الكلمات: «لستُ واثقًا إذا كنتُ قد أحببتكِ على الإطلاق.» إليزابيث: «لكنك تزوَّجتني.» – «لأنك أردتِ هذا.» – «هل قلتُ أنا ذلك؟» – «كلَّا، لكنني عرفتُ وأردتُ أن أَرْضِيكَ. وفضلًا عن ذلك، كان هناك جيرهارد. لقد عثرتُ بالصدفة على القصيدة التي كتبها إليك.» – «لم تكن له أبدًا أية أهميةٍ عندي، وأنتَ تعرف ذلك.» – «دونه كان بوسعنا أن نفترق من غير صدمة أو ألم، لكنني لم أكن أستطيع ترككِ له. الكبرياء والغرور، ورغبة التملك، أنت تفهمين.» – «هل هذا هو السبب الوحيد؟» – «الوحيد. كنتِ جميلة.» – «لماذا لا تعترف بأننا كنا نتبادل الحب؟» – «لأن هذا ليس صحيحًا، كان بوسعي أن أخونك في اليوم الثاني لزواجنا.» – «لكنك أَجَلْتَ ذلك اثني عشر عامًا، حتى الليلة، آه!» – «لقد خُنْتُكِ بالفعل في أفكاري وأحلامي مئات المرات. إننا لا نستطيع الحياة بمفردنا، هذا هو كل شيء، وبالصدفة بقينا سويًا، الوحدة، المصادفة، وشيء من الشفقة! لماذا ترفضين مواجهة الحقيقة؟ إنكِ تطالبن بالأمانة، لكنكِ لا تستطيعين تحمُلها. لقد أمكنكِ دائمًا أن تجدي طريقةً لتجنُّب مواجهة الحقائق، أو لتخفيفها بواسطة المشاعر.»

كان حقًّا يريد أن يكون أمينًا، أراد أن يثير كل ما كان مكبوتًا طوال اثني عشر عامًا، وقد خَفَّفَ عن نفسه الآن، وحزن لأن الأمر كان سهلًا للغاية. كان فخورًا بأمانته، لكنه أيضًا كان خجلًا؛ لأن الإساءة إليها كان مصدر متعةٍ كبيرة، ولأن التدمير المتعمَّد كان جزءًا من العملية. الأمل في أن يستطيع هو بسهولة أكثر التخلُّص من مشاعره إذا ما قتلها لديها. حاول أن يُحطِّم ما اعتبره في حاجةٍ للتحطيم، لكنه شعر أن صرحهما المشترك لم يتحوَّل بعدُ إلى حطام، وأنه لا بُدَّ من مواصلة التدمير، وتدمير الماضي أيضًا. كان لا بُدَّ من إنكار الحب الذي تبادلاه، وإلا اضطرَّ للاعتراف بأن هذا الحب قد مات في الطريق، دون قصد لكن ليس بلا جريرة. كان من شأن هذا الإقلال من عظمة حبه الجديد وأمانته، التي

أراد إبرازها، والتي من أجلها اضطر للكذب (الكبرياء والغرور ورغبة التملك، الوحدة، والمصادفة، والشفقة).

مرحلة أخرى: «والأطفال؟» - «سأكون رهن إشارتهما دائماً.» - «وهل ستطالب بضمهما في الطلاق؟» - «من الذي يتحدث عن الطلاق؟» - «أنا، هل هناك إمكانية أخرى؟» - «لا أعلم. لا بد لك أن تعطيني وقتاً.» - «من أجل ماذا؟» - «حتى الآن، أعلم فقط أنني أحبها، لكن هذا لا يعني أنك لم تعودى تمثّلين شيئاً بالنسبة لي. يجب ألا نتصرّف بعجلة، وحاولي أن تكوني متسامحة وصبورة، وانتظري قليلاً.»

«لست في حاجة إلى التسامح، أنا أحتاج إلى علاقة واضحة.» - «لأنك تُسهّلين الأمور على نفسك للغاية. إنني أتحمل الجريمة الأكبر، هذا حقيقي. لكن هل تؤمنين حقيقةً بأنك بريئة؟ ألا تذكرين بأي أمل بدأنا زواجنا؟ كم مرة دافعنا أمام أنفسنا، وأمام الآخرين، عن هذا الزواج بين أمناء المكتبات؛ مهام واحدة، واهتمامات واحدة، يمكن تبادل المساعدة، والانتقال يدًا في يد. وماذا آل إليه الأمر؟» - «وماذا يحدث عندما تُنجب الأنسة برودر طفلاً؟» - «أنا لا أريد أن أقلل من شأن جريرتي، أنا أريد فقط أن اقترح فترة للتفكير. أظننني أقل انزعاجاً منك؟ لكني لا أملك أن أفعل شيئاً آخر، الشيء الوحيد الذي أملكه لك الآن هو أن أكون أميناً.»

لم يكن بوسعه حقاً غير ذلك، كان لا بدّ له أن يكون أميناً وقد كان (بل أكثر من أمين؛ لأنه اعترف بوقوع شيء كان فقط يأمل في احتمال وقوعه)، لكن ليس لأن ضميره أمله عليه ذلك، أو أن الشرطة نصحته به، وإنما لأن إليزابيث سبّقتها (وجنّبته بذلك عذاب اتخاذ القرار) وأطلّعتها على زيارة هازلر (قبل أن يبدأ ما كانت تخشاه، وهو تقديم وصفٍ تفصيليٍّ لأُمسيّتها مع هازلر). لم تكن تبحث عن نصرٍ رخيصٍ عقب صمّتٍ غادر، وإنما كانت راغبةً عن وساخة الأكاذيب. وجلب لها ذلك نتائج سيئة؛ لأنه جرّد الحديث من البشاعة التي كان بوسعها أن تقضي على كافة مشاعرها نحو إرب. وكان من الأفضل لها بالتأكيد لو واجهت كاذباً بائساً، يتخلص من زيفٍ بآخر، يسعى جاهداً للفلو بثقتها، وينفخ من الغضب في مواجهة ارتيابها وسوء ظنها، أو يلتمس ملاذاً في الوقاحة.

لكن من يفهم إليزابيث؟ إن استعدادها للبكاء عندما تسمع صوت الأطفال في المذياع، وإمدادها حُجّاب غرفة المعاطف في حفلات الاستقبال بشطائر الكافيار، لا يعني أنها عاجزة عن التصرف وفق لحظةٍ مقرّرة. وربما كان الأمر هكذا: إنها لم تتخلّ بعدُ عن كارل، حالت دونه والكذب حتى تكون قادرةً على مواصلة حبه، ولعلها أيضاً أرادت أن تمنع الرابطة

الجديدة التي قد تخلّفها الأكاذيب بين كارل والآنسة برودر. كان الهدوء الذي أصغت به للأمر كله مدهشاً (وجارحاً لكارل). لم تصرخ أو تبكي، وظلّت هادئة هدوءاً طبيعياً فتراتٍ طويلة تاركّة كارل يتكلم، لكنها وجّهت إليه عدداً من الأسئلة الصريحة التي استثارت إجاباتٍ واضحة.

أمكنها أن تحتفظ بهدوئها لأنها كانت مستعدة، ليس فقط بواسطة هازلر وربع الاعتراف المنمّق الذي قدّمه كارل منذ أسابيع قليلة، وإنما أيضاً بذلك القلق الذي يصاحب كل حب، ويحتاج إخماده دائماً إلى تكرار يومي، وكل ساعة، لقسم الحب (مستحيل، ليس في حالتنا؛ فنحن مختلفون عن الآخرين)، لكنه لا يتلاشى أبداً، رغم أنه يتقلص بمرور الوقت، ويبدو كما لو كان قد هجع في غرفة جانبية بالروح. وقد يتم تناسيه في لحظات اليقظة، لكنه يضطرم من جديد في الأحلام، والليالي الوحيدة، عندما يكون الآخر بعيداً، أو في صخب حفل تنكري راقص حيث يؤدي فمٌ غريب بل وغير جذاب أو صدر ليس بأكثر جمالاً، إلى يقظة الانفعال، مذكراً بذلك الوقت الذي لم يكن فيه جسد الآخر بعداً مألوفاً كجسد المرء نفسه، وكان يستثير الرغبة، عندما لم تكن القبلّة في الصباح أو عند الافتراق أو عند اللقاء، أو بالليل، تُعطى بنفس الطريقة التي يمسح بها المرء حذاءه، أو ينظّف بها أسنانه، أو يدخن بها سيجارة ما بعد الإفطار. قد يختبئ القلق، لكنه لا يتلاشى، إنه يكتسي بمتاعب كل يوم، ويُعزل بواسطة الثقة والعادة، لكنه لا ينيّ يعود بلا دعوة، تزداد حدّته أحياناً حتى يتحول إلى شوقٍ عارم لهدوء الشيخوخة وخُلوها من الشهوة، أو يقدّم تنويعاتٍ غير محدّدة المعالم على موضوع الألم، يتحوّل أحدها فجأة، في الساعة الرابعة من صباح أحد أيام شهر نوفمبر، إلى واقع متجسّد. بهذا يكون المرء دائماً مستعداً، ولديه الشعور بأنه قد خبّر الأمر كله من قبل، فيعقد المقارنات، ويحاول أن يتذكّر، ويدرك أن الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ مما هي عليه، ولا يصرخ، ولا يبكي، ويحتفظ بهدوئه، بل ويهتم بمعرفة كيف حدث الأمر كله، بالرغم من الألم الذي لا يبلغ مداه الكامل إلا عندما تزول دهشتُهُ من معرفته بالأمر كله.

استمر الحديث، دون نتيجة، ساعتين، كتب بعدهما (كما لو أن الحديث لم يكن) «الخطاب رقم ٢». وكان بإمكان الحديث أن يستمر عشرين ساعة، وهو ما حدث في الواقع، وإن توزّعت على مدى الأمسيات القليلة التالية. كانت الصراحة التي انبثقت بينهما أشبه بنوبة من الحمّى، تُمارس وجودها في الأمسيات، عندما يستقر الأطفال في أسرّتهم، وينتهي تمثيل دور الأسرة، وفي غمار هذا الحديث، ازدادت معرفة كلّ منهما بالآخر بصورة لم

تتحقق من قبل، واعترف كلُّ منهما بتفاصيلٍ حميمةٍ كان من شأن الاعتراف بها قبل الآن أن يكون مدمرًا، وكان هو أساسًا الذي قام بهذه العملية (فهي لا تسمح لنفسها بالانطلاق إلا نادرًا)؛ لأنه أراد أن يحطّم الجسور (لكن ليس بصورةٍ كاملة؛ فقد كان يفضل أن يترك معبرًا ضيقًا لقدم) التي أرادت الإبقاء عليها في الوقت الراهن (وهو ما عجز عن ملاحظته). تحدثت وتحدثت، عن الماضي، الذي لا بُدَّ من إعادة تفسيره وتدميره، والذي يقع عليه عبء تقديم الأسباب، والدوافع، وأدلة الإثم. وتحدثت هي أقلُّ منه بكثير، عن المستقبل فحسب، الذي أرادت أن تتبينه من خلال الكلمات. تحدثت أساسًا عن أشياء عملية، وخاصةً عندما لاحظت أنه يتباعد عنها. على العكس منها، هي التي تعرف ما ينتظرها بعد الانفصال، كانت مسيرته تتجه إلى المجهول. فكَرَّ أنه يتركها في منتصف الرحلة، وهو أمرٌ سيئ، لكنه يتركها في محيطٍ مألوف لها. أما هو فسيلج نفقًا مظلمًا، لا يعرف إن كان له مخرج. «يجب أن نأخذ الأمر ببطء..» - «لماذا؟» هكذا سألتها وتحدثت عن المنزل والحديقة اللذين يَحْصَانها، وعن السيارة التي يستطيع أخذها؛ لأنها ستكلفها كثيرًا، لكنه لم يرغب في الاستماع إلى شيء من هذا كله، واستخدمه فقط ليتساءل عما كان يمكن أن يحدث لو لم يأخذ هذا المنزل، ولم ينجبا أطفالًا، وغيرًا وظيفتيهما، وتركنا برلين، وغير ذلك.

كانت هناك دموعٌ أحيانًا، وصيحاتٌ أحيانًا أخرى، وصمتٌ أحيانًا ثالثة، وفي أحيانٍ رابعة استيقظت الرغبة مثل الصدى المتأخر، ثم ماتت تحت وطأة التفرغ (من الذي أهمل الآخر جسديًا ومعنويًا، وذهنيًا، ومن الذي خدع الآخر قبل الكارثة بوقتٍ طويل؟) أحيانًا كانت تعتريه الكآبة عندما يفكر في الرحلات التي كانا ينتويان القيام بها (عندما يكبر الأطفال) أو الحديقة التي ستتحول إلى خراب عندما يترك المنزل وتلتحق إليزابيث بالعمل. وحاولت هي بضع مرات أن تكون مرحلة، وتساءل هو عن الوضع لو كانا من عشاق التليفزيون المُتَمِّين (كان هذا سيصنع رابطةً بينهما، ولن يكون ملحوظًا أبدًا أنهما لا يملكان ما يقولانه، وسيمكن تفسير التدهور البطيء في الرغبة؛ فكيف تُمارس الحب إذا كنت تشاهد البرنامج كل يوم حتى نهايته في منتصف الليل؟ وكان سيصبح مقيّدًا إلى المنزل، لا يُضَحِّي بساعةٍ واحدة في المساء من أجل أخريات، أو لو كانت الأنسة برودر من عاشقات التليفزيون؟ بعد أن يتناولوا العشاء سويًا، كانت ستحدّق إلى الشاشة من فوق كتفه، وما كانت أصغت إليه أبدًا، وكانت ستجد دائمًا عذرًا، وكان الحديث سيستحيل، وعندئذٍ لن يعرفها جيدًا؛ فدون الحديث ما كان وَقَعَ أبدًا في حبه). لم تجد إليزابيث الأمر فكها للغاية، وحاولت أن تبتمس، وتركته يتكلم، وأمسكت عن انتقاده (للتكرار المستمر في

حكاياته وآرائه، وامتداحه لنفسه دون خجل، وتحميلها كافة المضايقات، بينما لا يفترض أبدًا أن تكون شاحبةً أو حزينةً أو متعبةً)، وفكّرت في أوجه لومه لها؛ كون أن رأسها لا تضم سوى المطبخ والمهد وفراش الزوجية، هو أمرٌ غير صحيح تمامًا، وإنما به شيء من الصحة، لكن كيف كان يمكن أن تكون الأمور مختلفةً في ظل تقسيم العمل الذي أرادته؟ هل كانت الأمور اختلفت لو كانت التحقّت بالعمل، وجلّبت معها شيئًا من العالم الخارجي في المساء، لو كان لها ربما مُعجّبون؟ هل كان يمكن أن تحتفظ بجاذبيتها له مدةً أطول لو رأى أنها جذابةٌ للآخرين؟ هل يحتاج ربما للخوف من المنافسة، وهل كانت الطمأنينة مدمرةً لحبه؟ هل كان من الأفضل لها أن تكون ذات مهنةٍ أخرى، مهنة لا يفهم شيئًا عنها، حتى لا يشعر بالتفوق في هذا المجال أيضًا؟ لكن أما كان من شأن حشو الأمسيات بالعمل المشترك مع الأطفال وفي المنزل والحديقة أن يستنزفهما ويضعف البون بينهما؟ ألا يُعتبر عاملاً في الموقف أنها في السنوات الأخيرة أهملت ملابسها ووجهها وشعرها؟ إن إصبعًا واحدًا من أحمر الشفاه صار يكفيها عدة سنوات، وإنها تخلّفت عدة فصول عن المودة، رغم أنها لم تكذّ تلحظ ذلك في حياة الرهبنة التي عاشتها بين المنزل والحديقة. أكان يجدر بها أن تجرّب ذلك المُستحضر الذي أكّدت الإعلانات أنه يضمن صدرًا كاملاً وجميلاً؟

هل قالت هذا، وهل فكرت في ذلك؟

فيما بعد لم تعد تعرف، عرّفت فقط أنه تكلم بلا نهاية، هُراء، وأنصاف حقائق، وأشياء معقولة أيضًا، ولم يساعدها ذلك في شيء، وإنما ساعده هو. كان في حاجة إلى الحديث؛ لأن كل فكرة تظل دون تصريح، كانت تصيبه بالسقم، وتحرمه من النوم. كان في ذلك مثل الأنسة برودر تمامًا، لكن إليزابيث في ذلك كانت شريكًا سيئًا. أكان هذا فقط هو ما جعله يفضّل الأنسة برودر، أم هو شبابها، بشرتها، شعرها، أو ببساطة لأنها كانت جديدة، غريبة؟ في هذه الحالة هناك أمل، وبوسع المرء أن يركن إلى الزمن.

لكن هل هي رغبة في الأمل؟ لماذا إذن كانت ترسله بعيدًا؟

عندما تعلم أن عمليةً ما ضرورية، فإنك تسأل الطبيب ما إذا كان من الممكن أن تتم على الفور؛ لأنك تخاف من الخوف وتقلق من القلق. ربما كان الأمر كذلك، وربما ظننت أن الصدمة قد تكون فعّالة، مثلما تقول للطفل: حسنًا. اذهب إذن إلى المعسكر الصيفي، وسترى بنفسك كيف أن البقاء بالمنزل أفضل بكثير. لكن ربما بدا لها من المستحيل البقاء مع رجل رقد مع أخرى، ولعلها أرادت الانفصال حقًا لأنها حلمت فجأة بالاستقلال الذي تأخر نيّله؟ ربما. لكن من يفهم إليزابيث؟

لم يرها كارل حتى موعد الغداء. كانت تجلس بمفردها إلى إحدى الموائد على يسار المشى. وإلى اليمين جلست الأنسة زافاتسكي، والأنسة فسترمان، والسيدة إيزيلت، وكراتش، وريبولوس، تناولت السيدة إيزيلت حقيبة يدها من فوق مقعد مجاور، وأشارت لكارل بيدها أنه خال. وأبطأ هو خطاه ليكسب بعض الوقت، لم ترفع الأنسة برودر عينها. كانت تأكل حساء الكرنب وتقرأ في الوقت نفسه.

كانت هذه عادةً سخيفة أدت إلى اليأس بعددٍ من الناس قبل إرب (الذي كان ما يزال مستعداً أن يرى جاذبيتها). وأول هؤلاء الناس كان أمها، التي لم تكن قادرةً على التمسك بأداب المائدة في المطبخ الكبير (في مقدمة المسكن، حيث صارت السيدة فولف فيما بعد تطهو لمربي الحماص الصموت) لأن فيلهلم، زوجها، كان أقل اهتماماً بالشكل الخارجي منه بالمحتوى الداخلي (للرأس). ولهذا كان يشجع التهام الغذاء المادي والذهني في وقت واحد، ويقرأ بحسائه ولحومه عن الصراع على عرش الإينكا بين هواسكار وأناهوالبا، وسره أن يرى ابنته تحصل على متعة مزدوجة من المربي والفارسة ذات الكاب الأحمر، شرائح لحم الخنزير وعصاة تيمور، شطائر الجبن وفاوست. وهكذا كانت السيدة برودر تجلس في عزلة أمام المائدة، لا تتلقى سوى مهمة الاستحسان إذا ما استفسرت عن مذاق الأكل، ولم ير أحد الدموع التي أضافت الملح إلى نصيبها. وهكذا نرى من جديد الآثار الفادحة لسوء التربية؛ ففي سن الثانية والعشرين كانت تقرأ في مطعم الصحة البلدية، حيث ظنها كناسو الشوارع وعاملات النظافة، وسائقو عربات المياه، والعاملون في المغاسل وموظفو البنك البلدي، مجردة من الذوق، وشعر العاملون في المكتبة أن كبرياءهم المهني قد جرح لأن واحداً منهم يقوم بما هو محظور تماماً على مستعيري الكتب، وعن حق (بسبب خطر البقع). لكن الأنسة برودر لم تكن تنوي التخلي عن عادة طبيعية لديها، لمجرد أن الآخرين لا يقرؤونها. كان من شأن الطعام بلا كتاب أن يصيبها بالضجر، ولم يكن بوسعها أن ترى سبباً يمنعها من إطالة الوقت القصير المخصص للقراءة بهذا الشكل.

كان كارل من النوع الذي يتخذ قراراته ببطء، مما يعني أنه كان عاجزاً عن مواصلة السير إلى الأمام؛ توقف، وهو ما زال عاجزاً عن اتخاذ قرار بين المائدتين، وشعر أنه متعب للغاية، وحمل صحفته مائلة لدرجة أن الحساء الدهني سال من فوق الحافة. كان يرى إلى يساره شعراً، وكتاباً، وملعقة تتحرك بانتظام بينما كان يلقي بالتحايا يميناً إلى الوجوه الخمسة المتطلعة نحوه. كان يعرف أنه بعد هذه الثواني من الحيرة سيتعين عليه ببساطة

أن يجلس إلى جوار السيدة إيزيلت، وسمع ريبيلوس يقول شيئاً في صوتٍ مازح («مثل حمار بوريدان»، أو شيئاً من هذا القبيل). لكنه جلس إلى اليسار، في مواجهة الأنسة برودر، التي لم ترفع عينيهَا. وإلى المائدة المجاورة، كان كل شيء هادئاً. بدا أن طنين الأحاديث وقعقة السكاكين فوق المائدة الأخرى قد خَفَتَا. وشعر كما لو كان كافة آكلي الكرنب في الكانتين ينتظرون كلمته الأولى. وتَوَلَّدَ في رأسه، الذي لم يصفُ بعدُ من تأثير الخمر، أن يجعل زملاءه يعتدلون في أماكنهم بأن يقول: أمل أن تكون ساعات النوم القليلة كافية. أنا سعيدٌ سعادةً هائلةً برؤيتك ثانية. كم أنت جميلة! وجد صعوبةً في استدعاء عوامل الكبح الضرورية. وحدَّقَ إلى شعرها وقال أخيراً (بصوتٍ مرتفع للغاية): «شهية طيبة». أعادت هي ملمعتها، التي كانت قد امتلأت، إلى صَحْفَتِهَا، ورفعت عينيهَا، وأجفلت.

من المحتمل ألا يكون «الانزعاج» هو الكلمة المناسبة، ولا الغضب أيضاً، كان الأمر بين هذا وذاك، القلق ربما، أو الذعر؛ فقد كانت تتمنى أن يدعَهَا وشأنها خلال ساعات العمل، لا لأنها لا تُعجب بأحاديثها معه (كانت في الواقع تُعجبها للغاية)، ولكن لأنها أرادت أن تتجنبَّ الأكاذيب التي لا يمكن تجنبها إذا كان هناك من يصغي، والتي بدأت في الواقع على الفور بالموضوعات المتكلفة التي وجد نفسه مرغماً على الالتجاء إليها. منذ كان لا يستطيع الجلوس فقط والتحديث فيها. وكشأن المديرين الأكفء كان يتعيَّن عليه أن يحدثها كما يحدث موظفاً لديه أبلٌ من المرض، عن الأطباء، والأسلوب الصحي في الحياة («قبل كل شيء، النوم المبكر!») وعن عملها في المستقبل، وامتحاناتها، ومتاعبها المالية في نهاية العام، وكان لا بدَّ له أن يكون ودوداً، مهتماً، صريحاً. كانت مضطرة للإجابة والدارة مثله تماماً، لكن ليس بالقدر الذي يكفي لخداع فشرمان وإيزيلت وزافاتسكي، وكراتش حول المائدة المجاورة. أثارت اللهجة الواثقة للحديث خيبة أملهم، لكنهم لم يسمحوا أن يتم خداعهم. لم يوجهوا مزيداً من الاهتمام إلى الكلمات (التي لم يعودوا يفهمونها؛ لأن ريبيلوس بدأ يتحدث دون توقُّف، ولأن مجموعةً من كناسي الشوارع جلسوا في ضوضاء إلى مائدة الأنسة برودر)، لكنهم ركَّزوا انتباههم على عيون الاثنين، التي كانت ملتحمة بقوة، وعلى الملعقتين اللتين استقرتا في مكانيهما بلا حركة، وعلى حساء الكرنب الذي تجمَّد ببطء. وحدَّسوا جميعاً (فيما عدا ريبيلوس، الذي لم يكن يستمع مطلقاً إلى النميمة؛ لأنه لا يتوقف مطلقاً عن الكلام)، ما يدور بين الاثنين، وشعروا (بجرعات تتفاوت من شخص لآخر) أولاً بالعطف، وثانياً بمتمعة خبيثة، وثالثاً بالسخط على النفاق، ورابعاً بالقلق على الكارثة القادمة، لكن كلاً منهم فكَّر في شيءٍ مختلف. تمثَّلت فراو إيزيلت إليزابيث، وفكَّرت في السنتين اللتين كان

فيهما زوجها يقضي ورديات الليل بين ذراعَي إحدى العاملات على الروافع، وهي ورديات لم تجلب له أي أجرٍ إضافي، وإنما ثمانية عشر عامًا من الإنفاق على طفل. وشعرت الأنسة زافاتسكي، مثل كل السكرتيرات المخلصات، أن لها الحق في الشعور بالغيرة. وشعر قلب الأنسة فسترمان المجفف بالعطف على الأنسة برودر التي (كانت واثقة من ذلك) سيحدث لها مع إرب ما حدث لها هي نفسها مع فرد مانتك؛ سيصعد إلى أعلى، إلى المكتبة المركزية أو وظيفة في الوزارة، وستظل هي في المكتبة مثل الدرج أو الرف، وعندئذٍ سترتبت هي، لوزية فسترمان، على شعر الأنسة برودر وتدعوها بـ «طفلتي»، وتحدثها، وهي تشير إلى الفهرست، عن نتائج خبرة طويلة؛ السعادة الوحيدة الأكيدة تكمن في العمل.

أما كراتش فكان يفكر في الانتقام؛ فقد كان الشخص المخدوع، المعذب، الجثة المهجورة على الطريق والتي ستعبر فوقها عربة الحب ما لم يدافع عن نفسه. لكنه سوف يدافع عن نفسه، يجب أن يدافع عن نفسه، وليس فقط لأن الوظيفة ذات الأجر المجزي ومتع المدينة كانوا في مهب الريح، وإنما من أجل مبادئٍ أسمى، لم تكن أهمية برلين لديه تعود لذكريات عاطفية (كما هو الشأن مع الأنسة برودر) وإنما لأنها نقطة الانطلاق في نشاطه الفني الذي كان عازماً على أن يستقر بواسطته في النهاية فوق القمة الشامخة، واحدًا من مديري مسارح جمهورية ألمانيا الديمقراطية البارزين. أما في مدن الأقاليم، حيث تقدم الفرق المتنقلة مسرحيات أكلها «العتُّ»، مرةً في الشهر، فإنه لن ينجح، ولن يتمكن من تحرير نفسه من قفص المكتبة، هذا الملعف للكادحين العقيمين، السطحين، غير المبدعين، أنصاف المتعلمين، وأرباعهم. كان يحتاج إلى برلين بسبب مسارحها، وسوف يكافح من أجل مكانه في هذه المدينة بكافة الأسلحة، وفي اجتماع اللجنة النقابية الثاني سيقف مهاجمًا الدعارة «البرودرية»، وسوف يتكلم مع هازلر أو العمدة، وسوف يكتب إلى مدير الشؤون الثقافية في مجلس المدينة، أو في مجلس الدولة،^{٥٢} لكن بالطبع دون أن يكشف عن خطته، التي لن يُقرّها أحد، بعد أن استخلص لنفسه منحةً من الدولة طوال سنواتٍ ثلاث لدراسة علم المكتبات. وقبل أن أتركهم يحيلوني إلى جثة، سأخطو فوق جثثهم، هكذا أفكر، بينما كان ريبيلوس (كما لو كان هناك من طلب ذلك منه) قد شرع يشرح ما عناه بالحمار وبوريديان، وهو ليس اسم قرية أو بلدة أو بلد، كما قد يتبادر إلى ذهنك عندما تتذكر حصان طروادة،

^{٥٢} مجلس الدولة في ألمانيا الديمقراطية لا يشبه في شيء مجلس الدولة عندنا؛ فهو بمثابة مجلس الرئاسة، ورئيسه هو رئيس الجمهورية.

ولا اسم مبنى مثل الكابيتول بأوزانه الشهيرة، التي، على خلاف الحصان، أنقذت المدينة (روما) بدلاً من تدميرها (طروادة)، رغم أن كل هذا بالطبع ليس إلا أساطير كما هو شأن قصة مرضعة مؤسس روما، تلك الذئبة العجوز، التي كان لها بالطبع وظيفة دعائية كما هو شأن الزعامات بين الحيوانات، وأليس هناك مغزى في أن الحيوانات القائدة كانت في المجتمعات الطبقية وحوشاً مفترسة أساساً، ولم تكن حماماتٍ مسالمة، أو ماشيةً وجياداً وأبقاراً نافعة، ولا كانت من صنف الحمار، الذي لا نصادفه عملياً اليوم في الحكايات الأسطورية إلا وهو ينهق في وجه القمر، أو في الإنجيل حيث دخل المسيح بيت المقدس على ظهره، أو حيث نطق حمار بلعم عندما خرب ظملاً لأنه رأى أكثر من سيده، وهو ما كان يمكن أن يجعل منه رمزاً للمثقفين لولا أنه صار من قديم مرادفاً للغباء، ظملاً بالتأكيد؛ الأمر الذي لا بدّ كان يعرفه مبتدعُ عبارة Pons Asimorum،^{٥٤} وأيضاً مسيو بوريدان، والأفضل أن نقول بوريدعن، بعد أن تضغط على المقطع الأخير وننطق النون أنفية، الذي لا تُعالج قصته عن الحمار موضوع الغباء، وإنما تتناول مشكلةً فلسفية، رغم أنه لم تتضح بعدُ الضرورة التي حثمت الحمار بدلاً من بومة هيجل أو جواد أفلاطون، فضلاً عن الحيوانات المقدسة لكافة الديانات التي لو تجمعت كلها لكانت النتيجة حديقة حيوان كاملة، وصفحات أخرى رواها ريبولوس عن الحيوانات والرجال والطبيعة والمجتمع، يمكن حذفها هنا طالما أن لا علاقة لها بإرب، أو باستخدام مثال الحمار في حالته.

والأفضل هو أن نتوقف عن الإصغاء بعض الوقت، مثلاً يفعل زملاؤه حول المائدة، وأن نتحوّل إليه عندما يرد ذكر كلمة الحمار الهامة. وفي هذه الأثناء نستطيع أن نذكر كلمات قليلة عن الرجل الذي يدين له هذا الكتاب بالكثير أعني العنوان، والذي كان جديراً بأن يكون الشخصية الأساسية في رواية عن أمناء المكتبات، أو بطلاً لمسرحية أو مأساة تبدأ في مصحة للأمراض العقلية و(بقليل فقط من المبالغة) تنتهي أيضاً بها (إن الرخصة الشعرية تسمح بأمور كهذه في سبيل إدراك حقيقة أعظم، بينما يتعين على تقريرنا هذا أن يلتزم الواقع الممل) وتمضي هكذا: ريبولوس، واسمه الأول لورين، من النوع الضئيل، طويل ونحيل، بفمه فجوات أكثر مما به من أسنان، عامل مجارٍ سابق، علّم نفسه بنفسه، طالب مكثبات في العشرينات، متحمس لشعار «المكتبات من أجل الشعب»، بكل ما في الكلمة من معنى، ونتيجةً لهذا (بوسعنا أن نضيف: مرغماً) ضحية للمرض المهني المناسب، مرض

^{٥٤} معناها جسر الحمير أو اختيار عسير.

الثقافة المتعددة الجوانب أو جنون الشمولية، الذي لا يظهر، طبقاً لآخر الأبحاث، إلا عندما يُضاف إلى الذكاء فوق المتوسط حماسٌ فتّيٌّ دائم (وهو الأمر النادر)، وينتج عن ذلك شخصٌ ذو رسالة في ميدان التعليم العام، شخصٌ يشعر بأنه ملتزم ألا يتخلى أبداً عن أمّله الجنوني في أن يعرف كل شيء عن كافة الكتب التي يقوم بإعارتها للآخرين. حياة ريبيلوس تقدّم كثيراً من الأمثلة عن مزايا وعيوب المعرفة المتعددة الجوانب؛ فبسبب عنايته الرعوم بالكتب التي تُصادَر فجأة، أعاده أصحاب القمصان السوداء^{٥٥} إلى المجاري من جديد، ودلّته معرفته يكتب الأمراض النفسية على وسيلة الهرب من الجيش النازي في مستشفى عقلي، بينما، من الناحية الأخرى، أوقعت به قدراته البارزة في فنون الفهرسة وغرامه بها؛ فقد عهد إليه أحد أطباء النازي الماكزين بمسئولية مكتبة المستشفى، ثم كشف عن تمارّضه بدليل الفهرست المتقن الذي أعده. وفي البحر الأبيض المتوسط أنقذت دراساته في الملاحة البحرية حياة الجنود الذين هربوا معه من إحدى فصائل التأييد في قارب. واجتذب النظام الجديد الذي كان يحتاج إلى المعرفة وينتفع بها؛ دائرة المعارف المتحركة المعادية للفاشية هذه من فرع المكتبات إلى نشاط انطلق فيه كالشهاب، حتى استقر في الإدارة المركزية. وهنا كان واجبه أن ينظّم عملية إزالة مخلفات النازية من المكتبات، وهي مهمةٌ قام بها بدقة لا تكِل، كانت السمة الوحيدة لها التي لم تطب لرؤسائه الأقل خبرة، هي البطء. ولما كان عاجزاً عن ممارسة التطرف السطحي، ولأنه وقع أكثر فأكثر ضحيةً لمرضه، فقد بدأ سقوطه البطيء والمشرف. وتضمّنت درجات السلم وظيفه رئيس مدرسة المكتبات، محاضر (وهي الوظيفة التي أشعل فيها عبقرية إرب المهنية، لكنه كاد يطفئها ثانية بفيض معرفته غير المنتظم)، محرر الصحيفة النقابية، ومدير إحدى مكتبات الفروع في العاصمة (تحت رئاسة إرب). وقد وقع هذا كله دون أن يقضي على أوهامه في الشمولية وهذا من حسن حظّه، كما فكر إرب، وإلا كان من المحتمل أن تنتهي حياته بالذبحة الصدرية أو في مستشفى للأمراض العقلية.

قال إرب، عندما مكّنت ضجة كنّاسي الشوارع من إجراء حديثٍ خاص: «هناك عفريت يطارد مهنتنا. إنه عفريت الموسوعية السطحية، الذي يدمّر الأفضل، والأفضل فحسب، الأفضل فقط، ما لم يهربوا منه إلى أعلى؛ أي إلى العمل الإداري، كما فعل فرد مانتك، أو

^{٥٥} النازيون.

جانِبًا إلى مِهْنٍ أُخْرَى، أو إلى أَسْفَلٍ إلى فَنِّ المَكْتَبَاتِ، دون أيديولوجية ودون فكر، مثل الأَنَسَةِ فِستَرَمَان، أو إلى الاستقالة.»

قالت الأَنَسَةُ برودر: «مثلك»، وهي تقصد بالطبع انتقاده، لا لأنها تمرَّست على طريقة في التفكير تُقَرُّ بالتَغْيِراتِ، وَفَقًّا لِمَنْظُورِيَّةٍ تَعْتَبِرُ كُلَّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ شَيْئًا مُصِيرَهُ الاختفاء، كخُطْوَةٍ أَوَّلَى نَحْوَ الأَعْلَى والأَرْقى. تَعَلَّمَتْ أَنْ تَفَكِّرَ بِصُورَةٍ مُتْرَابِطَةٍ مُنطَقِيَّةٍ، مُتَفَهِّمَةٍ لِلصُعُوبَاتِ كَجُزءٍ مِنْ شَيْءٍ أَعْظَمَ، وَبِالتَّالِي أَكْثَرَ طَوْعًا لِلْمَعْرِفَةِ، وَتَعَلَّمَتْ أَنْ تَمْلِكَ حِمَاسَةً مَزُودَةً بِشَعَارَاتٍ قَادِرَةٍ عَلَى قَهْرِ كُلِّ مُشْكَلَةٍ. وَفِي حَالَتِنَا هَذِهِ كَانَ الشَّعَارُ الْمَلَأَمُ هُوَ التَّكْنُولُوجِيَا وَالتَّخْصِصُ. وَقَدَّمَتُهُمَا الأَنَسَةُ بِرُودَرِ كَنْقِيضٍ لِلِاسْتِقَالَةِ، بَيْنَمَا أَنَّ إِرْبَ (وهو مَا حَدَثَ مَرَارًا وَضَائِقِيهَا) قَدْ هَجَرَ مُسْتَوَى الْجَوْهَرِيَّاتِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّطْبِيقِ وَالْمَاضِي، وَإِقَامَةِ مَكْتَبَاتِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ غَيْرِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ (مِمَّا يَمْنَعُ إِدْخَالَ التَّكْنُولُوجِيَا وَالتَّخْصِصِ) فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتِمُّ فِيهِ إِلْغَاءُ مَدَارِسِ الْفَصْلِ الْوَاحِدِ.^{٥٦} وَأَدَّى هَذَا بِالْأَنَسَةِ بِرُودَرِ (رَغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ تَشَارِكُهُ آرَاءَهُ) إِلَى أَنْ تَصْبَحَ عُدَوَانِيَّةً بِشَأْنِ مَسَاوَاةِ الْمَدْرَسَةِ بِالمَكْتَبَةِ، وَهِيَ الْمَسَاوَاةُ الَّتِي لَمْ تَتَأَكَّدْ صَحَّتُهَا بِكَثْرَةِ تَرْدِيدِهَا. شَعَرَ إِرْبُ فَجْأَةً بِالشَّيْخُوخَةِ، وَفَكَّرَ. الْجِيلُ الْجَدِيدُ. شَعَرَ أَنَّهُ يَرِيدُ الْحَدِيثَ عَنِ الْيَوْمِ الَّتِي أَعْقَبَتْ عَامَ ١٩٤٥، عِنْدَمَا قَامُوا فِي مَنْظَمَةِ الشَّبَابِ، وَدُونَ مَجَادَلَاتٍ فِكْرِيَّةٍ مَعْقَدَةٍ؛ أَيْ عَرَاةِ الصَّدُورِ، بِاقْتِحَامِ مَعَاقِلِ الْبُورْجُوزِيَّةِ بِحِمَاسٍ مُلْتَهَبٍ، وَمِنْ أَجْلِ مَنْ؟ بِالتَّأَكُّيدِ مِنْ أَجْلِ الْجِيلِ الْقَادِمِ، مِنْ أَجْلِ الأَنَسَةِ بِرُودَرِ مِثْلًا، الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ قَدْ عَرَفَتْ بَعْدُ جَدُولَ الضَّرْبِ، بَيْنَمَا الْآنَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِابْتِسَامَةٍ مُتَعَالِيَّةٍ، لَكِنَّهُ أَغْفَلَ هَذِهِ الْمَرَّةَ ذِكْرِيَّاتِهِ الْوَعْظِيَّةَ. وَبِدَلًا مِنْ ذَلِكَ تَكَلَّفَ مُشَقَّةَ (شَيْءٍ لَمْ يُعَدِّ يَأْلَفُهُ) مُحَاوَلَةَ التَّفَكُّيرِ عَلَى نَفْسِ الْمُسْتَوَى الَّذِي يَفْكُرُ عِنْدَهُ الْآخَرُونَ، وَاكْتَفَى بِأَنْ يَتَحَدَّثَ مِنْ حَيْنٍ لآخر عَنِ التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ، الَّذِي يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَمَّا كَانَتْ تَدْعُو إِلَيْهِ مِبَادِئُهَا.

وَمَرَّةً أُخْرَى تَطَوَّرَ الْأَمْرُ إِلَى مَجَادَلَةٍ طَرِيفَةٍ، جَعَلَتْ الْكِنَاسِينَ يَهْزُونُ رِءُوسَهُمْ، وَالْمُرَاقِبِينَ حَوْلَ الْمَائِدَةِ الْمَجَاوِرَةِ (بِاسْتِثْنَاءِ كِرَاتِش) تَنْتَابُهُمْ بَعْضُ الشُّكُوكِ فِي صَحَّةِ الْإِشَاعَاتِ، وَأَغْرَتِ الْمَجَادَلَةُ هَاسِلِرَ^{٥٧} (الَّذِي لَمْ يَأْتِ إِلَّا لِيتَحَدَّثَ إِلَى إِرْبَ) بِأَنْ يَجْلِسَ فِي

^{٥٦} نِظَامُ تَعْلِيمِي كَانَ سَائِدًا فِي الْقُرَى الْأَلْمَانِيَّةِ فِي بَدَايَةِ الْقَرْنِ، وَصَارَ الْآنَ اصْطِلَاحًا يُشِيرُ إِلَى التَّعْلِيمِ الْمُتَخَلَّفِ.

^{٥٧} فِي الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ وَرَدَ اسْمُهُ: هَازِلِر. (النَّاشِرُ)

هدوء، ويتناول حَسَاءه، ويُصْغِي بينما كان يجلس ريبولوس يعود (عَبْرَ ألواح المسلح المثقبة المستخدمة في البناء، وفلزمات فحم الإنتراسيت) إلى الحمار؛ حيث كَرَس نفسه بتوسيع لإمكانات تهجين الجياد وحمار الوحش، وبذلك ظل — كما هو واضح — بعيداً إلى حين عن إرب.

لم يكن هاسلر سعيداً؛ فقد حَرَمَه قلبه من النوم بقية الليلة، وآلمه الجزء الباقي من ساقه العرجاء كما يحدث عندما يُرْهِق نفسه. لكن أسوأ ما في الأمر كان عدم ارتياحه لمجيئه بهدف الحديث إلى إرب، وهو ما قرَّره خلال الليل، رغم أنه كان يُدرك أنه من الأفضل أن ينتظر بضعة أيام. وقد ازداد هذا وضوحاً عندما رأى الاثنین يجلسان سوياً ويتجادلان دون خجل. شعر بثورة من الغضب لا مبرر لها وغير موضوعية، نحو كارل، الذي جرَّه إلى هذا كله.

كانت لديه مبررات كافية للغضب ولا بُدَّ لنا أن نوَّكد بإعجاب الطريقة التي قمع بها غضبه، والطريقة التي أمكنه بها، في ظل هذه الظروف، أن يتعرف على حدة الآتسة برودر في النقاش. وليس هناك إذن ما يدعو للدهشة في أنه عندما انفرد بإرب، لم يتمكَّن من العثور على اللهجة الودية التي يستخدمها معه عادة.

كان كارل أكثر منه هدوءاً. سأله: «اعتراف، مجمع مقدس، أم الحرمان الفوري؟ أيها سيكون الأمر؟» لكن هاسلر تجاهل كلماته وتحدَّث حديثاً مباشراً وخشناً.

«هل تنوي أن تقوض نفوذك بأي ثمن؟ إن الجميع يعرفونك.» فقال كارل: «الجميع عداي.» وهو ما أساء هاسلر فهمه. «كان يجدر بك أن تكون قد تجاوزت دور المراهقة الآن!» — «بماذا تتهمني؟» — «أولاً، إنك تخدع زوجتك.» — «هذا شيء لا يعنيك.» — «أتظن هذا حقاً، أيها الرفيق إرب؟» — «والأمر الثاني؟» — «ليس الثاني؛ فهما شيء واحد. إنك تنتهك واجباتك كموظفٍ مسئول.» — «تريد القول إنني أُسيء استخدام حقوقتي، لكنك وافقتَ على قراري في موضوع برودر.» — «لأنني لم أكن أعلم بما يدور بينكما.» — «هل تبينَّت فجأةً خطأ هذا القرار؟» — «في هذه الظروف، أجل.» — «هذا يعني أنك تعرف أنها الأنسب؟» — «حتى ولو كانت كذلك عشر مرات، ما كان يجب أن يكون القرار لصالحها في هذه الظروف.» — «لا أوافق.» — «إذن فلا بُدَّ من رفع الموضوع كله إلى الجهات العليا للفصل فيه.» — «هذا يعني أنك تهدد ولا تناقش.» — «بودِّي أن أساعدك. إلى أين سيؤدي هذا؟ ليس في الإمكان تغطية الموضوع، فسوف يتكفَّل كراتش بإثارته. وهناك إمكانيةً واحدة فقط لتسوية الأمر دون توضحياتٍ ما، وهي الصراحة. يجب أن تعلن للعاملين جميعاً أن

الإشاعات غير صحيحة.» - «لا أستطيع أن أفعل ذلك.» - «تستطيع لو عدت إلى رشدك.» - «العودة إلى الرشد عندك معناها: الأخلاق والنظافة والدمائة، أليس كذلك؟ لكن السؤال هو ما إذا كان هذا صحيحاً.» - «ليس هناك من سبيل آخر لتجنّب الفضيحة دون تضحية.» - «بدون شك الاعتراض الوحيد هو أنك لا تفهم أن الأمر بالنسبة لي أكبر من مجرد تجنب الفضيحة.» - «إذن فالأمر على هذه الدرجة من السوء؟» - «أجل أنه على هذه الدرجة من السوء.» - «لكن إلى أين سيؤدي كل هذا؟» - «أعطني بعض الوقت.» - «بكل سرور، لو كان الأمر يتوقف عليّ، لكنني أخشى أنه ليس كذلك.» - «سأتجنب كل ما من شأنه إثارة الشائعات.» - «لو أن المدرسة وقسم شئون العاملين لم يخطرا بعدُ بالأمر، سأحاول تغيير القرار الخاص ببرودر» - «لن أسمح بهذا. أفضل أن أذهب أنا نفسي.» - «لحسن الحظ أن الأمر لن يُترك لك لتقرّره.» - «أرجوك أن تعطيني بعض الوقت.» - «هل تريده من أجل نفسك؟» - «أجل.» - «حسنًا. لكن لا تنس الأطفال في حساباتك.» - «وداعًا.» - «وداعًا.» - «وداعًا.»

وهذه الأخيرة كانت صادرة من عمال النظافة، وهم ينطلقون إلى الخارج، هارسين في قوة نفايات الجليد. كانت المائدة المجاورة قد صارت خالية، وكان هاسلر أيضًا على عجل. وتساءل أحد عمال المطبخ الذي عكف على تنظيف الموائد، عما إذا كان حَسَاء الكرنب لم يُعجب إرب. ثم عادت الأنسة برودر لتأخذ كتابها، وأثنت على إرب لأنه لم يسُق سيارته بعيدًا في الليلة الماضية. واقترح إرب أن يقوم بزيارة قصيرة لها، خاصة وأنه زاهبٌ على أية حال ليأخذ سيارته، لكنها هزّت رأسها، وقالت شيئًا عن برودة الحجرة، والنوم المبكر، وانصرفت. وانتظر إرب بضع دقائق قبل أن يتبعها، وشعرَ ببطولة فائقة لأنه لم ينصرف معها.

وماذا حدث لقصة الحمار؟

عندما قال ريبولوس للآخرين في الخارج وداعًا، كان قد اقترب (عبر أشعة الليزر وتربية الماشية في حظائر مفتوحة) من الموضوع، حتى وصل إلى السكولاستية.^{٥٨} ولعلّه شرح التشبيه بينما كان يأخذ طريقه إلى مكتبة الرجل الواحد التي يعمل بها. لكننا لا نعرف هذا. وعلى أية حال فإن الحمار ظهر مرةً أخرى في ذلك اليوم. فعندما بلغ إرب أخيرًا

^{٥٨} هي الفلسفة المسيحية التي كانت سائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة وتستند إلى المفهوم الأرسطي، وتحاول إخضاع الفلسفة للاهوت.

(بعد أن تسلق أولاً البوابة المغلقة للمقبرة اليهودية القديمة، وداس على الجليد مقترباً من الشاهد الحجري الجديد للعالم اليهودي العجوز؛ حيث وقف مدة طويلةً بقدمين باردتين يتطلع إلى نافذة برودر) سيارته، قرأ العبارة المناسبة التالية محفورة في الجليد المتجمد على ظهرها:

«إذا قرأتَ هذا، كنتَ حمارًا أبله!»

١٢

على حافة منطقة باردة من الضغط العالي فوق بولندية، انتشر الهواء المعتدل القادم من الجنوب فوق ألمانيا. فأذاب الجليد وحوله إلى مياهٍ وسخة انسالت إلى المزاريب والبالوعات، وغرقت في الرمال، ورفعت مستوى المياه في نهر شبريه عدة سنتيمترات. وغطى المدينة بسحب زادت من طول الظلال في كلٍّ من الفجر والغسق. ورفع من معنويات منظفي الشوارع وحراس الحدود، وجعل الأطفال حزانى. وأعطى لزيئة الكريسماس في نوافذ الحوانيت، مظهرًا مناقضًا وخفض من استهلاك الكهرباء، وأعطى لملك أكواخ العطلات فرصة أخيرة يستعدون فيها للشتاء. وبدت صيحات النورس بين حديقة الحيوان ومتحف ميركيشيز أقل جوعًا، ونشطت طيور المدينة (الغربان والسمنات والحمام والعصافير) فوق المنتزه المحيط بتمثال شاميزو المجرد من الأنف، واختفت قبعات الفراء من الشوارع مرة ثانية إلى حين، وتبدت للعيان سيقان الفتيات، وأصبح بوسع السيدة فولف أن تُثرثر مع السيدة جيورنج ساعة كاملة على السلم دون خشية التجمد، واعتمد باشكه (وقد التحف بلفاع من الصوف، وغطى رأسه بكاب ساعي بريد عتيق الطراز) على قاعدة نافذته المفتوحة، مراقبًا وصول كارل، أما كارل (فلأنه لم يكن قادرًا على القراءة والكتابة أو الاستماع للراديو) فقد عكف على العمل في المنزل والحديقة كل مساء وخلال عطلة الأسبوع (ما لم يكن مشغولًا بالنقاش مع إليزابيث) وحاول أن ينسى الانسة برودر.

أو بعبارة أخرى: لما كان العمل الشاق في المكتب كفيلاً بطرد أحلام السعادة التي تدور حول الطابق الرابع الخلفي، ولما كان يُسعدُه أن يستسلم لعريضة الخيال، فقد كرّس نفسه للأعمال اليدوية التي تسمح بشيء من الالتباس، وتربط الجميل بالمفيد؛ الأمر الذي هيا له ضميرًا هادئًا رغم أحلامه الحافلة بالمذات، ولم يكن في هذا من قسوة إلا بالنسبة لإليزابيث، التي لم تكن في ذلك الحين تعرف ما إذا كان يجدر بها أن تأمل في عودة الأوضاع القديمة أو تخشاها؛ فبينما كان يُصلح نوافذ السندرة، ويُثبت ممرات التفتيش الخشبية التي

تربط بين المداخن، وينظف المزاريب، كان يفكر في شعر الأنسة برودر وعينها وحاجبيها والأصابع التي تداعبها بها، وكانت إليزابيث تتساءل عما يدعوه للاهتمام بالسقف إذا كان سيهجرها. أصلح الستائر الفينيسية، وزيت النوافذ الجرداء، وثبت قطع الخزف، وفي خلال ذلك كان يراقب الأنسة برودر تخطو من المقعد إلى الموقد بطريقتها التي يتعسر تقليدها، وينظر إلى جانب وجهها، وخذها على الخزف، وعنقها الذي انزلق إصبغه فوقه، وأدركت إليزابيث الموقف؛ إنها علامات الاستقرار. جعل يقلب كؤم النفايات التي ستستخدم في تسميد التربة (هل سيكون هنا في الربيع، عندما تنشأ الحاجة لهذا السماد؟)، وقلم أشجار الفاكهة وشذب أطرافها (هل يفكر في حصاد التفاح القادم)، وقطع الأخشاب، وكوم قوالب الفحم، وغطى الورود، وطلّى منزل كاتارينا للعبة، وثبت دولاب دراجة بيتر، وهو يصغي طول الوقت لحديث الأنسة برودر مبتدعاً إجابات ذكية، شارحاً لها ما يفعل (إن سكان المدينة أمثالك لا يعلمون أن النفايات يجب أن تقلب مراراً وتكراراً بقدر الإمكان، وأن طلاء اللاتكس يمكن تخفيفه بالماء، وأن هذه طريقة للتجويل بظهور البراعم، وإذا لم تفعل ذلك فإنها تتآكل)، بل إنه خاطبها بصيغة «أنت» الحميمة، لكنه لم يتمكن من التلطف باسمها الأول، وفكر في أسماءٍ لتدليلها لكنّ واحداً منها لم يصلح، وتساءلت إليزابيث لماذا يعود إلى المنزل فور انصرافه من العمل دون إبطاء ولا يذهب إلى الفتاة برودر. أجل. لماذا، حقاً!

لأنه أراد أن ينساها.

كانت هناك بلا شك لحظات (وخاصة في الصباح، في الدقائق الخمس الفاصلة بين جرس المنبه ومغادرة الفراش) تمنى فيها حقاً أن ينسى، لكن هذا هو كل ما هنالك؛ فهو لم يتمكن على الأقل من إقناع نفسه بأنه يبذل حقاً محاولة شجاعة للارتداد عن الحب المحرم بتجنُّبه لأسابيع الشوارع الواقعة شمال جزيرة المتحف، بل وامتناعه عن البحث عن الأنسة برودر بعينه، ومعاملتها مثل فسترمان أو إيزيلت أو كراتش الذي كان يترصده دائماً. كان يدرك جيداً أن هذا التحفظ من جانبه يرجع إلى بقية من حُسن التدبر. ومن بعض المهارة الغريزية. وكان بوسعه مشاهدة النتائج؛ فقد صار كراتش عصبياً وتورط في قليل من البذاءات التي خطأته، وماتت الشائعات عندما لم يقع ما يغذيها، ولم يفقه هاسلر بكلمة واحدة عن الأمر رغم أنهما كانا يجلسان سوياً كل يوم تقريباً، منذ كان من الضروري الموازنة بين التعديلات التي أدخلها إرب على الخطة السنوية (والتي ولدت على درجات الجناح ب) وبين الميزانية المتاحة. ولم تبدر عن الأنسة برودر، التي يحترم رغباتها

الآن (بدافع بعيد الأمد؛ حتى الوقت الذي لا تُعد فيه قادرة على تحمل ذلك)، بادرة امتعاض واحدة للموقف الجديد.

لم يكن هذا بالكثير، لكنه كان كافياً لتشجيع براعم أمل كان بإمكانها أن تنمو بسرعة إلى أشجار هائلة لو علم فقط أنها كانت تنتظره كل مساء (وفي البداية فقط كانت تخشاه) وأن شعور الارتياح الذي كانت تتوقعه نتيجة غيابه لم يتحقق، واستولى عليها بدلاً منه قلقٌ تمخّض عن خوف، من نفسها، خوف من شيءٍ ما داخلها، لا يمكن السيطرة عليه، شيءٍ ما قد يتمرد، ويسيطر عليها، ويدفعها في اتجاه لا ترغبه، نحو إرب، نحو أن تصبح عشيقة الرئيس، محظية، في اتجاه الفسق، والزواج المحطّم، والأكاذيب، والحب بالساعة. كانت تعرف الشكل، فلماذا إذن كانت موزّعة ضد نفسها؟ من أين أتى ذلك القلق، هذا الانتظار في الأمسيات، لماذا كانت تتطلع مراراً إلى الفناء، وتُصغي لكل خطوة على الدرج؟ وعندما تكون لديها عطلة لماذا كانت تجلس أغلب الأحيان أمام النوافذ تُعدّ المداخل التي تراها دون أن تتحرك (٣٦ مدخنة)، وتُراقب أعمدة الدخان التي تعلوها، والسماء، والتي تزداد رماديتها قتامةً عندما يعبرها نورس أبيض؟ لماذا صارت رحلتها الصباحية بالترام مختلفة؟ ألم تلحظ من قبل أن أنوار المتحف والأضواء الملونة للملاحة ما تزال تسبح في سواد الليل فوق النهر، بينما يكون النهار قد ارتفع فوق الأبراج، وبالقرب منها سُحِبَ قليلة في لون الفئران الرمادية، وخلفها سماءٌ قسوة باهتة الزرقة؟ هكذا تساءلت، وكانت تعرف الإجابة بالطبع، كان جسدها يطالب بحقوقه، هذا مفهوم؛ فقد كانت في ذلك السن، لكن من الممكن إيجاد حلولٍ بديلة، ربما رجل غريب لا تراه مرةً أخرى، لا يُزعج عملها، ولا يترك صراعاً من خلفه، وإنما فقط شعوراً خفيفاً بالاشمئزاز، ومتعةً متجددة في كونها وحيدة. لماذا لم يكن إرب غريباً؟ عندئذٍ كان بوسعها أن تتمنى عودة إصبعه إلى بشرتها دون أقل خوف.

لكن الأمر لم يكن قاصراً على ذلك. كانت لديها دائماً أسئلة إليه. وكانت على ثقة من أنها ستضيق من جديد بالأجوبة؛ لأنها ستكون محدودة للغاية، متأثرة أكثر مما يجب بالممارسة وأقل ما يجب بالمبادئ، لكن مُشبعة بالخبرة التي تنقّصها، والتي تستطيع استخلاص المحتوى الأساسي فيها. كانت غالباً ما تُجري معه مناقشات، أحياناً في نَزَق. وأحياناً أخرى في تعصّب؛ لأنها تعرف كيف سيرد على مقولاتها، وكيف سيهول من شأن سنه ونضوجه وخبرته ورجولته، وتفوّقه المزعوم. كان الأمر مثيراً للنقزز، وكانت هي دائماً بالطبع المنتصرة؛ لأنه لم يكن أبداً قادراً على التركيز بشكل تام، ودائماً على أهبة المغازلة،

وهو ما كان أكثر أهميةً لديه، وما كان يُشعرها بالضعة؛ لأنه يساوي بينها وبين أي شقراء غبية. كان يستعرض ذاته، كتلة مقرّرة من الغرور والمبالغات والأكاذيب والأنانية، واحدًا من شيوعيّ الرفاهية الشبعانين، يملك منزلًا، وسيارة، ويريد أن يضيف إليهما عشيقه، يُحاول الآن استرضاءها بالرسائل بعد هزيمته في مناوشات الأيدي (تُرى، من أين جاءت هذه الرطانة العسكرية الفظيعة إلى ذهن فتاة؟)

لقد اكتشفت الآن في حِكمه ومأثوراته نغماتٍ جديدة أعجبتها، وأراحها التزامه (فيما عدا اليوم الأول) بسلوكٍ سليم في أوقات العمل، «لكن رسالته رقم ٣»، وهي رسالة حُب كلاسيكية، ورسالة جميلة بلا شك، مؤثّرة بكل ما فيها من مهارة، قد صدمتها، وضايقتها؛ لأنها رغم صراحتها الواضحة، كشفت عن مشاعر زائفة؛ فقد استبعد كاتبها كل قبح محتمل، وتصرّف كما لو أن العالم لا يضم سوى السيد إرب والأنسة برودر، وكما لو كان النعيم سيتحقق على الفور متى بادلتُه مشاعره وحسب. وبالطبع فإنها لم تُجبه؛ فهي لم تكتب له أبدًا.

حدث هذا في النصف الثاني من شهر ديسمبر، قبل الكريسماس بقليل. كان كارل إرب يُنشى كل يوم رسائل عديدة للأنسة برودر دون أن يدوّنها. وعندما فعل في النهاية، كان كأنما وقع تحت سيطرة دافع لا يُقاوم. لم يرغب في إرسالها. وظلت ملقاةً فوق مكتبه، مُلصقة الظرف. ورأتها ابنته كاتارينا، فأعلّنت استعدادها لإرسالها بالبريد. لم يملك الشجاعة ليرفض؛ لأنها كانت ستطالب بمعرفة السبب. ألصقت طابعًا فوقها، وقرأت العنوان بصوتٍ مرتفع، له ذلك الرنين الذي يميّز أصوات التلاميذ الجدد. قال لها بصيرٍ نافذ: «أسرعي».

إن الخطاب موجود، لكننا لن نعرضه، لا لأنه منتحل، وإنما لأن كل خطاب حب يتضمن ما يدعو للسخرية. من ذا الذي لا يمكن اتهامه بالانتحال في هذه الحالات؟ لقد استفاد إرب من التراث الثقافي. كان النموذج الذي احتذاه هو «قرب المحبوبة» لجوته («أفكر فيك عندما تلتمع أشعة الشمس ...»)، وقد أُعيدت صياغتها من جديد بالطبع في قالبٍ نثري، ونُقِلَت من فايمار^{٥٩} إلى برلين، ومن عام ١٧٩٥م إلى عام ١٩٦٥م، وأُضيف إليها جو المكتبة وشاطئ الشبريه، بحيث لم يتبقّ منها غير الفكرة العامة؛ مهما فعل العاشق، فهو لا يكف عن التفكير في المحبوب.

^{٥٩} المدينة التي ارتبطت باسم الشاعر جوته.

وهذا هو ما كان عليه الأمر في الواقع.
حتى في ليلة الكريسماس، بينما كان يُشعل الشموع، وهو متشوّق إلى عيون الأطفال اللامعة. لكن هذا يحتاج إلى فصلٍ جديد.

١٣

قبة الكاتدرائية فوق جبل الذوق القبيح المتحجر في خضرة أشجار لوستجارتن، وتحتها يستعرض الجنود أنفسهم في ألوان الببغاوات، وسوق الأوراق المالية كثير الأعمدة أحمر اللون، والشبريه أزرق مثل دانوب الفالس، والسفن ترفع رايات زاهية، والسيدات الواقفات أسفل أعمدة المتحف الوطني يرتدين قُبَعات مزينة بالزهور والريش، وفوق القصر ترتفع شمسٌ صفراء؛ إنها مدينة القيصر في جو القيصر، في إطار من أكاليل الزهور المذهبة، عانت أنيتا تحت ثقله، وتوقفت في الطابقين الثاني والثالث، قبل أن تضع اللوحة أخيراً على المائدة وتتهاوى في مقعد.

«أفضل التمنيات من بابا، وتهاني الموسم، وهو يُرسل لك هذه الصورة، لوحة حقيقية بالزيت، كنا نحتفظ بها في السندرة. المكان هنا جميل، ولديك كتبٌ كثيرة، لكن الحجرة ضيقة بعض الشيء — أعني بالنسبة للوحة.» كان حجمها مربعاً حقاً، كما كانت ألوانها؛ فقد استخدم شخصٌ ما كميةً من الألوان الثمينة، هاي ورسم متواضع، لكنه ليس بالغبي، لو كان مدرّكاً لعمق محتواها؛ القصر والجنود والكاتدرائية والبورصة، متلاصقين كتفاً إلى كتف. كل شيء اليوم يبدو مختلفاً؛ فليست هناك بورصة (قليل من الحظ)، ولا قصر (بعض من العار)، ولا جنود (لا يمكن مشاهدة النصب التذكاري الجديد)، ولا قبة فوق الكاتدرائية (مما يؤسف له أن كل ما عداها نجا من الدمار)، ولا شمس ولا ناس، أما أشجار لوستجارتن فهي عاريةٌ وسوداء، والشبريه رمادي، والشوارع وسقوف المتحف بيضاء؛ لأن الجليد يتساقط منذ ساعات، كما يجب أن يحدث ليلة الكريسماس. وفوق سياج المعبر شكّلت طيور النورس حبلًا من اللائى، وتحت الجسور عقدت دجاجات المستنقعات الاجتماعات مع البط، ومع التيار انساب زوجان من البجع غرباً نحو نهر الهافل، والألب، وبحر الشمال، رغم أنها بالتأكيد لم تقصد الذهاب إلى أبعد من قاعة المؤتمر (في برلين الغربية)، وهو ما ليس مفهوماً؛ لأنه هناك أيضاً لم يكن في ذلك اليوم من يقدم لها الطعام، لا كاتب حسابات ببقايا غذائه الملفوف، ولا صبي بشطائر المدرسة،

ولا عجوز بحقائب من الورق ملأى بكسرات الخبز اليابس، ولا لجان البوند ستاج،^{٦٠} ولا اجتماعات لاندز مانشافت،^{٦١} ولا مؤتمر لزراع الأوركيد؛ إنها ليلة الكريسماس التي تأخذ فيها السياسة إجازة (فتتوقف أمريكا المسيحية لأول مرة عن قصف فيتنام الشمالية بالقنابل)، ويعتكف الألماني في منزله، ويبقى البرليني الغربي أيضًا في منزله، ما لم ينطلق، مزوّدًا بتصريح عبور الحدود وبالسجائر والموز والبُن، لزيارة أخته، أو أخيه، أو ابن أخيه، أو عمته في برلين الشرقية؛ حيث يأكل الإوز تحت شجرة تنوب من غابة تورينجيا، التي لا تتجاوز في السوء مثيلاتها من غابة هولشتاين^{٦٢} لكنها أرخص منها، لكن البُن من الناحية الأخرى أغلى، على النقيض من أجور المساكن. كل هذا يقَدِّم مادة أحاديث الكريسماس عندما ينتهي الغناء وتقديم الهدايا، ويقتصر تليفزيون كلٍّ من الشرق والغرب على الكورال والأوبرا والبالية. في يوم كهذا لا يملك أي إنسان وقتًا للطيور المائية. إلا إذا كان خليّ البال وأعزب مثل الأنسة برودر، لكنها لم تكن تعبأ بالبط والبعج، وليس معها حتى قطع خبز، ولا تفكر في الطيور الجائعة وإنما في مبنى البورصة المالية حيث مات أخوها، وفي اللوحة التي لا بُدَّ وكانت تنتمي في يوم من الأيام لآل فالشتاين، والتي لم يكن لها غير مساحة صغيرة في غرفتها، وفي أنيتا، وعن طريق هذه اللفة الطويلة وجدت نفسها تفكر في «إرب رجل الأسرة»، الذي (الله يعلم لماذا) ترك انطباعًا عظيمًا لدى أنيتا باشكه، التي لم تزرها في الواقع (متوسلةً بهدية اللوحة كعذر قيم) إلا لتعرف لماذا لم يُشاهد إرب أخيرًا على درج الجناح ب. وقد استنتجت أنيتا أن الأمور انتهت بين الاثنين، وقررت أن تُضاعف فرصها بقراءة الكتب (وهو الميدان الوحيد الذي لا تشعر فيه بالتفوق على الأنسة برودر).

وبينما كانت الأنسة برودر تبحث عن كتب لهذه الشابة العاملة المتعطشة للثقافة، استمعت إلى تفاصيل مغامرات إرب مع الشرطة تُروى بصراحة، وأدركت فجأة لماذا توقف عن المجيء، الجبان؛ لقد اكتشفت زوجته كل شيء، واعترف لها، ولم يعد يُسمَح له بالخروج، حسنًا هذا هو السبب إذن، جميل، بل جميل جدًا، فهو سوف يجنّبها الكثير؛ ضياع الوقت، الخوف، وأساسًا الألم الذي كان ما يزال ضئيلًا في الوقت الراهن، والذي بدأ الجليد يُخفيه عن العيان، الوداع أيتها البجعة المتكبرة. ثم ما هو الذي حدث حقيقة؟ إصبع استقر فوق

^{٦٠} برلمان ألمانيا الغربية.

^{٦١} جماعات رجعية في ألمانيا الغربية تطالب بأراضٍ من ألمانيا الديمقراطية وبولندا.

^{٦٢} الغابة الأولى بألمانيا الديمقراطية والثانية بألمانيا الغربية.

رقيبته، بضع كئوسٍ مشتركة، وحديثٌ متبادل، ومحاولة اكتشاف ما يُخفيه الآخر خلف القناع.

هذا هو كل ما هنالك، لحسن الحظ، وقد انتهت الآن، وما زال الخط الحديدي يُقعِّع فوقها كشأنه دائماً في طريقه إلى شونفيلد وأركنر وشتراوسبورج، وبرج التليفزيون يزداد ارتفاعاً وقد تجاوز بالفعل كنيسة مارينكيرشه، وبعد عام سيكون المتحف القديم قد انتهى ونُقلت مكتبة المدينة إلى مبناها الجديد. وغداً سيجلس أناسٌ بوجوه تحمل علامات العطلة في مقهى أوبرن كافيه، ويتجولون على جانبي فريدريش شتراسه، وستعمل كما عملت دائماً، فتُنجز برنامجاً دراسياً آخر في خمس سنوات، وبعد عشر سنوات تقف هنا مرةً أخرى على جسر فايد ندام، تبصق خفية على الصنادل القادمة من براندنبورج أو هامبورج، ترُقّب أسماك أبي شص في الصيف، وتطعم النورس في الشتاء. هنا عقد فونتانه^{٦٣} خطبته على حبيبته. لكن لمن تذكر هذا؟ ليس ثمّة كائنٌ على مرمى البصر، وقد مرّت البجعات، ولا بُدّ أنها بلغت الآن الريخستاج،^{٦٤} ولعل حُرّاس الحدود يطهونها الآن. وعند أورانينبورجر تور سرّها أن تسير في خطّ قطري عبّر المعبر الخالي، وحيث قامت ذات مرة بوابة هامبورج ولجّت أحد أكشاك التليفون (كان ضوءه عاطلاً بالطبع) كي تتمنى لشخص ما عيداً سعيداً منذ كانت هي نفسها سعيدة لإفلاتها من خطر لم تتبين إلا الآن فقط أبعاده، من خلال الألم الذي سبّبته لها هذه النهاية، وهو ألمٌ خفيف نسبياً، لكنه بالتأكيد على درجة من القوة تكفي لدفعها من هذا التليفون المعطل إلى كشكٍ آخر كي تستمع فحسب إلى صوت صديق أو زميل. وبينما كانت تفتح الباب، رأت في ضوء مصباح الشارع رجلاً يقترب منها. أرادت أن تغلق الباب، أو تجري مبتعدةً أو تتجمد في مكانها. لكن لم يسعها إلا أن تمضي نحوه. كان والدا إليزابيث قد وصلا في الصباح، بعد قليلٍ من انصراف كارل إلى عمله. وسُمح للأطفال أن يحملوا غُلب الهدايا من السيارة إلى المنزل. استغرق الإفطار وقتاً طويلاً أتاح لأم إليزابيث أن تحدّثها بالأنباء (إجراءات العبور عند الحدود، زيادة المعاشات، مشاريع العطلة الصيفية، ارتفاع الإيجارات، حفل الكريسماس في شركة التأمين، عيد ميلاد العمة ميمي). «وكيف حالك أنت؟» - «كما ترين يا أماه، نحن جميعاً بخير.» ولحسن الحظ كان أمامهم

^{٦٣} كاتب وشاعرٌ ألماني من القرن الماضي نبغ في وصف الطبيعة الألمانية، وخاصة تلك المتصلة بضواحي برلين.

^{٦٤} برلمان ألمانيا القديم الذي أحرقه النازيون.

الكثير؛ فقد تفقد أبوها الحديقة في شيء من الكآبة، ولم يجد ما ينتقده فيما عدا الجسر المنهار على ضفة النهر. ووصل كارل في موعد الغداء بالضبط. وبعد ذلك انهمكت المرأتان في المطبخ، ومضى الجد للتنزه مع الأطفال في الغابة، وعكف كارل على تزيين الشجرة. وبدأت احتفالات الكريسماس مبكرة، فتوهجت الشموع، وألقى الأطفال القصائد وغنى الجميع، وبكت النسوة، وتبودلت كلمات الشكر على الهدايا مصحوبة بالقبلات والأحضان، وبدأ الجد يتحدث عن الزمن الذي كان فيه رغيف الخبز يساوي فنشين، وكانت كأس الخمر تساوي عشرة. وقاطعه كارل بسؤال عن أجور العمال في ذلك الحين، وردًا على أسئلة كارل الوقحة، أدلى حموه ببحث عن مرتبات موظفي التأمين في كل من الشرق والغرب، تخلّته إشارات إلى «المنطقة السوفيتية»^{٦٥} وانتقم كارل لنفسه بالحديث عن «النازيين الجدد» في ألمانيا الغربية، مما أدّى إلى «الحائط» الذي أُجيب عنه بـ «شتراوس»^{٦٦}. وبينما كان والد إليزابيث يختتم النقاش بهجوم على «أولبريشت»^{٦٧}، لم يستطع كارل تحمّل الأمر أكثر من ذلك، فهبّ واقفًا، وصفّق الباب، ثم ارتدى معطفه، وقفز إلى سيارته وانطلق بها. كان مسرورًا لأنه نجح أخيرًا.

نجح في ماذا؟

في إثارة جدل، وفي الشعور حقيقةً بالغضب المتعمّد على أقاربه الرجعيين، وبذلك خلق سببًا لهروبه، وتحولّه نحو الجديد، التقدمي، الشاب. لم يعد ببساطة قادرًا على أن يلعب دور رجل الأسرة وزوج الابنة؛ فقد حافظ طوال سنوات، ومن أجل إليزابيث، على وقف إطلاق النار الأيديولوجي، وهو ما كان أمرًا مخزيًا، أن يبقى صامتًا في وجه كافة أنواع التهجمات، أو ينخر مستسلمًا. أما الآن، وقد افترق عن إليزابيث روحياً، فلم يعد مرغماً على ذلك.

هكذا حاور نفسه وهو يقود سيارته إلى المدينة فوق طرقات يغطيها الجليد. كان كارل إرب، كما سبق إيضاحه، أستاذًا في عمليات التبرير الذاتية، وإن كان عاجزًا عن

^{٦٥} لفترة طويلة بعد الحرب، ظل المعارضون لألمانيا الديمقراطية يشيرون إليها بـ «المنطقة السوفيتية»، وهو التعبير الذي كان يُطلق على الجزء الذي قامت فوقه بعد الحرب مباشرة عندما قُسمت ألمانيا القديمة كلها إلى مناطق احتلال.

^{٦٦} جوزيف شتراوس، زعيم الحزب المسيحي الاجتماعي في ألمانيا الغربية ومن غلاة رجعييها.

^{٦٧} فالتر أولبريشت، زعيم الحزب الاشتراكي الألماني الموحد (الحزب الشيوعي) وأحد مؤسسيه ورئيس مجلس الدولة في ألمانيا الديمقراطية في الوقت الذي جرت فيه أحداث هذه القصة. توفي ١٩٧٣ م.

مقاومة مشاعره فقد التمس الأعدار للانقياد لها على نحو أعمى. كانت ابنته كاتارينا قد جرت خلفه إلى الباب الأمامي: «هل ستعود سريعاً؟» - «بالطبع.» كان يعتقد ذلك؛ لأنه أراد فقط أن يرى الأنسة برودر، ويتمنى لها عيداً سعيداً، ثم ينصرف. وبينما كان يرتقي درج الجناح ب، كان يخشى أن يواجه باستقبال بارد، وعندما عاد يهبطه (بعد ضغط زر النور الأوتوماتيكي عشر مرات؛ أي بعد عشرين دقيقة) شعر أنها خانته، وأنه وحيداً مشرداً، دون سقفٍ يعلو رأسه، ومعرضٌ بلا أمل لشجون الكريسماس السنوية التي كانت قابضةً في الانتظار طول اليوم.

كان مرأى نوافذ فراو فولف المضاءة في بهجة إلى جوار نافذة برودر المظلمة، كافيًا ليذكّر بوفاة أمه المبكرة، وبشبابه الذي دمّرت الحرب، وأعياد الكريسماس البائسة مع والده. وذكّرت تيجان الجليد التي تُكَلَّل مصابيح الشارع بليلة عيدٍ كان من شأنها أن تحسم مصيره، لو كانت لديه القوة على اتخاذ قرار. كانت هذه ببساطة فرصةً للذكريات ذات الشجون. ذكريات المرضة إنجبورج، التي سافرت في آخر كريسماس زمن الحرب من برلين إلى براندنبورج مع كارل إرب، قاذف القنابل اليدوية من دبابات البانتسر (جندي مدرعات كما يُسمّونه اليوم)، ذي التسعة عشر عامًا. وفي غارة جوية أمسكت بيده، وبعد ذلك وثقت به. كانت وافدةً (دون إجازة) من الجبهة الشرقية (التي سيَرَحَل إليها في اليوم التالي) وتنوي انتظار نهاية الحرب بموطنها، وإثر جولة بالليل خلال شوارع القرميد القوطي المغطاة بالجليد، وقبلات في مدخل الكاتدرائية، وعود أمام تمثال رولاند، أعطته في فناءٍ موحش ما كان يحلم به دائماً، وأيقظه هذا، لكنه أثار متطلبات كثيرة للغاية. ونتيجةً لهذا، عندما نفّث القطار المحلي دخانه مبتعداً، تخلف هو وراءه، مُلوّحاً في الظلام، وسمح لنفسه أن يُرسل إلى الجبهة، الحمار، ومنذ ذلك التاريخ وهو يُعاني من استبطن الكريسماس المزمّن.

وعندما رأى الأنسة برودر خارجةً من كشك التليفون، كان أكبر بعشرين عامًا، وبالتالي أكثر رصانة، ونتيجةً لهذا لم يُفزعها بعرض مشاعره أو بأيمان الإخلاص، ولا تكلف البرود والسيطرة على النفس. لم يقل شيئاً عن المصادفة أو المفاجأة، وتظاهر بأنه، بل كان فعلاً، هادئاً، بلا توتر، مسترخياً، دون قناع. لم يبذل أية محاولة لإخفاء سروره العظيم، وعبر عنه بصراحة. تمنى لها عيداً سعيداً كما كان ينتوي، وقال شيئاً عن الجليد، وكيف أنه يمتص الضوضاء، وعن أشجار الكريسماس في النوافذ، وكيف أنها تجعل المرء يشعر بالوهن، وشرع في وداعها. وطول ذلك الوقت كانت تتساءل عما إذا كان حقاً قد تخلّى عن ريش

الطاووس الذي كان يرتديه دائماً، أو أنها لم تُعد قادرةً على رؤيته؛ لأن عينيها قد بهرتهما متعة الخطر المتجدد. غمغم بكلمات الوداع، التي كان بها شيءٌ ما حاسم، وبذلك كان يتصرف بطريقة لم تعهدها فيه — دون غرور، بشيء من السخرية بالنفس، دون ذكورية عنيفة — ثم ابتعد في لا مبالاة (نحو ميدان روزنتالر، حيث ترك سيارته بعيداً عن أعين عائلة باشكه)، ابتعد كمن يفترق عن صديق له قائلاً له في غير ما جدية: «أراك فيما بعد». ثم استدار قليلاً ورفع يده في شبه تلويحة، لكنه لم يذهب بعيداً؛ لأنها (في خوفٍ من ألم الخلاص من الخطر) قالت شيئاً. لو كان لديه وقتٌ فإنها تودُّ لو بقي معها قليلاً.

قالت ذلك بهدوءٍ تام، وبلهجتها العادية، لكن لو كان هذا في فيلم لعزفت آلات الكمان برقة وعذوبة، وما كانت الأوبرا ستترك هذا المشهد دون دويِّ الأبواق، أما الرواية فستحتاج على الأقل إلى فصلٍ جديد من أجل إبراز أهمية هذه اللحظة، ولتجنب الصعوبات التي تحفل بها محاولة تصوير الساعات التالية، ولهذا الغرض يوجد مخرجٌ آخر وهو أن نقفز إلى الفصل الرابع عشر، لنبدأ بهذه الكلمات: «عندما استيقظنا في الصباح التالي ...» تاركين الباقي للقارئ. لكن هذا سيعني ترك الواقع (واقع إرب - برودر الخاص هذا) عرضةً للتفسير الذاتي، الذي سيكون في الغالب تفسيراً مغلوطاً، منذ كان لكل شخص عالمه الخاص من الخيال (يُشكِّله الجنس، والوضع الاجتماعي، والأصل، والسن، والحالة الصحية، وحالة التغذية، وربما الفصل المناخي أيضاً) لا يشابه الأحداث الواقعية إلا في حالاتٍ استثنائية. ثم إن كل خيال يقوم على أساس التجربة، فما هو شكل هذه التجربة؟ هناك الرومانسي الذي يخيب الواقع آماله، والواقعي الذي تضايقه الرومانسيات، الحساس الذي يعاني من القساوة والوحشية، وإنسان الأمازون الذي يطالب بالسلبية فيلقى جشعاً للقوة، والعاشق المتيم الذي يضيق بالمرح، واحد لا يطيق الرائحة، والثاني يضيق بالكلام، واحد أكبر مما يجب، والآخر أصغر مما يجب، واحد ضيق للغاية والآخر واسع للغاية. في واحدة من الحالات يكمن الجوهر حيث لا يبحث عنه، ولا تجده هي، وفي حالةٍ أخرى يلعب الخوف دوره مع العُقد والأهواء الغريبة. الحياء في الوقت غير الملائم، أو مطلوبٌ لكنه غير موجود. عاشقان يتسللان بين الأغصان ثم يستيقظان غريبين. هي لم تُعد قادرة على إجابة أسئلة، أو هو يُغلق عينيهِ ليرى واحدةً أخرى غير الراقدة بين ذراعيه.

كل هذا يتدفق عندما يترك الكاتب فراغاً أبيض، ليلوّن ذهبية تلك الليلة من ليالي الكريسماس برمادية التعقيدات، وخضرة المعاناة، وسواد التحرر من الأوهام (ربما يكون هناك استثناء في حالة الشباب، الذين يستبدلون الخبرة بالشوق؛ فعلى سبيل المثال، ترددت

الكلمات التالية في هذه الليلة: «هذا هو ما يتوقعه المرء في السابعة عشرة، وبعد ذلك لا يؤمن بإمكان حدوثه.»؛ ولهذا السبب يجب أن نتجنب هنا الفجوة المعهودة، الفقرة المفقودة، التعمية، نقاب الصمت (إلى الدرجة التي تسمح بها مقتضيات اللياقة والاحتشام والذوق والمحاكم). لا بُدَّ من هذا لنوضح عظمة ما حدث.

اثنان عشق كلُّ منهما الآخر بالقلب والعقل، وبالبشرة والشعر واليد والقدم والعين والأذن والصدر والبطن والأنف والفم والذراع والساق وكل شيء آخر لديهما وكاناه وسيكونانه.

اثنان عرف كلُّ منهما الآخر.

وماهية الحب: إنه هذا ولا شيء آخر عداه، لا شيء قبله ولا شيء بعده ولا شيء آخر في هذا المنزل، في هذه المدينة، في هذا البلد، في هذا العالم. إن روميو وجولييت لم يتبادلا حبًّا كهذا، ولا فعل كارل وجيني، أو يعقوب وراشيل، أو هيلدرلين وديوتيميا، أو أبلارد وهلواز. اثنان تبادلا الإعجاب بالكلمات، والنظرات والأصابع والشفاه وتذكَّرا أن هذا هو ما كانا يبحثان عنه دائماً، مثل هذا الكتف، أو السرة، أو الكعب، أو الشعر، أو البشرة. اثنان صارا واحداً.

شعر الواحد منهما بالآخر، وتطابق الواحد منهما مع الآخر، وانتابهما أخيراً الإحساس بأنهما لم يعودا نصفين، وأنهما صارا كلاً واحداً، وأنهما لم يشعرا أبداً من قبل هذا الشعور القوي بقوة ومجد كيأنيهما.

اثنان عبد كلُّ منهما الآخر ...

أعلن كلُّ منهما الآخر بطلاً، جنياً، ملاكاً، جباراً، إلهاً، آلهة، ووداً لو يتبدى لهما إله كي يركعا له ويشكراه على أنه خلقهما من جديد، وأكّد وجودهما. اثنان تحدثا سوياً.

ساعة وراء ساعة، على المرتفعات وفي الأعماق، بالضحكات وبالدموع، في محاولة للعثور في الكلمات عما أثبتته جسدهما، كلُّ للآخر، بالتأوهات والأناث والصرخات والتنهّذات، محاولة بلا جدوى؛ لأنه لا توجد غير الكلمات التي تعبر فقط عما كان قائماً قبلهما؛ ولهذا السبب لا يمكن أن تكون الكلمات غير بديل، دلالة واهنة، إيماءة، كلمات استُخدمت من قبل بواسطة هوميروس، فالتر، جوته، ريلكه، هيمنجواي، واستهلكت بواسطة نجوم الأفلام والغناء، استشهادات واقتباسات بينما ما يحتاجانه هو لغة جديدة، لكن هذا التفكير ذاته صار مبتذلاً، نمطياً، واستولى عليهما اليأس؛ لأن وادياً ما لا يمكن قوله لا يمكن إقامة جسر فوقه، لا يمكن ملؤه بألف، بعشرة آلاف كلمة فارغة.

اثنان اعترفا، كلاهما للآخر، بخطاياهما، كلاً، بأخطائه؛ إذ ظناً ورق الزينة اللامع ذهباً، والماء نبيذاً، والبركة الصغيرة محيطاً.

اثنان لم يغفر كلُّ منهما للآخر.

(لأنهما ظناً من قبلُ خطأً أنهما وجدا ما كانا يبحثان عنه)، بل إنهما أيضاً أقرّاً بالجميل لما حدث (رغم ما سبَّبه من آلام)؛ لأنه أمدَّهما بالقدرة لا على تقدير العظمة وحسب، بل وعلى التعرف عليها أيضاً.

اثنان اكتشفا السعادة.

اثنان تساءلا: هل تعرف هذا أيضاً؟ (وكان أحدهما فقط يعرف القول المُستشهد به) وقال الآخر: أجل، أجل وهو أيضاً لم يسبق له أبداً أن شعر بهذه القوة بالحاجة إلى الحديث عن طفولته، وهي أيضاً لم تجد فرقاً في السن بينهما، وهو أيضاً كان يفكر دائماً في الموتى عندما يعبر شوارع المدينة الداخلية، وهي أيضاً رأت ذلك الحلم الذي وجدت فيه نفسها فجأةً في برلين الغربية ولم تعد، وعنده أيضاً كان الصيف أفضل من الشتاء، وهو أيضاً لم يشعر بأنه بلغ رشده، وهي أيضاً لم ترتدِ أبداً قُبعة، ولا تحب الشرائح الملونة والأوبريتات (حتى ولو سُميت بالعروض الموسيقية)، والنبذ الحلو، والتأثيرين، ولاعبي الورق، والطلاب، والأردية الرسمية، ومصابيح الزيت، والمطاعم الفاخرة، لكنها تُحب حانات الضواحي، والسهول، وهيلد جارد كنف،^{٦٨} واللوحات ذات اللونين الأسود والذهبي، ومستعمرات أكواخ العطلات، والقوارب الشراعية، وكُتب الجيب ذات الأغلفة اللامعة المصنوعة من البلاستيك، وإيرهارد إيشه،^{٦٩} والمدافئ الخزفية، وقاعات القراءة في المساء، والخطوط الحديدية فوق جسر فيدندام، ودور السينما المكتظة، وتصميمات المشاهد المسرحية ولوحات هورست زاجرت (وخاصة التي تحتوي على سلالم)، وهو أيضاً لا يستطيع أن يفسر لماذا يتحدث المؤلفون عن أنفسهم وحسب عندما يذلون بكلمات، وهي أيضاً لا تقرأ الروايات أحياناً لعدة شهور، وهو أيضاً استولت عليه في لحظات انفصالهما مُرهقين، أفكار لا علاقة لها به أو بها؛ أنه لا بد وأن يهتم بالأنوار الأمامية لسيارته، وأنه ستكون هناك طوابير عند نقطة عبور الحدود، وأن المكتبة تحتاج إلى عاملة نظافة، وأن الجليد ما زال يتساقط برفق وفقاً لتقاليد الكريسماس.

^{٦٨} ممثلة معاصرة مشهورة في ألمانيا الغربية.

^{٦٩} ممثل مسرحي معاصر ومشهور في ألمانيا الديمقراطية.

اثنان استعادا ذكريات طفولتهما (في برلين ن-٤ وفي ألت - شرادوف)، وشبابهما (في برلين ن-٤ وفي الثكنات)، وسنوات الدراسة (في لايبزيغ وفي برلين) ... وقسما حياتهما بطريقة جديدة؛ النصف الأول (من الميلاد إلى هذه الساعة، السادسة مساء من هذا اليوم ٢٤ ديسمبر)، والنصف الثاني الذي لم يكن يتجاوز أربع، ثماني، اثنني عشرة، أربع عشرة ساعة (لكنه صار من الطول بحيث يسمح بأسئلة التذكُّر؛ أما زلتَ تذكُّر ...؟ ماذا ظننتَ عندما ...؟) وسيستمر حتى الممات.

اثنان، لأنهما لم يتمكنا من أن يقولوا كيف أحبَّا، حاولا أن يقولوا لماذا يُحب كلُّ منهما الآخر وسيُحبه دائماً ... لأنها ماهرةٌ للغاية، وهو (على عكس التوقعات) غير مغرورٍ على الإطلاق لأنه يرتدي ربطة عنق حسنة الذوق، لأن رائحة بشرتها كما هي وليست مغايرة، لأنها ما زالت تحتفظ بسمرة الصيف، لأنه يضحك بصورة لا تماثل أحداً آخر، ويترك عبارات كثيرة ناقصة، ووضع إصبعه على عنقها بطريقة لا يمكن تقليدها، ولأنها تعيش في هذا الفناء الخلفي، وعلى علاقة طيبة بفراو فولف، وليس لها أقارب، رشيقة الخطى، وتُداعب حاجبيها عندما تصغي، كلاً، لأنها تستطيع أن تُصغي، كلا، لأن بوسعها أن تتحدث عن كل شيء، وليس بإمكانه الحديث معها عن كل شيء، لأنها تفهم الإيماءات، كلا، السبب هو هذا كله أيضاً، لكنه أحبها أساساً لأنه يحتاج إليها، لأنه بلغ الأربعين، وبعد نجاح سهل استقر، راضياً عن نفسه، متعباً، غارقاً في المستنقع، مستسلماً، وقد أيقظته هي، وجعلته مستعداً لبداية جديدة، أجل، هذا هو السبب، وبالطبع بسبب شعرها، وبسبب أن جمالها كان من نوع لا يكتشفه أي واحد على الفور. وهي؟ لقد أحبَّته هو وحده دون غيره لأنه لم يعاملها كما يعامل الرجال النساء، كشيء، ومحتويات فراش، خادمة، معجبة، منجبة أطفال، كنصب تذكاري منزلي أو زينة، لأنه أخذها على محمل الجد واحترَمها، أجل لهذه الأسباب وأيضاً بسبب يديه الثقيلتين، يدي البستاني، اللتين شعرت تحتها برضاً، أنساها كافة الأيدي الأخرى كأنها لم تُوجد قط.

لم يكن من الصعب على هذين الاثنين أن يعتقدوا بأن سعادتهما ستدوم. وأن ينسيا مخاوفهما (من الهموم، والأحقاد، والآلام، والأكاذيب، من إليزابيث، وهاسلر، وكراتش، والحمل)، ويشعروا بأنهما في مستوى أي نزاع (في أول البداية فقط فكَرت: حتى ولو حدث هذا مرة واحدة فحسب، لن أندم عليها! وفكّر هو مرة واحدة في سؤال كاتارينا: هل ستعود سريعاً؟ وبعد هذا فكَراً فحَسَب دون أن يلفظا: ليست هناك قوة في العالم تستطيع التفرقة بيننا! وفي شيخوختنا سنكون سعيدين أيضاً). اثنان وجد كلُّ منهما الآخر في الليل الطويل.

شيءٌ عظيم حدث بين جلبة خربشة الحمام وهديله في المساء والصباح التالي.
بالنسبة لاثنتين كانت العطلة مقدّسة، والكريسماس صلاة.
وعاش منزل آرون فالشتاين القديم يومًا رائعًا.

إننا نوصي القراء المتعلقين بالنهايات السعيدة أن يكتفوا بهذا القدر، ويضعوا الكتاب على النضد المجاور للفرّاش، وينسوا إليزابيث والأطفال وهاسلر وكراتش، ويستغرقوا في النوم بالوهم المحترم أن الحب الحقيقي قد انتصر رغم كل شيء. أما الصيغة التالية فهي لهؤلاء الذين يرغبون في تطريز الجدائل المختلفة وهم ينعمون؛ الآنسة برودر تجتاز امتحاناتها، إليزابيث تترك إرب بصورة ودية، هاسلر ينظم اجتماعًا للعاملين في المكتبة يعلن فيه إرب طلاقه وزواجه الجديد، السيدة برودر-إرب ترقى إلى المعهد المركزي حيث تستطيع تكريس نفسها كليةً لمجالها الخاص وهو سوسولوجيا المكتبات، الزوجان السعيدان ينتقلان إلى مسكنٍ حديث في كارل ماركس إليه (ثلاث غرف، مطبخ، حمام، تدفئة مركزية) حيث ما يزالان يعيشان إلى اليوم، سعيدين، لكن دونما شعورٍ بالاكتماء.
لكنّ المهووسين بالواقعية، النّهمين إلى الحقيقة، أعداء الوهم، دعاة الاستنساخ، الوعّاظ، المعجّبين ببرودر، طراز إرب، الفضوليين، وتجّار الفضائح، وخاصة أولئك الذين كانوا هناك ويستطيعون الحكم (هاسلر، ريبيلوس، مانتك ... إلخ)؛ لهؤلاء بالتحديد تُكرّس الفصول الباقية من هذا التقرير.

١٤

هكذا انفرد أصدقاء الواقع بالميدان لأنفسهم ذلك الصباح في الغرفة الكريسماسية. ليس هناك أحدٌ بعد، مما يتيح للمرء فرصة تأمل جنباتها دون وجل، الغرفة أدفأ مما هي عادةً في الصباح؛ فقبل توزيع هدايا الكريسماس في المساء أذكيّت النار في الموقد. أما الرائحة التي عبق بها الجو فيمكن القراءة عنها في كُتب تيودور شتورم. وتكاد الأبواب الزجاجية للتراس تختفي خلف شجرة التنوب الزرقاء، شجرة الكريسماس الياضعة، التي تكشف زينتها عن ذوق إرب؛ فالألوان الوحيدة المسموح بها هي الفضي والأبيض، الشموع، شعر الملائكة، نجوم القش، كرات الزجاج واختفى الأثاث تحت أكوام الهدايا؛ مائدة القهوة لكاتارينا، ومائدة الطعام لبيتير، والبوفيه لإليزابيث، وجهاز الإرسال للأب إرب. اكتسى السجاد بقشور الجوز، وشذرات من شعر الملائكة، وبقايا الصواريخ، وفُتات كعك الزنجبيل، وقُطع من الألعاب التركيبية.

لم ينتشر الضوء بعدُ في الخارج بصورةٍ كاملة، لكن غطاء الجليد كان يضاعف من ضوء الفجر الواهن. ومن الأريكة (التي سرعان ما سيجلس عليها إرب؛ إذ إن السيارة صارت في الجاراج بالفعل) يمكن الرؤية عبْر النهر، حيث تنجرِف قطع الثلج الطافية. إن صائد السمك، البروفسور، يغطّي أذنيه بغطاءين أسودين. ويعكّر الهدوء صوت كاشطة الجليد، اصطدام حديد بالإسفلت؛ ذلك أن إرب ينظّف الممرّ الممتد بين الباب الأمامي وبوابة الحديقة. وتدخل كاتارينا، وما زالت في منامتها وبينما تلوك قطعةً من البسكويت، تضع لعبة سرفيس الشاي على المائدة. وعندما يدخل إرب تضع إصبعها على فمها؛ صه، ما زال الآخرون نيامًا.

هذا هو ما ظنّته، لكن إليزابيث سمعت صوت السيارة، مثلما سمعت سعلة بيتير في الواحدة، واصطفاق الباب الأمامي للبروفسور المهووس بالأسمك في السادسة، وصرخة طفل الجيران في السابعة وعشر دقائق. أما عدا ذلك، فقد كساها الهدوء مثل ركام من القطن. كان لا بدّ وأن تنهض فورًا؛ فما كانت قادرةً على أن تسمح له بالمجيء إليها، والجلوس على فراشها، والإدلاء باعترافات أنصاف الحقائق، ووضعها في مكان الشخص الغفور الصبور النبيل، أو تحويلها إلى رفيق، شريك، لا بدّ وأن تطرح جانبًا وعلى الفور أغشية الفراش، وتغتسل وتمشّط شعرها وربما تضع قليلًا من الزينة حتى تبدو مختلفة. كلا، ليس ذلك؛ لأنه لن ينخدع. انهضي، انهضي! لكنها رقدت في مكانها، باردة، متصلبة، وأصغت إلى إغلاق باب الجاراج، وصرير خطواته، وأنين كاشطة الجليد، وتنظيف الحذاء، وصوت المفتاح. ثم ساد الهدوء. وفيما بعدُ عاد الطفل يصرخ. وتحطّم جزع شجرة تحت ثقل الجليد. ودوى انفجارٌ كالرعد على مبعده؛ إذ ذاب ثلج البحيرة. في أول شتاءٍ لهما سوية كانا يتجولان عبْر الثلج حتى الأحراش، ومن هناك كان المكان الذي عاشت فيه كل حياتها يبدو غريبًا للغاية. كانا يستلقيان على الشاطئ ومن خلال فجوات الثلج يرقبان الضفادع القابية بعيونٍ مفتوحة وأعضاءٍ متصلبة مثل الحيوانات الدقيقة، حتى تسري فيها بعدُ ما بدا كالدهر، حركة تنفّسٍ سريعة. كانت إحدى محطّات الجليد قد قطعت عليهما طريق العودة، وواجهها على غير توقّع قناةٌ سوداء من المياه، وشعرًا فجأةً بالبرد والخوف، وفي ذلك الوقت لم يُرعد الثلج فحسب بل صرخ أيضًا وأنّ، مثل الأطفال المرضى، والقطط في ليلة ربيعية. يجب أن تنهض. إنه لم يأت. هل كانت تأمل، ربما، في مجيئه أكثر مما كانت تخشاه، حتى تستطيع البكاء والعفو؟ لكن الأمر لم يعد أمرَ عفو، وإنما انفصال، حتى لا تشيّد مرةً أخرى منازل الأمل الورقية، لتنهار على الفور. حتى لا ترقد مرةً أخرى هكذا

تنتظر وتفكر: تعال، اجلس إلى جوارى على الفراش، ارو حكايتك الخيالية، اخدعني، أمسك بإزميل، ومبرد، وسنفرة، حتى لا تكون الحقيقة ذات حواف حادة هكذا، اشتغل فيها، ابذل جهداً، غير الحقيقة، غطها، أخفها، اقدح في الأخرى، امتدح رقتي، قل إن البراعم الوردية الغضة لا تلائمك، وإنها لا تستطيع منافسة الجلود البنية، قل إن قبلتي هي كالعودة إلى المنزل لديك، أو ازمع على الأقل أنك لست راغباً في بذل الجهد الذي ستتطلبه الجديدة، وأنك منهك للغاية، وأنك وأنت بين ذراعيها اشتقت إلى كتبك وإلى وجهي طفلك النائمين، ولقهوتي لو أحببت، اكذب، برهن لي بخداك على حبك، وإذا لم يكن هذا بإمكانك، فمن خلال الثقة، لا تخف عني أية تفاصيل، قل لي إحساسك بكل شيء؛ ثديها في يدك، شفتاها على صدرك، أصابعها في شعرك، شعرها في وجهك، قبضة ساقها، إيقاع جسدها، فمها، صرختها. قل لي؛ لأنني قوية، ولن أبكي، سأشاركك نشوتك وطربك، سأقول: أستطيع أن أتخيل الأمر، كم أنت جديرٌ بالחסد. وسوف أسأل: وكيف كان شعورك؟ سأكون صديقك، حليفك، رفيقك، أي كائنٍ شئت، فقط تعالَ اجلس على الفراش واحك حكايتك، اكذب، وابتهج، لكن أرني أنك تحتاجني! لأي شيء؟ من أجل الوجود القديم للواحد بجوار الآخر، من أجل الأعلى والأسفل، السيد والخادم، من أجل القلق القديم، الذي قد صعد الآن إلى مرتبة الوعي، سيصبح بلا شك عذاباً لا يُحتمل لي، لك؟ هل كان ألم الأشهر الماضية بلا جدوى؟ هل استهلكك عبثاً القوة التي تطلبها الصمود؟ كلا، ابقَ بعيداً، لا تقترب براحة الأخريات. أو، أجل، تعالَ، حتى لا يداعبني مرةً أخرى أبداً إغراءُ بناء المنازل من الورق، حتى أستطيع أن أصرخ أخيراً في وجهك برأيي الحقيقي فيك، حتى أريك الصّدع الأسود الذي لا يمكن رأيه. تعالَ، أبرز ضعفك. لكنه لم يأت. وظل كل شيء في المنزل هادئاً. وفي الخارج نعبت الغربان، ومرت أسراب النحل السوداء فوق المنطقة، ككل صباح في الشتاء، في طريقها من الغابات إلى الحقول.

كانت كاتارينا سعيدة؛ فقد كان أبوها يلعب معها؛ الإفطار. جلسا على السجاد، قامت الأريكة بدور المائدة. كان هناك لبن بالعسل في الأكواب اللعّبة، وقهوة في الفناجين اللعّبة. وكان من الضروري لفتُ نظر الأطفال دائماً إلى المحافظة على النظام؛ كلوا ولا تلعبوا، المكان الصحيح للأيدي فوق المائدة، امضغوا أكثر حتى النهاية، أغلق فمك وأنت تأكل. وقامت نجمة من القش بدور سيجارتين. هل ستعود مبكراً هذا المساء أم لديك اجتماع؟ لا تنسي شطائر المدرسة. ثم صار اليوم أحدًا، وانطلقا بالسيارة إلى برلين، ودفعا عربة الأطفال الصغيرة خلال الشوارع كي يَرَوْا ما بلغه برج التليفزيون من ارتفاع. هذه يا أطفال

محطة القطار السابقة، وهذه هي اللوستجارتن القديمة، وهنا كانت الحظائر الملكية — وهذا هو — كلا، هذا هو نهر شبريه، إنه هنا عريضٌ وأزرقٌ للغاية، وهذا صف الأعمدة أمام المتحف — وبعدها هناك البورصة. وتضحك كاتارينا عاليًا وطويلاً؛ لأن البورصة التي تعرفها ليست منزلاً وإنما شيءٌ متعلقٌ حقاً بالمال، وإن كان يُدعى كيس النقود.^{٧٠} وأوحت إليها كاتدرائية برلين والقبة، أن من يذهبون إلى الكنيسة بلُهاء. الثمار الناضجة للتربية الإلحادية! ما هو ردُّ الفعل لدى الرفيق الأب اللطيف المعشّر؟ لا بدُّ وأن الفرويلين المتطرفة كانت ستؤمّن على قول الصغيرة، وهو أيضاً كان سيفعل ذلك منذ عشرين سنة في قميصه الأزرق الخاص بمنظمة الشباب، لكن الأمر لا يبدو له الآن بهذه البساطة. ربما كان مدرس كاتارينا عضواً في الحزب المعين بالجهة الديمقراطية،^{٧١} وربما كان أحد القُسس قد أدلى حالاً بدلوه من جديد في «نويس دويتشلاند».^{٧٢} لم تقنّع الطفلة الفضولية بالمعلومات التي قدّمها إليها، ومؤدّها أن الكاتدرائية على أية حال تحطّمت، بل مدّت السؤال ليشمل الكريسماس، وهو أمرٌ طبيعي، منذ كانت الأغاني حاشدة بمسيحيين أطفال، كما أن موضوع بابا نويل لم يكن واضحاً أيضاً. وقد تخلّص البعض من هذا المأزق بالحديث عن العادات التيتونية والانقلابات الشمسية وعيد ميلاد المسيح، وهلمّ جرّاً، أما هو فلم يكن بوسعه أن يفسر فمه على التلفّظ بكلمة «تقليد» رغم أنه يقرؤها يومياً في الصحيفة. لم يكن بوسعه أن ينضم إلى الركب؛ فقد رفع ضميره الديالكتيكي صوته عاليًا، وبدت له الكلمة أكثر ملاءمة للقدح (هل فكّرت الآنسة برودر، وهي من قارئات الصحف المتعمقات، في ذلك؟) وهكذا؛ فإن الكريسماس هو مهرجان السلام، والدراجة هي قطار الضواحي الذي يُسرّع إلى المنزل لأن هناك غداءً رائعاً بصورة خاصة في الانتظار؛ ضلع خنزير في صلصة القستر. وكانت كاتارينا مستمتعة بالموقف شأن الناس في الأفلام الصامتة؛ فقد انحنت إلى الأمام غارقة في الضحك، وهي تصفّق بيديها، ثم تضرب على فخذيها، وقد اتجه فمها المفتوح على سعته نحو الأرض آنأً ونحو السقف آنأً آخر. ولما كان الأب يلعب دور القرد ويقلّد كل شيء، فقد خطر بذهن إليزابيث التي كانت تقف في مدخل الغرفة، أنها وقعت

^{٧٠} بالألمانية تعني كلمة بورصة سوق الأوراق المالية، كما تعني كيس النقود.

^{٧١} تُحكم ألمانيا الديمقراطية رسمياً بواسطة جبهة من عدة أحزاب على رأسها الحزب الاشتراكي الألماني الموحد (الحزب الشيوعي).

^{٧٢} الصحيفة اليومية الرسمية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد.

في مصحة للمجانين، أعلنت كاتارينا لاهثة الأنفاس: «بابا يلعب معي.» وأضافت (تفسر المعجزة): «لأن اليوم هو الكريسماس.» وبذلت كل ما في وسعها لتمنع الأبوين من تبادل الحديث، وهو ما كان أمراً سهلاً بصورة مدهشة؛ فلم يبدأ حديثهما إلا بعد الانتهاء من تناول القهوة، عندما صار منحدر المزلقان أكثر أهمية من مزاج الكريسماس الرائق لدى إرب.

لسوء الحظ؛ فقد كان من الأفضل لو اتبعت حكمة الزوجات العجائز في أمثال هذه الحالات؛ بتأجيل الأمر كلية. كان المكانان اللذان قدما منهما لتناول الإفطار مختلفين؛ فقد جاء هو من قمة البهجة، وجاءت هي من هاوية اليأس؛ ولهذا لم يكن من الممكن أن تمضي الأمور على ما يرام.

حدث الأمر مع السجارية. كانت صامتة وهي تنظر إليه، لا بتعاسة، أو عتاب، أو فضول، أو تساؤل، إنما نظرت إليه فقط، ربما بشيء من الخواء، لكن ليس بالقدر الذي يكفي ليكون عذراً. كل ما كان قادراً على قوله ما كان سيتجاوز: لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ (وهي جملة أدت إلى نشوب عدد من الحروب الوقائية)، لكن هذا ما كان سيصلح الآن وما كان سيؤدي إلى نتيجة، ما كان سيتمخض عن أكثر من هزة كتف وابتسامة مريرة. في الأيام الأولى (قبل أن يصحبهما الطفلان النشطان دائماً بشرتهما خلال جولاتهما في الغابة والمرج) بدا له صمت إليزابيث أكثر من مرة (عندما كان مزاجه منحرفاً) خسة لا تُحتمل. وكان ساعتها ينظر خلسة إلى ساعته، ويقول لنفسه: سوف نرى الآن كم من الزمن تنوي الاحتفاظ بصمتها. لكنه لم يجد الإجابة أبداً؛ لأنه لم يستطع الانتظار أبداً، وكان ضيقه ينفجر (في شكل محاضرات غاضبة؛ اللغة هي العامل المميز بين الإنسان والوحش، أو تبادل الحديث أكثر أهمية من تبادل الحب)، موجهاً لإليزابيث، التي تكون سعيدة غير مرتابة، صدمة مفزعة. واستغرق الأمر طويلاً قبل أن تتعلم كيف تتفادى انفجاراته بالسخرية من نفسها؛ ليس بالإمكان مواصلة الثثرة دون توقّف. لم تكن الآن تبدو قادرة على ذلك، كانت الآن جادة؛ أجل هذا هو الأمر، كانت نظرتها جادة. وما اعتبره خواءً كان افتقادهما إلى المرح، وهذا ما جعل وجهها يبدو غريباً، غير مألوف. لكنه يجب أن يتكلم، هذا هو ما طالب به وجهها، يجب أن يشرح، لكن كيف كان ذلك ممكناً في مواجهة هذا الوجه الغريب؛ الذي لم يُبد استعداداً للفهم.

أجل كان خبيراً في تحويل الجبن والخوف، والضمير المثقل إلى غضب. إنه لخبثٌ منها أن تعكّر بجديتها شمس سعادته.

ألم يكن مستعداً للتخفيف عنها وإسعادها (كما فعل مع ابنته) بهذه الشمس؟ ماذا كانت تريد حقيقة، ولأي شيء تلومه، ألم تكن علاقتهما واضحة منذ أسابيع؟ هل هو في حاجة لأن يسمح لنفسه بأن يُعامل (أي يُنظر إليه) بهذا الشكل؟ ثم إنها تعيش على حسابه، وفي مستوى معقول. وهو لم يوجّه إليها اللوم بهذا الشأن (على الأقل بصوت عالٍ)، لكنها يجب أن تفكر في ذلك لنفسها بين الحين والآخر. ألم يكن دائماً أميناً ورفيقاً طيباً، وهذا هو عرفانها بالجميل؛ هذا الوجه وهذه النظرة؟ وهي على أية حال تبدو غير متأثرة. وبوسعها أن يحذو حذوها، كلا لا يستطيع، ليس هو؛ فالأمر كله يؤله ألماً شديداً. حقاً، بوسعها أن تتكلم كنوع من التغيير. لكن عليه أن ينتظر وقتاً طويلاً حتى يحدث ذلك. لهذا بدأ في لهجة لائمة: «لماذا تنظرين إليّ هكذا؟» - «أنا في انتظارك حتى تقول شيئاً.» - «لماذا أنا؟ إنني أتكلم منذ أربعة عشر عاماً.» - «أريد أن أعرف كيف سيكون الوضع.» - «أظن أن هذا واضح منذ أسابيع.» - «الواضح أنه ليس كذلك. هل ذهبت إلى محام؟» - «إن فأنت تريدين التخلص مني. إذا كان ذلك ضرورياً، فبوسعي أن أذهب من اليوم.» - «سأكون شاكرة؛ لأنني لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك.» - «ماذا؟».

اعترف بأن ذلك كان منه سؤالاً غيبياً، لكن هل من الضروري أن تلوذ بالصمت من جديد، وترفع محتويات المائدة وتنظّفها كما لو كان غير موجود، رغم أنه لم ينتهِ من سيجارته؟ يجب حقيقةً أن يكون مسموحاً بعشر دقائق من السلام للتدخين. كان صمتها حيلةً قذرة؛ لأنه أثار غضبه، ونتيجةً لذلك لم تتورط أبداً في موقفٍ يخطئها، لكنها ستلتقي هذه المرة درساً. سيرد بنفس الوسيلة، فلن يفوه بصوت، وسيذهب إلى غرفته، ويحزم متاعه، ويستقل سيارته دون كلمة. أم يقول لها وداعاً حتى يؤكد حسمه للأمر؟ سحق سيجارته في المطفأة البرونزية، وغادر الغرفة صافقاً الباب من خلفه. لكنه فقد سيطرته على نفسه من جديد فوق الدرج، فعاد جرياً وفتح الباب في عنف: «أودُّ لو أرى رجلاً يستطيع احتمال هذا سنوات!» وكان يعني بالطبع الصمت، الذي وصفه خلال هجومه المتزايد ارتفاعاً بأنه كرية خبيث وغاضب وغادر وعدائي، وأخيراً غير إنساني، وأسوأ من الشجار والخلافات والشتائم، بل أسوأ من الضرب، حوّل حياته الزوجية إلى جحيم، ويدفعه الآن إلى الضياع والظلام والتشرّد والغربة. «لقد حققت الآن ما كنت تريدينه!» وشعر بالارتياح، وبأنه أحسن حالاً، بل وفتح الباب لإليزابيث وهي تحمل الصينية الممتلئة إلى المطبخ، ووقف بعض الوقت مترقباً إلى جانبها وهي تضع الأطباق في الحوض، وعندما لم تفه بشيء، غادرها بخطواتٍ مفعمة بالأهمية.

وكما تخيل ساعة الرحيل الختامي هذه في الأسابيع القليلة الماضية، بدت له أصعب ساعة في حياته منذ وضعت الحرب أوزارها، كان منفعلًا الآن، هذا حقيقي، لكن دون ألم عريق. كان حزينًا، لكن ليس أكثر حزنًا من أي مرة عزال سابقة. كانت آخر نظرة من النافذة، وآخر ملامسة للكتب حزينة، لكنه شعر بنفس الشعور عندما انتقل من ألت - شرادوف إلى مونشبرج، ومن مونشبرج إلى برلين، ومن الغرفة المفروشة إلى المسكن الجديد، ومن هناك إلى مُستقره على نهر شبريه. كان من العسير دائمًا أن تترك شيئًا ألفتَه، هذا هو كل ما في الأمر ولا شيء أكثر منه. لقد لاحظ دائمًا أن الترقب أفضل من الإشباع، ولاحظ الآن أن العكس هو الصحيح أحيانًا؛ فانتظار الأسى أسوأ من وقوعه.

وليس هذا بمفاجأة، عندما تكون حواسك، (وحسيتك) تتوق للعودة إلى مسرح المتع الليلية، بل إن ما أسماه بالأسى كان تحت تأثير هذا، ويمكن وصفه وصفًا أفضل بالخوف، الخوف من رد فعل الأنسة برودر بالتحديد؛ لأنه كان في سن يعرف فيها أن كلاً من الصور الفوتوغرافية وعود الوسادة تتلاشى في ضوء النهار لو لم تكن مُثبتة (بواسطة الممارسة). كان يقوم بالعزال دائمًا مستعينًا بصندوق من الكرتون، أو حقيبة عسكرية، أو عربة يد، أو سيارة نقل، وفي كل مرة كان يأخذ كل ممتلكاته معه. لم يحدث أبدًا أن ملك الكثير الذي لديه الآن، وتخلّى عنه هكذا ببساطة.

فيما عدا الكنز الأكبر؛ السيارة.

كانت كُتبه دائمًا هي أكثر الأشياء قيمةً لديه، وقد تركها خلفه، جميعها؛ لأنه لم يكن قادرًا على اختيار أهم ثلاثة مجلدات (كما كان ينتوي). فيما مضى كانت لديه دائمًا الإجابة على السؤال الخاص بالكتاب الذي سيحمله معه في أعوام المنفى؛ «أساطير هاوفمان»، «قاتل الغزال»، «طريق التضحية»، «الحرس الفتى»، «الأم»، «دكتور فاوستس»، «العجوز والبحر». لكن ما فائدة هذا اليوم؟ إنه يبدأ الآن بدايةً جديدة ولا يريد أن يكون مثقلًا بالذكريات. فضلًا عن أن لديه كل ما يحتاج إليه في المكتبة التي يعمل بها (مثل مؤلف كروبسكايا لينين^{٧٣} عن المكتبات، هذا المنجم من الاستشهادات اللازمة للخطب الرسمية). حمل معه فحسب ملقًا يضم المذكرات الخاصة بأعمال قسمه. أسرع إلى السندرة، وأنزل حقيبتين والمرتبة الهوائية، وأخذ أدوات الحلاقة والتواليت من الحمام، والغسيل والملابس

^{٧٣} زوجة لينين.

من دولاب الردهة، وكانت بقية الأشياء في متناول اليد. أوراق الهوية، الأدوية، الوسادة، البطاطين. كان الأمر أشبه بالفرار.

كان أشبه بالشروع في رحلة.

«وداعاً، إليزابيث.» كانت منحنية إلى أسفل، تضع الإوزة في الفرن. اعتدلت واقفةً ومسحت يديها في مئزرها. لكنه احتفظ بالحقيبة في يده مضيئاً: «سأرسل إليك النقود بانتظام بالطبع»، ورحل.

هكذا تخيل خروجه (وهكذا كان سيصفه لو طُلب منه ذلك). ولم يكن الواقع مختلفاً إلا في القليل؛ فقد ذكر الوداع، والكلمات الخاصة بالنقود، لكنه عندما أعطته ظهرها دون أن تتأثر ظل واقفاً وسأل إذا ما كانت ستذكر الحقيقة للأطفال. «لا أعلم بعد». «أرجوك ألا تفعلي.» «سيعرفون إن عاجلاً أو آجلاً.» – «لا أريد أن يُعانون هم أيضاً.» قال ذلك في أشكالٍ مختلفة، متوسلاً، مهدداً متودداً، أمراً. لكنها كانت منهمكة أمام الموقد، تقشر البطاطس، ولم يفقد وجهها طابعه الخالي من التعبير (وبصورة كاملة) إلا عندما وقفت أمام النافذة، وراقبت كيف شحَن الصناديق ثم استقل السيارة ومضى بها.

هل أدركت حقيقة ما سيكون لهذا الرحيل السريع من أثر؟

ربما كان في الأمر شيء ما غريزي. (لو كانت النساء يتمتعن بشيء كهذا، لكانت إليزابيث في عدادهن بالتأكد). لكن المؤكد أنها لم تكن قادرةً على احتمال الشك. ورغم استمرار الألم، شعرت في الأيام التالية براحةً معينة؛ فقد كان إرب (بين الصفات الأخرى والأفضل) دكتاتوراً صغيراً مثل الكثيرين منا. وفي الأيام التالية عادت إليزابيث تشتري الخمر لتشرّبها، وأنقصت من الطغيان الفيتاميني، واستمتعت بعدم الالتزام بمواعيد صارمة لوجبات الطعام.

وعندما عاد بيتر وكاتارينا من التزلق، بوجناتٍ أرجوانية مبتلّين وجوعانين، وسمعا باتزانٍ ورباطة جأش أن بابا اضطرّ للسفر فجأة، كان هو يقف في الباب الفاصل بين المطبخ – الردهة الخاص بالآنسة برودر وغرفتها، متأملاً (للمرة الثانية) مدينة القيصر ذات الإطار الذهبي و(للمرة الأولى) الوجه الذي يحمل آثار النوم، غير المغسول، وغير المزين، للآنسة برودر، التي كانت غاضبةً لأنها لم تكن تريده أن يراها هكذا. لم يدرك ذلك وظن أن غضبها مبعثه عودته المفاجئة، ونتيجةً لهذا أمضى دقائق مفزعةً وكئيبة في الفراش (بينما كانت تُصلح من شأن نفسها في المطبخ). واستغرق وقتاً طويلاً ليعترف لها بالحقيقة، ولم يقتنع إلا بعد ساعاتٍ طويلة بأنها كانت تقول الحقيقة المطلقة عندما جعلت تكرر بناءً

على طلبه (ودون خوف من فساد الذوق والعبارات المُستهلَكة): «أنا سعيدة لأنك تودُّ البقاء معي.»

١٥

بدأ اليوم الثاني للكريسماس بضجّة؛ قرع ازداد إلى طرق، تسلَّل إلى حُلْم كارل، وتحوَّل إلى سلسلة من القذائف النارية أثارت نافوراتٍ من الرمال جعلت تقترب منه بانتظامٍ مميت حتى بلغته، وأخيراً أيقظته. شعر بصلابة الألواح الخشبية التي تتألَّف منها أرضية الغرفة من خلال المرتبة المنفوخة، ورأى اهتزاز الإطار المذهب الذي استند إلى باب مسكن فراو فولف، ونهض جالساً، فشعر بظهره يؤلمه، ولاحظ وجه الأنسة برودر الذي كان يبدو وهو نائمٌ أقرب إلى فتاة في الخامسة عشرة، وقال: «نعم؟» توقَّف الطرق، وسألت السيدة فولف في ارتباك: «أهذه أنتِ يا عصفورة؟».

رأى الآن لأول مرة كيف تستيقظ الأنسة برودر. حدث هذا دون مراحل، دون تمطُّ أو تتأوُّبٍ ودعكٍ للعَيْنَيْن. رقدت هادئة على جانبها، وقد فتحت عَيْنَيْها، وهي في أتم وعيها. «ماذا هناك؟» - «تعالِي بسرعة.» - «هل حدث شيء؟» - «أجل، زوجي.» كان كارل بدوره مضطرباً للانصراف. واتخذ الطريق المختصر عبر السندرة، وكان مظلماً بسبب الجليد الذي استقر فوق سقف المنور. لم تُبطئ الأنسة برودر خطاها، لكنها مدَّت يدها إلى كارل خلفها «انتبه لرأسك! خطوة كبيرة هنا! حذارٍ من العارضة!» كان باب مسكن فولف موارباً، وفي الردهة بدت أكياسٌ من الورق مليئة بطعام الحمام. جرت الأنسة برودر مباشرةً إلى غرفة المعيشة. كان الهر فولف جالساً إلى المائدة في سترٍ سوداء، وقميص أبيض، ورباط عنق على شكل الفراشة (بابيون) وقد استقرَّت جبهته فوق المائدة. أقامت الأنسة برودر رأسه. لكنها سقطت من جديد، وقد تدلَّى فكه، وحدقت عيناه دون رؤية إلى السقف. خرجت فراو فولف من المطبخ. كانت هناك رائحة شيء. سأل كارل في اضطراب وعجز: «هل هناك تليفون في المنزل؟» هزَّت السيدة فولف رأسها نفياً. قالت الأنسة برودر: «إنه ثَمَل.» قالت السيدة فولف: «هذا أيضاً منذ الواحدة لم يفعل شيئاً عدا الشراب، بوسعك أن تتبيَّني هذا، وإنها لمعجزة أن الأمر لم يوقظك، والساعة الآن العاشرة، لكنه ما يزال بعيداً عن الفراش، والأسوأ من هذا وما يبعث على قلقي هو أنه لم يُطعم الحمام، وهو شيء لم يُغفله أبداً من قبل، لو اضطرَّ لارتقاء الدرج زحفاً على أربع، أنتِ تعلمين، وكان يجب أن أناديك على الفور، حتى يمكنك أن تسجَّلي الأمر وتبعثي به، حتى يتلقَّوه بعد

العبد مباشرة.» وكانت تعني الشرطة وقسم الحمّام في رابطة مُربّي الحيوانات الصغيرة، أما ما يجب إرساله فهو شكوى أو إعلام أو اتهام يصف كيف تعرض الهر فولف، الساقى، عند عودته من عمله إلى الإهانة عند الباب الخارجي من جانب الهر كؤاده من ساكني الجناح (ج). «برفقة كلبه الهجين النابح»، الذي استخدم كلمات لا يمكن تكرارها، وهو يُصر على أن يتلقى منه اعتذارًا علنيًا. ماذا قيل؟ بوسع باشكه، الذي لا يفوته أبدًا التواجد في أمثال هذه المواقف، أن يشهد بأنه قد تردّدت أكاذيب بشأن رائحة إفرازات الحمّام التي يحملها الغسيل وبشأن الحشرات. لكن (فيما بيننا) لم تكن هذه هي أسوأ الإهانات التي وجّهها كؤاده إلى فولف؛ فالأسوأ من هذا، والسبب الحقيقي في إقبال فولف على الشراب اليوم حتى هذه الدرجة من السُّكر البين، هو التهديد الذي وجّهه له كؤاده عندما لعن كلبه الدائم النباح؛ فقد قال إنه، كؤاده، سيعمل على زهاب الحمّام من المنزل. وهو قادر على هذا حقيقة لو أراد؛ فقد كان الحمّام من نفس فصيلة نافذة عربة القطار؛ إذا ما اعترض شخص واحد على فتحها وجب إغلاقها، ولو كان الباقون ينزفون عرقًا لدرجة الموت أو يختنقون؛ فلاحفاظ بالحمّام في المنازل التي تضمّ عدة مساكن مسموح به إلى أن يعترض ساكن واحد فقط، وعندئذٍ يجب أن تذهب. وقد حدث هذا لأعضاء قسم الحمّام التابع له فولف أكثر من مرة، «ولن يستطيع التغلب على هذه الصدمة.» هذا هو الهدف من الشكوى المطلوب تقديمها ضد كؤاده، حتى يخاف ويسحب تهديده.

«اكتبها الآن يا عصفورة، حتى يهدأ ويذهب إلى الفراش؛ فلا بدّ له من الذهاب إلى عمله بالحانة في الرابعة. ومقابل ذلك سأدعوك إلى الغداء؛ فالحمّام في الفرن فعلاً، وفولف لا يأكل منه؛ فهو لا يستطيع، ولم يستطع أبدًا.» لكن العصفورة كان لها رأيٌ مخالف عن كؤاده، الذي كان ساكنًا جديدًا، شخصًا لا تعرفه من قبل. أتعنين الرجل الجبل؟ الذي يعمل في إدارة المنازل التابعة للدولة؟ أيعيش هو نفسه هنا، ولا حتى في أحد المساكن الأمامية؟ إذن فلا بدّ أنه شخصٌ دمث يمكن التوصل معه إلى اتفاق سلمي. أما إجراءات التقاضي فلن تنجح إلا في استفزازه. إن شخصًا ما يُحب كلبه لا بدّ أن يكون متفهمًا بشأن الحمّام. ومن المستحسن أن نصحب معنا باشكه أيضًا. لكن أولًا يجب أن يذهب العم فولف إلى الفراش. «ساعدي يا كارل.» وبينما كانوا يجرّونه إلى غرفة النوم، حدثت معجزة، إذ تفوّه فولف بكلمتين في وضوح تام: «مُربّي براغيث!» كان الرجل الجبل كؤاده قد أهان مربّي الحمّام فولف وحمّام السباق ذي السلالات إهانةً بالغة، وكان هذا هو الرد عليها، والكلمة الوحيدة التي سمعها كارل من هاته الشفاه، وعبثًا سأل نفسه (والآنسة برودر

بعد ذلك) عما إذا كان هذا البكم نتيجةً أو سبباً لشلالات الحديث التي تدفقت من زوجته بلا توقّف في الساعات التالية؛ أثناء الإفطار السريع، وفي الطريق إلى باشكه، وعند باشكه، وفي الطريق إلى كؤاده، وعند كؤاده (الذي أذعن بصوتٍ مرتفع لكن برقة، وتفهم وجهه نظرهم، وتراجع)، وفي الطريق إلى طعام الغداء، وأثناء طعام الغداء، وبينما كانوا يتناولون القهوة، والتي لم تعترضها للحظاتٍ قصيرة سوى الردود (بسبب إيجازها). كان الظلام قد حل من جديد حينما بلغا أخيراً صمت الغرفة التي لم تتم تدفئتها بعد، كما يبلغ الغرقى مرفأ الشاطئ، وتركوا الموقد لراحته الباردة والتجأ إلى الفراش.

لماذا كل هذه الأمور البعيدة عن قصتنا؟ ليس لأنه أمرٌ حسن، طبقاً لكافة مخططي ومديري الأدب المعاصر، أن يتم من جديد اكتشاف الغسالة العجوز (كانت السيدة فولف من عاملات النظافة)، وإنما لأن ذلك اليوم كان حاشداً بالاكتشافات بالنسبة لإرب وبرودر؛ فعلى سبيل المثال، اكتشفت هي كيف أن حُبهما العظيم قد قلل إلى درجة كبيرة من حجم القلق على سُمعتها وعلى سلوكها المغاير للتقاليد. وكيف أنه من السهل والسائغ أن تتحدّث عن زوجها المقبل، وكيف أنها كانت سعيدة بأن يراها الناس سوياً، وكيف كانت فخورةً به، ومسرورةً لأنها تمكّنت من أن تُريه فولف وباشكه وكؤاده والسندرة والحمام والمَرّ والفناء (انظر: كل هذا يأتي معي!)، وكيف كان ردُّ فعله رائعاً عندما ابتسمت ابتسامة الرضا الصامت خلال طوفان السيدة فولف، وكيف كانت مهمةً ومثيرة، مرةً أخرى، حكايات طفولتها ووالديها التي سمعتها عشرات المرات، وكيف صار كل شيءٍ جديداً ومختلفاً وهاماً من خلاله، خلال إرب. وحقّق إرب أيضاً عدة اكتشافات، الكثير منها سارّاً للغاية، والبعض سارّاً قليلاً، ولم يكن منها ما هو كريهٌ على الإطلاق. اكتشف، على سبيل المثال، كيف سرّه للغاية أن يشترك أشخاص آخرون في سرّ الغرام الجديد، وكيف ملأه بالفخر أن هذه المرأة الشابة (امرأته!)، تحظى بتقدير واحترام وتبجيل الكافة (لا بسبب جمالها لكن بسبب مهارتها وحزمها)، بينما كان هو من الناحية الأخرى شخصاً عادياً للغاية كان ودوداً، لكن غير نافع (كان يكتسب حب الآخرين وكانت هي تفوز باحترامهم)، واكتشف فيها العصفورة من خلال رؤيتها في عالم طفولتها، وبهذا ازداد اقتراباً منها، وألفه لها، وأحبّها أكثر من ذي قبل، أما الاكتشاف الذي لم يكن مريحاً تماماً، فهو أن الرباط الداخلي الرائع بينهما يمكن أن يتحطّم أحياناً لثوانٍ أو دقائق (نتيجة خطئها بالطبع) دون أن تلاحظ هي ذلك.

ما كان بوسع أحد في وضعه أن يفهم كيف تُضحّي الآخرين بأول يومٍ لهما معاً.

لكن الأمر لم يكن كذلك. لو كانت سألتَه لأجاب: افعلي ما تريئه صوابًا، لكنها لم تسأله؛ كانت معتادةً على اتخاذ قراراتها بنفسها، هذه هي القضية، ورغم أنه لم يدرك الأمر بنفسه لحظتها، شردت أفكاره فجأةً بعيداً، مسافة ثلاثين كيلومتراً، لكن داخل حدود المدينة، عند المائدة الحافلة التي انتشرت فوقها الزهور، ومع نزهة الغروب في يوم عيد فوق الجسر الذي تطفو تحته قطع الثلج، وفي حُجرتِه وحيداً مع الموسيقى، ورائحة القهوة، ومشهد النهر الذي كان يضم طفلين يضعان فوق الشاطئ أجساداً بشرية من كرات الجليد. لكن هذا مرّ بسرعة، وفيما بعدُ في الفراش، والعصفور في يده، لم يذكر شيئاً منه، واستمتع معها، وأكثر منها، بوضع الخطط، ومعها ضحك من أثقل لحظات اليوم عندما اتخذت فراو فولف دور الأم التي تحقّق مع زوج الابنة بصراحة أخذته على غرّة، وهو المعتاد على اللباقة، بحيث لم يجد فرصةً للاحتماء بالعبارات الودية، واضطرّ لأنّ يقدم إجابات مباشرة. أجل، بالطبع، سيستشير محامياً عقب العيد مباشرة، كلا، كلا، لن تكون هناك أية صعوبات، فزوجته موافقة، جدّاً في الواقع، والنقود ليست مشكلة؛ فهو كمديرٍ يحصل على أكثر من أي كُتبي بسيط، بالطبع هناك الأطفال، اثنان منهم، وسيكون عليه أن يدفع لهما، لكنه لن يدفع شيئاً لزوجته؛ فلم يعد هذا معهوداً هذه الأيام، سوف تعود للعمل، وهذا على أية حال ما كانت تريده منذ عهد بعيد، وصحّتها جيدة، أجل إنها كُتبيّة هي الأخرى، حقاً إن السيارة تُكلّف كثيراً لكن من الممكن رفعها أو بيعها، أجل سوف يتزوّجان عقب الامتحانات مباشرة، فمن الغباء أن يتم ذلك قبلها ولو فقط بسبب المنحة الدراسية^{٧٤} التي تحصل عليها الآنسة برودر.

لكنه لم يتحدث عن أرقام محددة، جرى الحديث عنها بعد ذلك في الفراش بين السادسة والثامنة، وبين العاشرة والحادية عشرة، والثانية عشرة والواحدة، عندما وضعا خططهما، لا لأن ذلك كان ضرورياً (فقد كانا يعلمان بالضبط ما سيحدث)، وإنما لأن الحديث عن مستقبلهما المشترك كان أمراً ممتعاً، ولأن كل نظرة بعد ذلك ستكون إعلاناً بالحب، ووعداً بالإخلاص، وعناقاً متوقّعا، كان تخطيطاً من أجل التخطيط، وهو شيء مألوف. في هذه الساعات والأيام والأسابيع تحوّلوا إلى أساتذة في هذا الفن، يخططان أفقياً ورأسياً وزمنياً ومنهجياً وأبجدياً، ويضعان مُسوّدات المقدمات، ويُعيّنان المسئوليات، ويُحدّدان المواعيد، ويوزعان الميزانية، ويخترعان الاختصارات (ك ض إ س ت = الكفاح

^{٧٤} يتقاضى طلبة الجامعات والدراسات العليا في البلدان الاشتراكية رواتب شهرية ثابتة.

ضد إدارة الإسكان) وابتدعان الشعارات (المسكن: الاتساع لا الجمال)، وعلى أساس ف م ت (فهرست المكتبات التعليمية)، أقاما نظامًا من المجموعات الرئيسية التي قُسِّمَت عندئذٍ بمعونة الأرقام العشرية إلى مجموعاتٍ كثيرة بصورةٍ رائعة وأخرى فرعيةٍ أولى وثانية. وشعرا بالزهو والفَخار بأنفسهما وبفساحة وتنوُّع الخطط والاحتياجات عندما اكتشفا أن بوسعهما استخدام كافة المجموعات الأساسية من الباء إلى الواو. ورغم كافة هذه الجهود لم يجدا فائدةً من مجموعة الألف («الماركسية اللينينية» - «عام») و«الياء» («عام»). كانت المواد الهامة هي «المجموعة ب» («الاقتصاديات»، «علم الاقتصاد») التي تضم اقتصاد المالية والمحاسبة، و«المجموعة ج» («الدولة»، «الشئون القانونية» والعسكرية) التي تتضمن القانون المدني للطلاق والشرطة لتسجيل العنوان، «المجموعة هـ» («الشئون التعليمية والثقافية») التي تضم كافة مشاكل المكتبات، والتي تبدو سهلة الحل في الفراش؟ «المجموعة ل» («الجغرافيا وأصل الإنسان») التي تتصل بمشاريع الرحلات، «المجموعة ن» («الخدمات الصحية والطب») المتصلة بالضروريات الصحية التي لا تتوفر في الجناح ب، وبالطبع أيضًا «المجموعة ق» («علم التدبير المنزلي») بما يتبعها من اثنتي عشرة مجموعةً فرعيةً حدَّدها «فهرست المكتبات التعليمية». والأكثر إثارة، بسبب إمكانية توسيعها بصورة مرضية هي المجالات التي لم تكن تبدو لها مؤشراتُ تخطيط واضحة، لكنها كانت تستثير مناقشاتٍ متنوعة. كانت هناك، على سبيل المثال، «المجموعة د» («التاريخ والشئون المعاصرة»)؛ حيث كان التقسيم إلى مجموعاتٍ فرعيةٍ موضع نقاش؛ فقد أراده تقسيمًا على أساس الأشخاص (١د برودر، ٢د إرب)، بينما كانت هي تفضُّل التقسيم على أساس الموضوعات («١د متع الاعتراف»، «٢د ذكريات الطفولة» بما فيها «تاريخ الأسرة»، «٣د تاريخ جبهما هما»، «٤د تبادل المعرفة التاريخية»، «٥د تاريخ برلين» - من خلالها، «٦د تاريخ المكتبات» - من خلاله) وعندما بلغا «المجموعة ف» («التربية البدنية والرياضية والألعاب») وافقا بسرعة على استبعاد الألعاب (يا للحظ! كان من الممكن أن يكون أحدهما بسهولة من لاعبي الورق أو الشطرنج المتحمسين)، وعلى ألا يكون هناك هامشٌ مثل «عن ألعاب الحب، انظر ف» وعلى أن يقوما بالتمرنات الرياضية في الصباح والنافذة مفتوحة عندما يحلُّ الصيف. وابتلعت «المجموعة ك» («الفن»، «الجماليات») وقتًا أطول، فكان لا بُدَّ من تحديد موعد لاتخاذ قرار بشأن «برلين القيصر» ذات الإطار الذهبي، ومناقشة الديكورات الداخلية، والفنون التطبيقية، والأثاث القديم والحديث، والكونشترات، والمسارح، والأفلام، ثم تأجل كل ذلك وسط صيحاتٍ مفزوعة (كيف يمكن أن تُحب المرأة رجلًا يذهب إلى السينما ثلاث

مراتٍ فقط في العام، ويُصغى إلى التاسعة مرةً واحدةً في المذيع مع بداية كل عامٍ جديد؟^{٧٥} هذه المرأة مستحيلة (فهي ترى في «هينريش بول»^{٧٦} كاتبًا عاطفيًا، وتقول إن فرقة «برلينز إنسامبل»^{٧٧} المسرحية المقدسة ليست سوى مُنَحَفٍ؛ لأن النقاش كان مستحيلًا. وعندما بلغا «المجموعة ط» («العلوم الطبيعية»)، شمل النقاش الذي جرى تحت عنوان الصوتيات، باب السيدة فولف، الذي يجب تحصينه ضد الصوت بالخرق والألواح الخشبية والكرتون حتى لا يسمعهما أحد، حتى في غير ساعات الإرسال التليفزيوني. وفي «المجموعة ت» («التكنولوجيا») أفزعته بإعلانها أنها تعتبر السيارة من الكماليات غير الضرورية، وكان رده هو الصمت، واستبعدت الأمر كله على الفور، وفي «المجموعة م» («الزراعة والغابات بما في ذلك الصيد ومصايد الأسماك») نسقا آراءهما حول الحمام المزجج، ووضعاً خطئاً طويلة الأمد للعقد التالي من أجل حيازة كوخٍ ذي حديقةٍ لقضاء عطلة الأسبوع. «لكنني أفقد لكل ما تحتاجه العناية بالحديقة؛ المعرفة والاهتمام والوقت.» - «اتركي الأمر لي. كل ما يتعين عليك عمله هو الإعجاب بالزهور، والقسم بأن للتفاح مذاقًا أفضل بكثير من ذلك الذي يُباع في المحلات.» أو ربما كان من الأفضل أن يعيشا في الهواء الطلق، على مشارف المدينة؟ هكذا وجه إرب السؤال، وبدا له أقل جدية مما كان يشعر، لكنه لم يتلقَ إجابةً ما، أو بالأحرى أنه أجاب بنفسه على السؤال الخاص بفرصة تحقيق هذا الحلم. أي حلم؟ حلم الحياة والعمل في الريف، حيث تتميز الثروة في الثقافة بشيءٍ ما ثوري حقًا؛ حيث تغمد محراثك في الأرض المريحة، حيث تتخاطب مع الناس بالأسماء الأولى. كيف عرفت بشأن هذا الحلم؟ كانت هناك بعض الأصداء له في أول حديث ليلى، في ظل دوار الفودكا الحافل بالكآبة، وفيما بعدُ ثرثر عنه كراتش بطريقة جعلت فتيات المكتبة يضحكن. هل كان هذا الحلم حقًا شيئًا يستحق الضحك؟ كلا، كلا، ليس بالنسبة له، على الإطلاق؛ فقد كان يفكر دائمًا بشأنه عندما يتكوّم العمل الإداري، وعندما ينحصر عمل طوال أسابيع في التقارير والخطط، والشئون المالية، بدلًا من الكتب والقراء. ألهذا السبب أصبح كُتبيًا؟ إن الساعات القليلة التي يقضيها كل أسبوع في قسم الاستعارة لم تكن كافية بتعويضه؛

^{٧٥} الإشارة إلى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن التي جرت العادة على إذاعتها كاملةً في الإذاعة والتلفزيون بألمانيا الديمقراطية مع بداية كل عامٍ جديد.

^{٧٦} من أبرز الكتاب المعاصرين في ألمانيا الغربية.

^{٧٧} أهم الفرق المسرحية بألمانيا الديمقراطية وترجع أهميتها إلى ارتباطها باسم برتولت بريخت مؤسسها.

فلم تكن سوى دجلٍ وتظاهُر. «ألا تفهمين؟» أجل تستطيع أن تفهم جيدًا. كانت تتفق معه تمامًا، وقد عبّرت عن موافقتها، وكان ذلك كافيًا، وكان بوسعه أن يخلد إلى النوم في سلام. لكنها ما كانت لتترك الأمر عند هذا الحد، وكان لا بُدَّ لها من أن تصوغ واحدًا من أسئلتها المخيفة «لماذا؟» الذي ردَّ عليه بتبرير «المنزل الأطفال - إيلزابيث» المعروف من قبل، مختتمًا بـ «طابت ليلتك». لكن هذا لم يمنعها من مواصلة السؤال، والآن؟ الآن كان يريد أن ينام. وهي أيضًا. لكنها لا بُدَّ وأن تقول له قبل ذلك إن الفرصة لم تكن متاحة كما هي اليوم، إذ انتهت الحياة القديمة وتبدأ أخرى جديدة. وهي (أضافت بسرعة، حتى يكون على بينة من الأمر) لا تمثل أي عقبة؛ فليدها مشاريعها التي لن تتغير، وهي تتصور روعة أن تتقدم إلى أرض جديدة إلى جواره «سنحدث عن ذلك فيما بعد. كفى هذا اليوم. نومًا سعيدًا».

لم يأخذ الأمر على محمل الجد. كان يعرف مدى تعلُّقها ببرلين. والواقع أنه لم يكن يرغب في أخذ الأمر على محمل الجد. هذه هي الحقيقة.

١٦

قال إرب: طاب مساؤك، فرد. هذه زوجتي. وتعرّضت أكذوبته لصدمة عندما ولج غرفة المعيشة في منزل مانتك، وهي صدمة استحال عليه معها، بعد أن كرّر خمس مرات — «اسمي إرب، طاب مساؤك.» — أن يجد الكلمات المناسبة وهو يهزُّ اليد السادسة. أما الأنسة برودر، فقد تمكّنت عندما قيل لها: «طاب مساؤك أيتها السيدة إرب.» أن تجيب على الأقل: «إننا في الحقيقة لم نتوقّع رؤيتك أيها السيد هاسلر.»

وهكذا بدأت أول مناسبة اجتماعية يظهر فيها العاشقان سويًا بصدمة، كانت أيضًا تمثل بداية المصاعب لمؤرخ هذه الأحداث؛ فحتى الآن كانت الجهود تُبذل لاستخراج العصور من فاكهة الواقع، ثم تعريضه للغليان حتى يتبخر منه الماء، كي يمكن تقديم البهريز السميك إلى القارئ في كوباتٍ سهلة التناول، لكننا الآن نواجه جالوناتٍ من هذه الفاكهة تتمثل في مجموعة من الأشخاص يشتركون في حفلٍ أقيم بمناسبة العام الجديد. وكى نحول دون أن تسيل محتويات الإناء عندما يبدأ في الغليان، لا بُدَّ لنا من القيام بعملية انتقاء صارمة (وهو أمرٌ عسير)؛ فالدكتور بروخ، على سبيل المثال، ليس مجردًا مما يثير الاهتمام؛ فهو خبير في الجماليات، يكتب دائمًا «أنا» بحروفٍ كبيرة، وهو ما لا يثير امتعاض أحد (مثلما لا يمتعض أحد من «أنا» الإنجليزية التي تتألف من حرف واحد يُكتب دائمًا كبيرًا)،

ربما لأن له بعض الحق في أن يفعل ذلك، لكننا لا نحتاج إليه هنا، إلا فيما بعد. فلنلقِ به جانباً.

أما كراوتفورست،^{٧٨} معاون مانتك، وهو شخصٌ قدير لطيف، قاده سوء حظه إلى أن يحب امرأة (زوجته) لا تلائمها، لكن قلبها لا يُطاوِعها على تركه، فهو يستحق كتاباً كاملاً بمفرده. ومن آل باومجارتنر،^{٧٩} لا نحتاج إلا إلى الزوج أبرهارد، الذي يعرفه كافة عُشاق الكُتب، وقُراء الصحف، ومشاهدي التلفيزيون باسم أباو، المؤلف الناجح، الذي قضى الأمسية (وليس فقط بدافع السأم) في مغازلة لم يصبها التوفيق للأنسة برودر.

الأمر الذي يتركنا مع شخصيات نعرفها؛ ثيو هاسلر من مجلس المدينة، وفرد مانتك. وكما ذكرنا فإن مانتك وهو نمط كارل، رفيقه، وصديقه منذ السنوات الأولى، وسلفه كمدير مكتبة، وطوال سنوات كرّسته وزارة الثقافة لميدان المكتبات الشعبية أو بالأحرى «المكتبات التعليمية العامة».

والسيدة مانتك. كانت هي، من علماء البيولوجيا (في ميدانٍ خاص لم تذكره بعدُ دوائر المعارف، لا يستطيع التعرفُ عليه إلا واحد في المليون) المسئولة (بسبب هُوسها بالثقافة وحبها للتجريب) عن جمع هؤلاء الأشخاص المختلفي الميول تحت سقفٍ واحد؛ فقد رأت عقم الاحتفال بالأعياد مع الزملاء الذين يعرف الواحد منهم الآخر ويعرف آراءه، والذين لا يملكون القيام إلا بذلك النوع من الحديث الذي كانت تدعوه بحديث المرأة؛ حيث يقول الواحد ما يفكر فيه الآخر، بينما يردُّ هذا بأفكار الأول، وهو شكل من الحديث يذكَرُ المرء ببعض المناقشات الجماهيرية التي لا يبقى فيها سؤالٌ واحد دون إجابة لأن سؤالاً واحداً لا يوجّه فيها. قالت (يساندها فرد، زوجها) إذا كان يجب أن نحتفل، فلنحتفل مع أناسٍ يفكرُون؛ أي يستطيعون توجيه الأسئلة، ولديهم هم أيضاً أسئلة، بل قد يكونون هم (بالنسبة لأنفسهم وللآخرين) مثار تساؤل. هكذا يتولّد السأم بأقل جهدٍ ممكن.

كانت فراو مانتك هي صاحبة فكرة دعوة إرب - برودر وهاسلر، أمام المعارضة - الأولية من جانب زوجها (الذي يعمل في المجال الثقافي وهو بالتالي أقل حماساً للتجارب). وعلى أية حال فإنه بعد أن وافق، صار مستعداً لقبول المسئولية (وهو عبءٌ ثقيل كما تبين لأن إرب، الذي شعر بأنه سيق إلى فخ، قد غضب وتعيّن على فرد مانتك أن يهتم بأمره، بينما

^{٧٨} ومعناها سجع الكرب.

^{٧٩} معناها زارع الأشجار.

كان على اللامانتك، من الناحية الأخرى، أن تهتم بأمر الجانب الأكثر لطفاً من الزوجين، السيدة إرب المزعومة، التي تحوَّلت بالنسبة للسيدة مانتك إلى أكثر ضيوف الأمسية سحراً وطرافة).

وكان الأمر متبادلاً؛ فقد كانت واحدة من تلك المناسبات النادرة التي تكتشف فيها امرأتان نفسيهما، في الأخرى. أدركت السيدة مانتك أنها لو كانت وُلدت متأخرة خمسة عشر عاماً، لكانت قد سارت مثل هذه الفتاة، ووجدت فيها الأنسة برودر نموذجاً لما تريد أن تكونه وما سوف تكونه بالتأكيد، بما في ذلك الجزء الخاص بالزواج؛ فقد أرستها حالة اللا وفرد مانتك إمكانية ذلك؛ وحدة دون تبعية، تعايش شخصيتين تحتفظ كلُّ منهما بسيادتها التامة دون صراع على السلطة، توازنٌ لطيف للقوى، مركزان تتداخل دائرتاهما دون تعقيدات، شمسان في سماء واحدة، شجرتان متشابكتان لا تسرق واحدة منهما الضوء من الأخرى وتنموان سوياً قويتين سامقتين، شعرت بهذا على الفور من الطريقة التي كان كلُّ منهما يعامل بها الآخر، كيف يشتركان بصورة طبيعية تماماً في دور المضيف، كيف يتحدثان الواحد مع الآخر، والواحد عن الآخر، كيف يترك كلُّ منهما للآخر الفرصة حتى ينتهي من حديثه، وكيف أيضاً (دون تعصُّب) يناقض الواحد منهما الآخر، مبدئياً الاحترام والتسامح، دون أن يسمح لحظة واحدة للرابطة التي توحدتهما أن تنفصم. أخذت الأنسة برودر بالزوجين، وسألت باومجارتنر عنهما، باومجارتنر، النبات الشائك الذي علّق بها، الكاتب المشهور، المغازل المدرب و(بالتالي مدرب على التكيف). أكّد لها بأسلوبه الخاص، المرصّع بتوابل السخرية، التي كان يظن خطأ أنها كفيفة بإحراز النجاح مع رابطات الجأش من النساء: «أجل، هذا هو الوضع، وقد بذلا جهداً شاقاً حتى أحرزا هذه الحالة المرهقة من الديمقراطية الزوجية، وهي ليست فحسب ضد الطبيعة، وإنما ضد العقل أيضاً، الذي يرمي إلى تحقيق أقصى درجات الراحة. قد يقبل المرء في حالة استثنائية مثل هذه العلاقة المتعبة مع عشيقه، أما مع زوجته فيجب أن يطالب المرء بإعجاب مجرد من أي انتقاد، وموهبة في التدبير المنزلي وإذا أمكن أيضاً، معرفة بالضرب على الآلة الكاتبة؛ فممنذ القدم لم يكن يُسمح إلا للغواني والمحظيات بتطوير شخصياتهن. وفي النهاية فإن جوته نفسه تزوّج من كريستيانه لا من فراوفون شتاين».

فوجئت الأنسة برودر بالطبع، أن باومجارتنر العظيم، الرجل الذي أبدع شخصيتي الزوجين اللذين يوحدتهما النضال مثل أرنا وفريتز ستيد فاست، يمكن أن يتفوّه بأشياء كهذه (سألته عن الأمر فقدّم لها نظريات الصدق الصغير والصدق الكبير والأدب الذي

يتقدّم الحياة بخطوة)، لكنها لم تغضب، منذ كانت تعرف كل شيء عن المغالين. لقد أُكِّد لها حديثها مع باومجارتنر ببساطة رأيها في عبث الحديث مع أمثاله من الرجال؛ فهو لم يكشف شيئاً عن نفسه وعن كتابة الكتب، كان يتحدث فقط لأنه يريد شفّتها، ثرثر عبّر شوارع جانبية تؤدي إلى هدفه، لم يأخذها هي — بل جسدها — على محمل الجد، لم يرغب في إطلاعها على شيء وإنما في أن يُلين من عريكتها، لم يعنِ ما قاله، لكنه قال ببساطة أي شيء وكان دائماً يعني شيئاً واحداً، شنّ حرباً خفية ضدها، وصار واثقاً من النصر، امتدح جمالها ومهارتها لمجرد أن تظنه وسيما وماهراً. ثم يتحدث عن شهرته (بل قال عندما أشار إليها أحدهم: إن البعض قد رأوا أسماءهم محفورة على الحجر، لكنه لم يكن إلا رملاً)، لكنه كان يعرف بالضبط كيف كانت شهرته تعمل بهدوء في صالحه، مثلما حدث بالضبط مع كل من عرفوه (ومن هو الذي لا يعرفه في عصر التلفزيون؟) وكان من الممكن أن تتأثر الأنسة برودر أيضاً بإدراكها أن باومجارتنر العظيم يُغازلها، لو كانت ما تزال نصف إنسان، وحيدة، كما كانت منذ بضعة أسابيع. لكنها الآن فكّرت: لست أنت، رغم شهرتك ورغم لحيتك، حتى لو كنت أمهر لما أدّى هذا إلى شيء؛ فقد فات الوقت، وحيلك لا تحقق شيئاً، لا سخريتك الطريفة ولا مكانتك ولا حتى صراحتك الأخاذة — أنا أعتقد أنك امرأة ذات أهمية (وبالتالي عشيقة رائعة) — مضى هذا الوقت، رغم أنه من الطريف تماماً أن يشعر المرء بالثقة في نفسه، وألا ينتابه للحظة واحدة الشعور بأن فرصة ما قد أفلتت منه. صدّقني إن الأمر لا يستحق كل هذا العناء، وفّر جهودك، إنك كاتب، كيف يمكن أن تعجز غريزتك من ملاحظة مدى ما ينتابني من سأم وأنا أستمع إلى نكات وحسب رداً على أسئلة جادة؟ ألا ترى العلاقة التي بين كارل وبينني، وكيف يربط بيننا رباط وثيق لا ينفصم؟ جعلها الحب منيعاً في مواجهة دوافع الإثارة الخارجية، أخصب وقوى من عزم جلدها الخارجي، لكنه في نفس الوقت وبطريقة يصعب وصفها جعل مشاعرها الداخلية تنفتح لكل ما يرتبط بالعواطف، للدفع، والجمال، والخير، ولهذا الحفل أيضاً وضيوفه الذين يُحاولون إمتاع أنفسهم. لقد جاءت كما لو كانت قد شرعت في مغامرة، وهي الآن في انتظارها.

وفوق أرض مجهولة كان إرب ما يزال يسلك سلوك القادم من أعماق الأقاليم، الذي خبئ العداء وعدم الثقة خلف ستار من الأدب، على أهبة الاستعداد لمواجهة الإهانات والتجاهل والاحتقار. وعندما لم يتلق شيئاً من هذا، تكيّف بسرعة مع الجو العام، غير معترف بنقص في معارفه، متجنباً المواجهات، ممتنعاً عن توجيه الأسئلة غير المريحة.

ومن ناحيةٍ أخرى، لم تُخَفِ الأنسة برودر شَهَوَتَهَا للاكتشافات أو انفعالها أو نفسها. كانت دائماً تريد أن ترى ردَّ فعل الآخرين أمام آرائها. كانت تعرف الخجل أيضاً. لكنَّ كبرياءها والشعور المثير بالجدید كانا دائماً يتغلبان عليه. وقد عرَفَت هذا الشعور المثير بالجدید وهي طفلةٌ عندما انطلقت لأول مرة تكتشف المدينة والناس. بادئةً بمنطقتها وما بها من متقاعدين وعمالٍ غير نظاميين، وعاهرات، وتجار سوقٍ سوداء، وباعة صحف، تقبَّلوا لحين الدولة الجديدة ^{٨٠} (التي وجدوا أنفسهم ببساطةٍ داخل حدودها) كما فعلوا مع كافة الأنظمة السابقة، خافضين رءوسهم، متوسلين بالحدز، والمكر الضروري. ثم صار عالمها أكبر، يمتد من ألكسندر بلاتز إلى تيرجارتن، ومن نوردهافن إلى كرويتز برج. كانت صديقاتها في المدرسة وفي منظمة الشباب هن بنات مُلاك متاجر الأثاث والميكانيكيين المهرة ومديري المصانع، وكان للسيدة كينااست، المدرِّسة المبجلة، تأثيرٌ كبير عليها بسبب سجلِّها القديم في الحزب الشيوعي. وقادتها المغامرات الغرامية إلى فيلات بانكو، وأكواخ العطلات في جريناو، ومتاجر تحوَّلت إلى مساكن في فريدريشهاين. وها هي الآن، لأول مرة، في منزلٍ متعدد الطوابق بكارل ماركس أليه، في مسكنٍ حديث يتجلى في أثاثه الذوق (والبذخ بالتأكيد)، ضيقاً على عضو بالأكاديمية ورجلٍ من إحدى الوزارات، لم تتأثر بنقودهما وإنما بمعلوماتهما الواسعة عن الموضوعات الهامة؛ كانا يعرفان أكثر مما يُذكر بالصحف. وأرادت أن تستفيد من ذلك، أرادت أن تعرف أي نوعٍ من الرجال يكون دكتور بروخ، ولماذا تسمح السيدة باومجارتنن لزوجها الناجح بملاحقة الفتيات الغريبات، وما يفعله كراوتفورست فعلاً في وزارته، وفوق كل شيء، بالطبع، كيف حدث أن تواجد هاسلر في هذا الحفل (لأنها لم تكن تتوقع وجود بطل سباق الدراجات تيف شور أو هيلاسلاسي)، ولماذا كان كارل يتجنَّب بوضوح الحديث الذي كان مانتك بنفس الدرجة من الوضوح، يريده معه.

كان هاسلر نفسه ما زال مدهوشاً من وجوده في هذه الصلبة، ولمَّا كان مقتصرًا على تشمُّم النبيذ واحتسائه، فقد مضى بعض الوقت قبل أن يتخلص من شعوره بأنه اقتحم هذا المكان بصورةٍ غير مشروعة. لم يكن يعرف مانتك جيداً، بل إنه لم يعرفه حقاً إلا من خلال حكايات كارل عنه، لكنه حدَّس أنه قد يكون ناضجاً جيداً وحليفاً قوياً. كان قد

^{٨٠} يقصد النظام الاشتراكي.

تلفن له وزاره، واستغرق وقتاً أطول من المعتاد ليُلقي عن كاهله بملاحظاته الابتدائية (منذ كانت مطالبة السيدة مانتك له بالحقائق والدقة قد جعلته عصيًّا)، ثم وافق أخيراً على مؤامرة العام الجديد هذه، رغم أنه لم يطمئن إليها منذ البداية؛ فقد كان النجاح مثار شك، وكان من المحتمل أن تتحطم الأمسية الاحتفالية لا بالنسبة لكارل وحده، وإنما بالنسبة له هو أيضاً.

ومن الطبيعي أنه لم يكن قادراً على التفكير في غير الحديث القادم؛ فالنساء اللاتي قد يُثرن اهتمامه غير موجودات (وبالتالي لم يكن لديه من سببٍ للرقص)، ولم تكن هناك فودكا أو بيرة، ولم يكن لديه المزاج أو القدرة على الخوض في المياه الضحلة لأحاديث الحفلات، وكانت السيدة مانتك مضيئةً ممتازة، فلم تسمح له (حتى بدأ الحديث مع كارل) بالنعاس في أحد الأركان. شعر بعدم الارتياح وتمنى لو كان في حانته الكائنة بمحطة الخط الحديدي، لا يواجهه غير مشكلةٍ واحدة هي تبُّين طريق العودة إلى منزله والذهاب إلى الفراش.

شعر بنفسه زائداً عن الحاجة، وأقل مقدرةً من الآخرين كافة. هذا هو كل شيء. كان الأمر سخيًّا، لكن لا يمكن تغييره. وقد أعربت السيدة كراوتفورست، التي كانت تهتم بكافة الرجال وتتميز بضيق الأفق عن شكوكها فيما بعدُ قائلة: «إنه واحدٌ من النوع الآخر، في هذا السن دون زواج! إن البقاء بمعزل عن النساء عملٌ غير أخلاقي بالمرة.»

لكنه كان مصيباً في عدم ارتياحه بشأن المؤامرة المرتبطة بالدعوة إلى حفل العام الجديد؛ فقد صور مانتك الأمر بطريقة لطيفة؛ حديثٌ عابر بين أصدقاء، لن تكون له سمة النقاش الرسمي أو التحقيق. لكن كيف كان في الإمكان الوصول إلى ذلك طالما أن إرب (وله بعض الحق) سادراً في عناده؟ لم يكونوا قادرين على دفعه بالرغم منه إلى مائدة المباحثات، لا هو ولا مانتك الذي تكبَّله واجبات الضيافة. دبر إرب الأمر بحيث لا يمكن مفاتحته؛ فقد كان يجلس دائماً وسط مجموعة، ولا يستجيب للنظرات. ويهربُ إلى مباريات الرقص عندما يجلس هاسلر أو مانتك إلى جواره. وكانت الفتاة أخيراً (سبب كل المتاعب، التي أخذت تزداد جاذبيةً باطراد في عيني هاسلر، منذ كانت تتخلى يومياً عن تحفظها القديم) هي التي فرضت الموضوع؛ فقد رآها هاسلر تهربُ من براثن الحديث مع اللامانتك فوق الأريكة، ثم تتحدث مع إرب. وهزُّ هذا رأسه عدة مرات ثم قطب جبينه، وأخيراً قام واتجه نحو الركن الذي استقر فيه هاسلر، وما لبث أن انضم مانتك إليهما.

في تلك اللحظة بدت حالة إرب لمانتك أكثر قتامةً مما بدت لزوجته، التي أُتيح لها في هذه الأثناء أن ترى الأمر في الضوء الذي أسقطته الأنسة برودر (وهو أحادي الجانب

لكنه أكثر إضاءة). وكما توقَّعت اللامانتك، فإن الفتاة اتجهت على الفور إلى لُبِّ الموضوع دون أن تحوم حوله: «أنت تعرفين بأمرنا؟» حسنًا، فما السبب إذن في هذه المؤامرة؟ إن النقاش بهدف تصفية الجو هو من مصلحتها أيضًا. بالطبع لا يعطي سلوك كارل هذا الانطباع، لكنه لا يستجيب للأحداث بسرعة، ويحتاج دائمًا إلى مسافة طويلة من الجري قبل القفز. ثم جاءت العبارة ذات الثقل حول موقف كارل، الذي وصفته الأنسة برودر بأنه «ثوري»؛ فقد قطع أوامر علاقته بالظروف القديمة، وما تدعو الحاجة إليه الآن (ضد المقاومة ودون تجربة) هو خلق ظروف جديدة، وهو شيء وجدته الأقوياء أنفسهم أمرًا صعبًا. «هل سيتمكن؟» أجابت الأنسة برودر بابتسامة، وسُرت اللامانتك من البساطة الأخاذة التي تعتمد بها الفتاة على قوتها الذاتية.

جلس الرجال الثلاثة يشربون ويدخنون ويناقشون الكتب كما لو كان أحد مخرجي التليفزيون يقدم برنامجًا بعنوان «الحياة الثقافية». لم يكن الفرق بين أعمارهم كبيرًا (كان هاسلر في الخمسين ومانتك في الخامسة والأربعين وإرب في الأربعين) و(باستثناء صلعة هاسلر) لا يكاد يبين، لكنك إذا ما أصغيت إليهم، ألفت إرب يعطي انطباع الشاب بين بالغين. وليس هذا بأمر يبعث على الدهشة إذا ما راعيت شعوره بأنه محاط بالأعداء الذين يحسدونه على أروع امرأة في الوجود، وشعوره بأنه يقف بمفرده؛ لأن محبوبته كانت تتحدث من جديد مع أسد الأدب وتضحك، كما لو كانت لا تدري شيئًا عن الموقف العسير الذي ألقى نفسه فيه.

جعلته الغيرة (التي سنكتفي هنا بالإشارة إليها بين قوسين، ونعالجها في الفصل السابع عشر) غير منتبه، وكان متحفظًا.

وهو ما كان غير ضروري.

أجل. لكنه كان في ذلك شأن أي إنسان آخر في وضعه. كان بوسع مانتك وهاسلر أن يتخذا قرارًا بشأنه (وبشأنها). وكونهما صديقين صالحين (وبالتالي انتقاديين) لم يُفد كثيرًا. كان كارل أمينًا بقدر الإمكان، لكنه بدلاً من أن يفكر في نفسه كان يفكر في الدفاع عن نفسه. ونتيجة لهذا، وليس بسبب نوايا المتآمرين، تحوَّلت المناقشة حقيقةً إلى نوع من الاستجواب. وقد أدَّى هذا بوجه خاص إلى لخطة مانتك، الذي لم يُنح له الوقت كي يكون رأيًا. وكانت النتيجة أن تحدث كثيرًا بمبالغة انتقادية، متحديًا كارل أن يناقضه. وما حدث أساسًا هو أن هاسلر عارض على سبيل المثال استخدام كلمة philistine التي لم تبد له جارحة وحسب، وإنما أيضًا غير دقيقة للغاية، طالما بوسعه أن

يرى أن المعاني الكثيرة للكلمة^{٨١} تشترك في شيءٍ واحد فحَسَب؛ هو أنها تُطلق دائماً على الآخرين.

لكن مانتك لم يتمسك بالكلمة. ما كان يعنيه هو أن حيوية كارل وحماسه، انتهيا بانتهاء شبابه؛ فقد صار متعباً، مستقرّاً، وهَجَرَ كافة طموحاته، وقد أضاف الآن إلى منزله وسيارته عشيقة. هل كان الأمر كذلك؟ التعبير حَشِنَ حقاً، لكنه حقيقي. كلاً؛ لأن الأمر هنا مرتبط بالحب، والانضباط أيضاً! وفي المقام الأول يتعلق الأمر بالناس. أجل، ليس فقط اثنين، وإنما على الأقل ثلاثة، والأطفال. وهنا تذكر هاسلر عبارة لماركس عن الزواج الميت الذي يعتبر استمراره دون حب أمراً غير أخلاقي، لكنه لم يجرح مانتك بذلك، منذ كان مانتك بالتأكيد ليس أخلاقياً صارماً، ولا من المتعصبين للزواج أو المعادين للطلاق. كان ردُّ الفعل لدى مانتك مماثلاً ببساطة لمن يسمع، دون أن يُلم بالظروف، أن شخصاً ما هَجَرَ زوجته وأطفاله من أجل فتاةٍ صغيرة. كان لا بُدَّ وأن يكون هذا هو رد فعل مانتك، وليس غيره، منذ كان يعرف إليزابيث ويُقدِّر أمانتها الهادئة، وكان ردُّ فعل حاداً؛ لأنه ظن أنه يتكلم مثلاً يتكلم الصديق مع صديقه.

وهو ما كان سذاجةً حقاً في هذا الوضع؛ فمن الطبيعي تماماً أن يكون إرب نفسه كالقنفذ ويُبْرِز أشواكه، بينما فضَّل مانتك أن يتحدث عن الوقت الذي عملا فيه معاً، دون نشوة أو عاطفية. كان يعتبرهما غير واقعيين، وغير لائقين، ومُدمرين؛ لأن من شأنهما تضخيم مصاعب تلك الأيام، والتقليل من شأن نجاحاتها، ومحو عظمة اليوم. وشعر إرب عن حقٍّ بالإساءة؛ لأن محصوله من النشوة ترعرع، مثلاً يحدث لأولئك الذين يتأملون بأسفٍ حماسات الماضي.

كان مانتك يملك مجموعةً كاملة من الأقوال المأثورة؛ ليس بوسعك أن تظل شاباً، لكنك تستطيع أن تستمرَّ شجاعاً، ليس هناك من قانونٍ طبيعي يُنص على أن أولى الشعرات البيضاء تؤدي بمثل الشباب إلى القبر؛ ففي بعض الأحيان تقدِّم زوجتك إكليل الجنَّاز، البعض يبتلعون مبادئهم مع عشاء يوم الأحد، ويدوسونها بالسيارات، ويُغرقونها في البيرة، ويحبسونها في أكواخ العطلات، أو يفقدونها فوق إحدى الأرائك أو في مباراة لكرة القدم أو في فراش غريب، لكن هذا لا يعني بالطبع أن الرفاهية تؤدي حتماً إلى تدهور الأخلاق، ومع ذلك فإنها أحياناً ما تنخر في عظام الإنسان وفضائله.

^{٨١} وأولها هو الفلسطينيون كما ورد ذكرهم في التوراة، ثم غير المثقفين والماديين، وأعداء التقدم، والمنافقون.

كان خطأ مانتك واضحاً؛ فقد اعتبر حافرة قبر أسلوبٍ معيّن في الحياة (أي الأنسة برودر) مُرضعةً هذا الأسلوب.

ولم يصحّ هاسلر الخطأ.

لم يصحّحه لأنه ظن أن الوقت قد حان كي يُعلّق إرب بوضوح أن اللوم الموجّه إليه قد جاء متأخراً، وأن الرحلة إلى شواطئٍ جديدةٍ قد بدأت بالفعل، وأن القارب قد ابتعد عن الشاطئ، لكن إرب احتفظ بصمته. وغضب هاسلر للمرة الأخيرة في السنة القديمة، غضب من نفسه (بسبب مؤامرة العام الجديد المجردة من الذوق)، ومن مواعظ مانتك الأخلاقية وعبوس إرب، الذي كان في الحقيقة مزيّجاً من الخوف من الشعارات (فمن ذا الذي يُعلن، تحت وطأة الاستجواب، عظمة حبه؟) والافتقار إلى التركيز.

ذلك أن العصفور كان في هذه الأثناء يرفرف بجناحيه بالقرب من الصائد، دون أن يدرك، كما يبدو، الأخطار الكامنة في دابون^{٨٢} الكياسة وشباك الشهرة التي يتمتّع بها الكاتب.

سأله مانتك: «لماذا لم تقل شيئاً؟» أجل، لماذا؟ لأنه، على سبيل المثال، رجلٌ بالغ وليس تلميذاً، ولأنه يجب ألا يغفل لحظةً عن زوجته (الجديدة) وهو في مخبئه القنفذي، ولأن هذا حفل العام الجديد وليس اجتماعاً حزيباً، ولأنه لا يحتاج إلى نصيح أو لوم، ولأن كل شيء بالنسبة له قد حُسم وكل ما ينتظره هو أن يقرّر هاسلر ما إذا كان سيضع العقبات في طريق مدير المكتبة والكُتَيْبَةِ الشابة المبتدئة. وذكر هذا السبب الأخير بلهجة توضّح بجلاء أنه ليس بحاجة إلى معونة مانتك الودية، وأن هاسلر يجب أن يُوجز. وقمّع هاسلر كل ما قفز إلى ذهنه وله علاقة بالوصايا العشر لكل من الكتاب المقدس والاشتراكية، بالخطيئة والمسئولية والتكفير، ودوره كقدوة (رغم أنه جذب انتباه إرب إلى الرأي المتطرف المحتمل، وهو أنه يستقل مركزه في أغراض غير أخلاقية)، وعدّد شروطه بجلاء ودون تزويق: قرار سريع (أي الطلاق) ونقل أحد الزوجين إلى مكتبةٍ أخرى. لم يكن مانتك راضياً عن الطريقة التي انزلت بها المناقشة إلى القنوات الإدارية، لكنه أطرّق موافقاً.

مثلما سيفعل القراء جميعاً.

^{٨٢} مادة لزجة لاصقة تُطلى بها الأغصان لالتقاط صغار الطير.

وعندئذٍ دَقَّتِ الأجراس، وفُرقَعَتِ الألعاب النارية، وصاح الناس «عامٌ جديدٌ سعيد»، ورُفِعَتِ الكُئُوس، وتُبُودَلَتِ القبلات، وشُرِبَتِ الأنخاب (لن تهمهم التفاصيل: شمبانيا القرم).

وردَّ إرب. لم يُعطِ واحدًا. كان لديه شيءٌ أكثر أهمية، وهو إبعاد الكاتب عن الأنسة برودر.

١٧

نتناول الآن في عُجالةٍ غيرة إرب.

كانت عظيمةً مثل حبه. كافح بثباتٍ ضدها، وكان يخسر دائمًا. عندما نتحدث عن سعادته، فيجب أن نذكُر أيضًا تعاسته.

اكتساب القداسة عن طريق جَلْد النفس بالسياط؟ هذا كثير؛ فقد عَذَّبها بغيرته أكثر مما عَذَّب نفسه. ولماذا؟ لأنه كان مدرِّكًا لتقلُّبه، وجعل الأنسة برودر تدفع الثمن. لم يكن في حاجة إلى أسسٍ للغيرة كي يختلق بعضها؛ فقصة دعوة رأس السنة قصةٌ تقليدية. وبدايتها واحدة لدى الجميع؛ فمشكلة رأس السنة تُطرح جانبًا حتى يأتي الكريسماس، وعندئذٍ تصبح ملحة. ماذا نفعل؟ الاختيارات كالآتي: الاحتفال في المنزل على انفراد، الذهاب إلى مكانٍ ما، الراحة والنوم، التفرُّج على الآخرين يحتفلون من أجلهم على شاشة التلفزيون، معاناة الملل في بار، دعوة أصدقاء، أو الحصول على دعوةٍ لدى أصدقاء، تكلمًا، ناقتشا، وقرَّرا، ثم عدَّلا القرار حتى استقر على: سوف نحتفل على انفرادٍ ما لم تصلنا دعوةٌ واعدة. لكن ممن؟ هؤلاء لن يدعوهما، وأولئك لم يعرفوا بأمرهما، وإلى هؤلاء لن يذهبا، وإلى أولئك ربما يذهبان، كلا، الأفضل لا، كلا، سوف يبقيان بالمنزل. وتظهر صديقةٌ من أيام الدراسة: كيف الحال؟ ألم تتزوَّجتي بعد؟ لم أرك منذ قرون؟ ماذا ستفعلن في رأس السنة؟ ويُتلِفَن زميل من كوبينيك: ماذا ستفعلن في رأس السنة؟ إنه مجرد سؤال، أجل، أجل، حسن. وتَسأل فراو فولف من الباب: أنا أُعدُّ فطائر العيد فهل أُعدُّ شيئًا منها لك أيضًا؟ هناك برنامجٌ جديد في التلفزيون. وتتنوَّع الإجابات، لكنها جميعًا تتلخَّص في لا، حتى يتلفن مانتك ويطلب إرب مهلة للتفكير. وفي المساء يشرح لها موقف «لكن - من - الناحية - الأخرى»، ويترك لها القرار، لكنه يخشى أن تقول لا؛ لأنه سَعد بأن تُتاح له أخيرًا الفرصة ليظهر معها أمام الناس الذين سيقدِّرون كم هي فريدة. لكنها عندما تقول أجل، بسرور (لأنها تشعر بمدى ما يُعلِّقه على المناسبة من أهمية، وتعرف قدر مانتك لديه) يتحوَّل اتجاه

مشاعره، وربما الأفضل أن نقول (حتى نُعد ذهن القارئ للاستعارة البحرية التالية) إن اتجاه الرياح يتغيّر من الجنوب إلى الشمال. إنه يبدأ على الفور يفكّر: لقد ملّنتي بسرعة، إنها تريد الالتقاء برجال آخرين، ويتصوّر الأمر كله في كل تفاصيله؛ أول اتصال جسدي في حلبة الرقص، أول ضمة يد، الحديث التافه، وبدايات الحقد على الزوج التعس الذي يُفسد عليها متعتها، التواعد الذي يتم عند الافتراق بسرعة حتى لا يلحظ أحد شيئاً (ففي تهَيُّؤات الغيرة لدى إرب لا تبخل النسوة بعطاياهن إذا ما توفّرت عوامل الكتمان والحذر). لكن هذه المعاناة الأولية لا تكتمل في صورة واضحة، وتبقى مجرد اضطراب خفيف للمياه لا صوت له أحدثته رياح الشمال، ولا تثور الأمواج إلا بعد عبور محيط العذابات. ويحدث هذا في رأس السنة، بينما هما في طريقهما إلى المنزل فوق الجليد، الذي يغطّي على صوت وَقَع الأقدام كأنما تكتسي خفوقاً. شارع كارل ماركس أليه: أعجَبَكَ الحفل إذن، حسناً، حسناً، ولم لا؟ اللامانتك على وجه الخصوص، إيه؟ وباومجارتنر؟ طاووس؟ لكنه وسيم بالتأكيد. ميدان ألكسندر بلاتز: هُراء، لا يتقدّم رجل بمثل هذا الاقتراح إلى امرأة دونما تشجيع من جانبها، وعلى أية حال فإنه لا توجد الزوجة التي تروى كل شيء لزوجها، أبداً؛ فالجميع يَلَوْن الحقيقة قليلاً في مثل هذه الاعترافات. شارع دير كزنشتراسه: إذن فهي لم تلحظ كم كان يعاني، حسناً، لا أهمية للأمر؛ فقد كان الشيء الرئيسي بالنسبة لها هو أن تضع يدها على ذراع المقعد حتى تتمكن الأصابع العنكبوتية لهذا العاشق المحترف من مداعبتها. ميدان هاكشر ماركت: لم تكن ضحكاتها تبدو ملولة، لكن لماذا يجب أن تُؤخذ الأمور بهذه الجدية، وهناك الكثيرون هكذا، مجرد حياتين متوازيتين، وهناك الحفلات لتقدّم لهما التنوع؟ ولم لا؟ بوسعه أن يفعل هكذا أيضاً، كل ما في الأمر أنه حتى الآن كان يفترض أن هذا شيء غير ممكن بينهما، لكنهما بالطبع يستطيعان الاتفاق، فيفعل كل منهما ما يشاء عندما يشاء، وربما كانت هذه هي الإمكانية الوحيدة بالنسبة لها، منذ كانت معتادة دائماً على التنوع، وتفتقده الآن كما هو واضح ... إلخ، حتى بلغا تمثال شاميزو بقُبُعته الجليدية، حيث تتمكّن الأنسة برودر أخيراً من التخلص من خوفها المتجمّد وتقول لنفسها: هدوءاً يا فتاة، هذا أشبه بمرض لا يمكن مواجهته بالمنطق أو الغضب، وإنما يحتاج إلى التمريض والكمادات المرطبة. عندئذ يستمع الشاعر الحجري (الذي يحتفظ بأذنين أسفل شعر الخنافس) إلى إعلان مبادئ من جانبها، قدّمته في صوت هادئ، وأجابت فيه على هُرائه، محلّلة، موضّحة، واعدة، حتى يحو قطارٌ عابر الباقي، وتتمكّن بالفعل من إيقاف الرياح العاوية، وتهدئة الأمواج الثائرة. حتى يسطع القمر والنجوم من جديد، عند المقبرة اليهودية القديمة، فوق المحيط الوداع لروحيهما.

هو نفسه لم يكد يعي جهاز مسك الدفاتر الداخلي لديه، عندما سجل تحت الرقم واحد مادة: مغازلة باومجارتتر. وكان أقل من ذلك وعياً بعلة ضيفه الذي كان يجب أن يعبر عنه بهذه الكلمات: ماذا تظنين نفسك فاعلة؛ إذ تتخذين قراراً بأن أناقش الأمور مع هاسلر ومانتك؟

١٨

العودة من المسكن الفاخر ذي التدفئة المركزية في كارل ماركس أليه إلى الجناح ب. لقد ارتقى كارل إرب سلّم هذا الجناح لأول مرة مغامراً رومانسياً، وبعد أن عاش به أربعة عشر يوماً صار محللاً طبيعياً، السقف يكاد يبلغ النجوم ... مثل هذا الحماس يتلاشى عندما تهز المطبعة المجاورة الجدران في الرابعة صباحاً، وعندما يسيل الثلج الذائب من السقف بالقرب من الجدار الخارجي، وعندما يكتسي بياض الجدران ببقع الرطوبة، وعندما تتسابق الفئران والقطط بالليل عبر السندرة وتنخر الجدران، وعندما تعزف الرياح كونشرتات دقيقة بمصاحبة القطرات المتساقطة من الميازيب، وعندما تتقيأ الحانة المقابلة كل منتصف ليل رجالاً مزهوئين بقدراتهم الغنائية، وعندما يحول ضغط الغاز المنخفض في الصباح عملية إعداد القهوة إلى لعبة صبر. أشياء صغيرة.

هذا حق، لكن الحياة كلها تتألف من أمثال هذه الأشياء الصغيرة، مثلما يتألف الحبل من خيوط رفيعة كثيرة. إن الأعوام تتألف من شهور وأسابيع وأيام ودقائق وثوان، والأفعال العظيمة يمكن تجزئتها إلى آلاف من الأفعال الصغيرة، والمجلد السميك لن يكون شيئاً دون صفحاته وحروفه، وأخيراً الأفكار لا يمكن التوصل إليها دون العديد من الملاحظات الصغيرة. إن للأشياء الصغيرة قوة، وهي في حالتنا هذه قوة الإنهاك؛ فلم يكد كارل يتمكّن، في أعقاب طيور منتصف الليل المغرّدة، من بسط ملاءة النوم فوق مُخه المتوقّد، حتى طعنه الصفيّر الحاد لغلاية. كانت السيدة فولف تُعد قهوة، في الثالثة والأربعين دقيقة صباحاً. عبثاً دفن رأسه في الوسادة، وعدّ إلى الألف، وأدار عينيه في محجرتيهما دون أن يفتحهما، وأعطى لنفسه أوامر موحية ذاتياً بالنوم؛ فقد جعل يصغي إلى الضجة المنبعثة من الباب المجاور؛ مونولوج مبهم، قعقة الفنجان على الطبق، صرير تقليب السكر، تكة مفتاح الراديو، موسيقى الصباح الباكر المرحّة حتى أول إشارة للوقت، رنين المنبه، ثم اصطفاقه، قفل حافظة أوراق، صليل حزمة مفاتيح، وانفتاح باب المسكن. صمت متوتر؛

لأن آلات الطباعة ستبدأ الدوران على الفور غالباً. لكن الآلات لم تكن في دقة محافظة السيدة فولف، عاملة النظافة؛ لأنها تتأخر دائماً بين خمس وعشر أو عشرين دقيقة قبل أن تبدأ العمل بزمجرة مكتومة لم تلبث أن صارت زئيراً، قاطعته بعد ثوانٍ قليلة خبطاتٍ منتظمة. اهتزَّت الجدران، ومعها جسد كارل، لكن التوتر تبعه نومٌ عصي على الزوال (أخيراً الآن) في السادسة، عندما خشخش طعام الحمام في البرج، وبدأ الحمام يلتقطه. أصبحت الآن الدقائق الخمس القديمة التي كانت تفصل بين رنين المنبه والنهوض، ثلاثين واحدةً تفصل بين تناول الحمام لطعامه ورنين المنبه، هي أكثر دقائق اليوم إرعاباً. لا بسبب آلام الظهر أو الإرهاق، لكن بسبب سلسلة الصور التي تدافعت في مُخه المستثار، بينما كانت محبوبته، إلى جواره، أعلى منه، وأبعد ببياردة واحدة، فوق الأريكة، تنتفع بكل دقيقة من النوم، دون صوت، وغافلة عن كل شيءٍ آخر.

وأظهره الفيلم الداخلي الذي أخرجه، في مكتبة مركزية بالريف، في غرفةٍ بالية رثّة (المَغسل في الفناء) بنصف الراتب، أو في الاجتماع الحزبي الذي انعقد لمناقشة قضيته، أو في غرفة المحامي الذي كان يسأله عن تاريخ آخر ممارسة للعلاقة الزوجية، أو أراه نفسه واقفاً أمام محكمة الطلاق إلى جوار إليزابيث الباكية، وأعاد الفيلم أكثر من مرة مشهد غرفته الخالية المُطلّة على نهر شبريه، والبروفسور الصائد الأسماك وفراشه (بالمرتبة المعدنية)، وكُتبه، وحمام الصباح، ومائدة الإفطار المرتبة المزينة بالزهور، وطفليّه. وباختصار: كان يخوض في مستنقع من القلق والرثاء للذات.

لكن هذا لم يكن يحدث إلا عندما ينتابه الأرق. وقد كافح ضده ... بلا جدوى. كان بوسعه أن يتخذ إجراءاتٍ مضادة، مثل القراءة. وقد اقترحت ذلك الأنسة برودر أكثر من مرة عندما تحدّث هو (دون ذكر التفاصيل بالطبع) عن الأمر، وقالت إن الضوء لن يُضايقها، وإنها على العكس، ستسعد إذا تنبّهت على وجوده، ثم تعود إلى النوم. لكنه لم يفعل ذلك أبداً؛ فقد فضّل أن يراعي مشاعرها ويعذب نفسه؛ لأنه بذلك صار الشهيد، وأصبحت هي مدينةً له.

إن كل راغب في المعاناة سيجد دائماً من يعذّبه ولو كان شخصاً نائماً. خيالاتٌ سيكولوجية، تصبح غير ممكنة التصديق عندما تعرفون قدر الروعة التي التمسها في مراقبة يقظتها. كانت تلك مصدر إثارة لا تنتهي لديه.

لكنها سرعان ما كانت تقضي على هذه المتعة بالاختفاء. كانت تؤمن بأن الحب يمكن أن يُضارَّ من تبادل الغزل في غرفة لم تتم تهويّتها، وبأسنانٍ لم تُنظف، وشعرٍ لم يُمشط،

فإذا كان قد أَلْفَهَا جميلة، فإن هذا كان مبعث سعادتها، لكنها اعتبرتَه خطأ، يجب تأجيل اكتشافه أطول مدةٍ ممكنة؛ ولهذا السبب كانت تفضِّل ألا ينظر إليها قبل الإفطار. كما أنها لم تستطع التعوُّد على انطلاقه في الحديث عند استيقاظها عن نوع النوم والأحلام وأفكار الليل. كانت تحتاج بشكلٍ حاسم إلى المدة الفاصلة بين الاستيقاظ والعمل كي تنظِّم مجرى اليوم في ذهنها. لم تُضطرَّ أبدًا من قبلُ للحديث قبل الذهاب إلى المدرسة أو العمل. هكذا كانت تتنَهَّد في ارتياح عندما يرتدي منامته أخيرًا ويغادر المسكن.

كانت أنابيب المياه، والصرف، وبالتالي مرحاض، قد ثُبِتَتْ فوق منبسطات الدرج الخلفية، لكن هذا حدث ولا شك منذ سبعين أو ثمانين عامًا. وبالرغم من ذلك كان ثمة أناسٌ لم يتعوَّدوا شد سلسلة المرحاض بعد استخدامه، رغم وجود تنبيهٍ بهذا المعنى، كُتِبَ بصورةٍ منمَّقة لكن للأسف بطلاءٍ غير مضيء. كان مثل ذلك الطلاء ضروريًا حقًّا؛ لأنه لم يكن ثمة نور، ولا بدُّ لك في كل صباح ومساء شتويَّين أن تتلمَّس طريقك في الظلام، فإذا ما نسيْتَ أن تحمل معك مصباحك الكهربائي (كما كان يحدث لكارل دائمًا)، كان عليك أن تترك الباب مفتوحًا وتعتمد على نور السُّلم الأوتوماتيكي الذي يضيء لمدة دقيقتين، وكان هذا يُثير حفيظة آل جرون الذين يعيشون على نفس المنبسط (خلف الباب ذي اللون الأزرق السماوي) ويدفعهم إلى تكتيكاتٍ دفاعية-هجومية، يتولى تنفيذها الصبيةُ الثلاثة ذوو الشعر الأحمر، فيندفعون من مسكنهم مُستنكرين زاعقين، ويُغلِقون باب المرحاض، بل إنهم ذات مرة أغلقوه بالمفتاح من الخارج، وظل كارل الذي لم يكن يودُ الإعلان عن الموقف بإحداث ضجيج، ينتظر في الظلام حتى انتابت الأنسة برودر الشكوك وخفَّت لتحريره.

كان يضيق بشكلٍ خاص بلقاءات السُّلم التي تتم في البيجامات وقمصان النوم، وهي لقاءاتٌ يتكرَّر حدوثُها رغم أنه كان يُصغي طويلاً لأية أصوات من أعلى أو أسفل وهو موشك أن يتجمَّد من البرد، ناقلًا ثقل جسده من ساق إلى أخرى، قبل أن يغادر المرحاض. ومع ذلك كان لجارتها السيدة لانجه، وهي أرملة عامل في السكة الحديد ومتقاعدة، سلوكٌ مثالي؛ إذ كانت تبقى في الفراش حتى العاشرة، ولم تكن على أية حال تستخدم المرحاض، وهي ظاهرة لم تستطع الأنسة برودر أيضًا أن تجد لها تفسيرًا (اعترفت بأنها طالما تساءلت عن سر الأمر).

عندما عاد كانت محبوبته ما تزال تستأثر بصنبور المياه والمرآة. لم يكن مسموحًا له أن يلمسها في هذا الموقف، لم يكن بإمكانه أن يُقبِّلها على كتفها العارية أو يتطلع

إليها، ولم تكن أيضًا تقبل بقاءه في المطبخ لإعداد الإفطار. وأمام هذه القيود على نشاطه، انصرف إلى إعداد الفراشين في حجرة المعيشة - النوم - الأكل - العمل. «ماذا تفعل؟» - «أرتب الفراش». «لكن لا بدُّ من تهويته أولاً.» هُدَّ في ضيقٍ ما أنجزه، وفتح النافذة في عنف، وتجمَّد. لقد اقتصرَت تمارين الصباح على عددٍ قليل من ثنيات الركبة الحذرة؛ فلم يكن ثمة مكانٌ لقذف الذراعين إلى أعلى، وأي تلويحٍ بهما كان كافيًا لإحداث كارثة، «بوسعك أن تغتسل الآن.» واختفت في الرِّدْهة. كان جسده يتعطش إلى المياه الباردة منذ لحظة استيقاظه، لكنه الآن كان يرتعش في المطبخ المجرد من التدفئة وهو يؤدي طقوس الاغتسال المُتعبة في فانيته، ولم يكد يبلُغ منتصفها (حتى بطنه) حتى عادت ووقفت في المدخل مسرورةً برؤيته هكذا. «أنت لا تُحِبُّ أن أتطلع إليك. اذهبي إلى الغرفة.» بُعِثَت للهجته وانصرفت (وفي صباح اليوم التالي والأيام اللاحقة كانت تمرُّ به كأنه غير موجود مما أثار حنقه). وسرعان ما كانت قد ارتدت ملابسها وعادت إلى المطبخ قبل أن يجفَّف نفسه. التصقَّت ببيجامته بظهره المُبتل. «أسفة، ولكن يجب أن أُعد القهوة وإلا تأخرنا.» يا له من مرعبٍ صوت دَعك الأسنان بالفرشاة عندما يصل إلى مسامعها! وعاقبها بالصمت حتى عندما جلسا يتناولان الإفطار في مقعديهما المعهودين وقد استقرَّت خلفه على الأريكة، وإلى جواره على الأرض أغطية الفراشين وبيجامته ومنامتها، فتناولت يده: «لا تغضب. غداً سننظِّم الأمور بطريقة أفضل.»

وكل صباح كانا يبغيان تحقيق هذا التحسُّن، لكنهما لم يتمكنَا أبدًا. «إن منظر الفراشين دون إعداد يُفسد شهيتي.» - «لكن لا بدُّ من تهويتهما.» - «لا أريد أن أضايقك، ولكنني أعتقد أن هذا القول من مزاعم العجائز. إن الهدف من التهوية يتحقق أيضًا إذا ما سُوي الفراش على الفور. كل ما في الأمر أنه يستغرق وقتًا أطول.» - «لكن فُكِّر فقط لحظة: أنت تعلم أن الأغطية تمتص العرق أثناء الليل.» - «أنا لا أفرز عرقًا في هذه الدرجة من الحرارة.» - «كل الناس يعرقون بالليل.» - «حسنًا، حسنًا، أنا أعرق بالليل رغم أنني أتجمد من البرد. لكنك بالطبع لا يمكن أن تُصدِّقي أن البلل يمكن أن يتبخر في ظل الرطوبة السائدة بالغرفة.» - «إن الأمر يتعلق أيضًا بروائح الجسد.» - «على أي حال أنا أشعر بالرعب عندما أفكر أنني عائد إلى منزلٍ منكوش الأسيرة.» - «أنا أرتبها دائمًا بمجرد عودتي، وبينما تغتسل أكون قد فعلت.» - «أنت تنسين أن عندك اليوم مناوبة متأخرة.» - «مرة واحدة في الأسبوع فقط.» - «أرجو أن تغفري لي عشقي الشديد للنظام والنظافة.» - «ربما كان ذلك علامةً على افتقاد الطمأنينة الداخلية.» - «ربما كان علامةً على النظافة الداخلية.»

هكذا كان مزاجه المنحرف في الصباح يُعبر عن نفسه، بلا انفجارات، ولا صوتٍ مرتفع، دائماً تحت السيطرة. مرة كان ذلك بشأن نقص الصحف، ومرةً أخرى بشأن غرامها بوضع الزبد على المائدة في غلافها، وثالثة بسبب مِطفأة السجائر الممتلئة من الليلة السابقة، وفُتات الخبز المتبقي في المُربى، وطريقتها في إشعال الموقد. حاول كلُّ منهما أن يُبقي على نبرة الودِّ في صوته، وخاطب كلُّ منهما الآخر بحبيبي، لكنَّ كلاهما كان يدرك صعوبة ذلك بالنسبة للآخر. كل مساءً كانت تقرّر التزام الصمت، وكل صباح كانت تُدافع عن نفسها، وتخترع الأسباب لعاداتها وتزداد عناداً.

«لا تغضبي يا حلوتي، لكن رائحة السجق التي تأكلينه في الصباح تصيبني بالغثيان.» - «هكذا فجأة؟» - «كنتُ أتجنب الحديث عن هذا من قبل.» - «كان يُسعدني أن أكل معك المربى يا حبيبي، كأبي ألمانية صميمية، لكني ببساطة لا أستطيع ذلك؛ فالأشياء الحلوة في الصباح تقلب معدتي.» - «أنا أدرك ما تعنيه تماماً؛ فهو نفس شعوري بالنسبة لهذه القهوة، هل تُحبينها حقاً هكذا؟» - «كيف؟» - «بتفلهها.» - «بالطبع؛ فالقهوة المصفأة من التفل تصبح أقرب إلى الماء.» - «أبدًا، إذا عرفتُ كيف تصنعينها.» - «لكن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً.» - «هكذا كنتُ أظن، ولكن هذا غير حقيقي. استمعي لي: بينما ...»

أن تلتزم الصمت كان أمراً صعباً ... فنصائح الرجال بشأن التدبير المنزلي تمثل إهانةً لأولئك النسوة اللاتي ليس لديهن مطبخٌ في أن يصبحن ربّات بيوت (فردٌ فعلهن يمثل ردّ فعل الرجال في حالة الرياضة). لكنها لم تهاجم أبداً، واكتفت بالدفاع عن نفسها ضد ما هو (كما ظنّت) بقايا شهوة الرجل للتفوّق والسيادة (وشعرت بالسعادة أن هذه البقايا لا تظهر إلا في التفاهات)، وظلّت دائماً الأقوى، لا لأنها كانت تسيطر عليه، وإنما كانت تُسيطر على نفسها، ولم تقل أو تفعل إلا ما أرادت أن تقولهُ وتفعله فحسب على العكس منه.

هذا حقيقي، ولكن بالنسبة إليه كان أكثر صعوبة. كانت تُعاني منه وحسب، أما هو فكان يعاني منها ومن المحيط الجديد غير المألوف الذي يقبض الصدر؛ فهناك حقيقة يعرفها الجميع، وهي أن الهبوط من مستوى معيشة معينٍ حقّقه المرء يُعتبر صعباً للغاية، بل عقوبة (إن المرء ليُضحي بالكثير كي يتجنّب هذا المصير!).

لكن ما يدعو للسخرية هو أن تطالب من لم يعرفوا أبداً هذا المستوى الأعلى بتفهم هذه الحقيقة، مما يدفعهم إلى الضحك، ولهم الحق. وإذا كانت الأنسة برودر لم تضحك، بل حاولت أن تُبدي تفهمها للأمر، فإن هذا لا يُبرهن إلا على مدى عشقها له.

مثل عشقه لها، دائماً. لكن بوجه خاص في العمل؛ حيث يستطيع أن يراها ويسمعها وهو بعيدٌ عنها، أو عندما يأتي ذكرها على لسان أحد، أو حتى في الصباح عندما يعذبها دون قصد، أو في المساء عندما يعود إلى المنزل مبكراً، ويشعر بالضيق بسبب الأسرّة غير المرتبة. ثم كان هناك ذلك العنصر (الذي أسمياه ذات مساء عندما استطاعا الحديث عنه في هدوء، بثورة الأعصاب، أو السيكو-دكتاتورية) الذي يتمكّن منه دون أن يمس شيئاً من حبه. وهكذا عندما تكون لديها مناوبة متأخرة، يتولى هو إعداد الفراشين، ويكتشف الأتربة تحت الأريكة وفوق الصوان، وعلى الأرفف، والوساخة على قاعدة النافذة، ويشرع في الكنس والمسح والدّغك (وهو ما يمثّل انتهاكاً لاتفاقية تقسيم العمل بينهما التي كان بمقتضاها مسئولاً عن الموقد والفحم وإناء الفضلات والتسوق) بدلاً من أن يقرأ ويعمل أو يستمتع بالمسكن الفارغ كما كان العزم. ويعمل في حمية مشحونة بالغضب منها لإهمالها، والحنق على نفسه لأنه لا يتحمل الوسخ. وتفيض جوانحه بمشاعر الإشفاق على الذات ممزوجة بالانتصار للعقاب الذي يُعده لها؛ فلسوف تتضاءل من الخجل عندما ترى أنه قام بعملها أيضاً، وسيتعين عليها أن تكون شاكراً للجميل، بل وأن تُبدي السرور، لكن هل سترى ما فعله؟ ولأنه لم يكن واثقاً، فقد ترك الستائر معقودة، والمقعد فوق الأريكة، وجردل المياه أمام دولاّب الكتب، وقرأ ودخّن بعض الوقت، وفي السابعة والنصف عندما وصلت، كان راكعاً على قدميه يدعك الأرض. وقفت في المدخل وخلعت معطفها ببطء. لو لم ينتبها الخجل، فلا بُدَّ على الأقل أن يستولي عليها الغضب، وهو ما حدّث (رأه على وجهها، دون أن يتمكّن من وصف ما رآه هناك بالتقريب)، لكنها سرعان ما كبحت جماحه وشرعت تضحك؛ فقد أدركت مؤامرتة. ولم يكن أمامه سوى أن يُشاركها الضحك، وقد اختفى توتره الغاضب، وأمكّنه أن يذكر لها ما حدث بالضبط معه ومع دكتاتورته، وتحول الأمر إلى أمسية تفيض محبة.

كانت كل أمسياتهما معاً رائعة، ولم يكن اكتفاؤهما بالحب يطول أكثر من ساعات قليلة؛ إذ سرعان ما يكتشفانه من جديد (ويكتشفان جوانب جديدةً منه حتى عندما لا يطلبان ذلك). كان العالم يفيض بالأشياء والأفكار التي لا بُدَّ أن يختلفا ثم يصلا إلى التفاهم بشأنها، وكان ما يحدث في المكتبة مثار نقاش يستمر ساعات، وكانا دائماً يكتشفان تفاصيل جديدةً في سيرة كلٍّ منهما لم يأت ذكرها من قبل. الشيء الوحيد السلبي هو أنه لم يتبقَّ لهما وقت للقراءة أو العمل. وكتعويض عن ذلك صار كارل يُنجز في مكتبه أكثر من ذي قبل، وهكذا تم مشروع مكتبة الحديقة. وعين ريبولوس مسئولاً عن الإعداد لها، وتقرّر شهر مايو موعداً لافتتاحها.

«رأيتك اليوم مع هاسلر. هل كنتما تبحثان أمر هذه المكتبة؟» - «كلا. كنا نتكلم عنا.» - «ولم تحكِ لي إلا الآن؟» كانت تكره عادته في الخوض عبْر بحر من الأمور غير الهامة قبل أن يبلغ شاطئ الأهمية؛ لأن ذلك كان يجعلها في خوفٍ دائم عند كل حديثٍ غير هام من مفاجآت كهذه تأتي على غرّة. بحث هاسلر قضيتها مع إدارة شئون العاملين، وترى الإدارة أنه لا بُدَّ من ذهاب أحدهما. إذن ليس هناك جديد؟ حسنًا، أجل، إنهم يريدون الحيلولة دون النتائج السلبية التي ستلحق بالمجتمع. الأطفال؟ كلا، المجتمع هنا يعني الحي، والحياة الثقافية في الحي، التي يجب ألا تُضارَّ من جرّاء فقدان مدير مكتبة مجرّب وأهل الثقة. إذن هي التي يجب أن تذهب؟ أجل، لكن المجموعة الحزبية ستناقش الأمر أولاً، وسوف يكون هو كارل إرب حاضرًا، لن يغيّر هذا شيئًا في الأمر؛ لأن الرفيق إرب سيُقر، عن حق في رأيها، بأن الأمر يستوي بالنسبة للمكتبة: أكانت هي التي تعمل بها أم كراتش. هل هذا حقًا هو ما كانت تعتقده؟ بالطبع، لكن هذا ليس هو رأيه، وقد قال لهاسلر: كلا، أبدًا. هل يخشى أن يحدث شيء لحيبهما لو اضطرّا إلى الحياة متباعدين لحين؟ ألا تفهم أنه لا يستطيع ببساطة الحياة دونها، ولا ليوم واحد؟ لماذا لا يرحلان سويًا إلى الريف مثلًا؟ كيف جاءت هذه الفكرة؟ منه بالطبع لكنه يعرف قَدْر المدينة لديها. «إنني متمسكة بك، وأعتقد أنه من المفيد لنا أن نرحل من هنا، ونترك خلفنا كل شيء.» - «هذا معناه الفرار.» - «سوف يكون بدايةً طيبة.» - «هل تدرकिन كم سيصير دخلنا؟» - «ولم لا، عندما تحضّل على الطلاق.» - «سيكون ذلك تضحية من جانبك، ولستُ أريد ذلك.»

لكن الأمر لن يكون فيه أي تضحية، كم مرّة قالت له ذلك؟ إنها في حاجة إلى القيام بأنواع مختلفة من النشاط التطبيقي قبل أن تضع خطة دراستها موضع التنفيذ، فلم لا تبدأ بمكتبة ريفية؟ لكن ذلك سيكون تضحية من جانبها. كلا! أجل! كلا على الإطلاق! أجل، والآن يجب إغلاق النقاش في هذا الموضوع. لقد قرّر رأيه على ألا يهرب وأن يتمسك بموقفه ويكافح، وهو قرارٌ نهائي.

وعندئذٍ قدّم فيضًا من أيمان الحب والإخلاص المغلظة (التي يمكن إغفالها هنا)، وانتابها القلق ألا يكون حبه قويًا بما يكفي للصمود في وجه الاختبار.

وبعدما حان دور الملاءات والأغطية، ونفخ المراتب، ورحلة المرحاض وصنبور المطبخ المتلج. الذي شغلته مدة نصف ساعة لتُعد زينتها الليلية بينما وقف هو في النافذة عاجزًا عن القراءة من جرّاء حنقه على هذا التعطيل. حرّم على نفسه التفكير في إليزابيث (التي كانت ما تزال بلا تجاعيد، رغم أنها لا تلجأ إلى مستحضرات الغسيل والكريمات المغذية)، واتخذ

قراراً بالأُبيدي غضبه، لكنه فعل رغم ذلك. ونتيجةً لهذا جعلته يتقدمها إلى الصنبور، ثم يلجأ إلى الفراش فينام بينما تقوم هي بزينتها، وعندما تلج الحجرة تُوقظه مما يعني أن يظل عاجزاً عن النوم عدة ساعات في انتظار مُغني الحانة، واستيقاظ السيدة فولف، وبدء تشغيل آلات المطبعة، مُفكراً أثناء ذلك في مكتبات القرى المنعزلة، وجهي طفليه النائمين وموضوعات الإنشاء المدرسية الخاصة ببيت، بينما يُسجل كاتب حسابات عقله الباطن خانتين جديدتين؛ رقم ٢ (العناد) ورقم ٣ (غرام بالزينة)، وفي نفس الوقت يتلهف على حلول الصباح، على استيقاظها، وأول كلمة منها؛ فعندما تنام لا يملك دفاعاً عن نفسه ضد الصور الشبحية.

أما من دواء؟
أجل، حبة منومة.

١٩

رحلة في يومٍ أحدٍ شتوي خالٍ من الجليد، كانت هي للغرابة، التي طلبتها. «منذ متى شعرت بنداء الطبيعة العظمى؟» أليس من حقها شيء من التغيير؟ - «إلى أين؟» كانا قد استقرّا في السيارة تحت ملاحظة باشكه. «إلى نينهاوزن.» - «كما تود السيدة. أين تقع؟» - «لا أعرف.» كان أطلس الطرق على المقعد الخلفي؛ نيلبن، نيللشوتس نيمت، نينكرسدورف، نينهاوزن ١٨ ج ٣، هذا يعني اتباع طريق السيارات الرئيسي. «كلا. أود أن نذهب عبر القرى.» - «سمعاً وطاعة يا سيدتي.»

بدأت الشوارع فسيحة بسبب خوائها المألوف في صباح الأحاد. وتثاءبت صالات المحطة الشرقية في ملل. «بماذا يوحي اسم شترالاو؟» - «مهرجان الصيادين.» - «ضعيف.» - «وأنت؟» - «أخطاء ومغالطات فونتانه.» - «تكسبين.» ... وعند بلينتر فالد بارك بدا كأنهما بلغا الريف، لكن كل شيء سرعان ما بدا من جديد؛ مجمعات المساكن الجديدة والمصانع والمجمعات السكنية القديمة والمحطات، والحوانيت وحدائق وأكواخ العطلات، والسقوف السوداء في لون القار، لقد تحلّت المدينة قبل أن تبدأ حدودها بكثير، وتباهى المطار بطوله الذي لا ينتهي. وكانت الحقول العارية مخيبة للآمال، وإلى اليمين انتصبت مراكز حراسة الحدود، أسلاك شائكة تصدأ في سلام. بماذا تُوحي «كلاينماخوف»؟ - «تسيلندورف.» - «غلط.»، تلتوف، شتانزدورف، باللسبيرج؛ لا تُوجد ضاحية بغير مدينة. «بماذا تُوحي بوتسدوم؟» - «فريتز العجوز.» - «قديمة. مؤتمر بوتسدوم، اثنان لصفر.»

دفعَت الرياح بقطْع الجليد الطافية عَبْر بحيرة شفييلوف، فتكسَّرت في ضجَّة قرب الشاطئ كأنما دقَّت أجراسُ حادة تحت الماء وبينما انزلت بجعات نهر الهافل التي رَوَّضها الشتاء، وما تزال تزهو بالشهرة التي أسبغها عليها فونتانه. وعند فردر انتصر الشاعر موجشترن على أشجار الفاكهة المنيعة. وبدت براندنبورج من آثار القرون الوسطى والعصر الحديث على حدٍّ سواء، غير بروسية بصورة تدعو للارتياح، لكن السيدة لا تريد التوقف هنا، خوفًا من أن يجد السيد فرصته لإنعاش ذكريات مغامرة الشتاء والحرب؛ ذلك أن قصص الحب غير المكتملة هي أكثرها دوامًا.

وهكذا انطلقا إلى بريلوف، لكن الفندق كان مغلقًا هناك بسبب الإصلاحات، وفي راديفيجه بسبب الجرد السنوي، وفي بوتسوف بسبب فرار أصحابه إلى الغرب (منذ ثمانين سنوات)، وفي كيتسيور بلا سبب على الإطلاق. لكن بحيرة بيتس ما تزال قائمة (فريتزة بولمان،^{٨٣} ثلاثة لواحد!) ومقسَّمة شمالًا وجنوبًا إلى مياه وتلج، وكان خط الحدود الجليدي ملوثًا بفضلات طيور الماء الصيَّاحة. بدَّل الضبابُ البحيرة بمحيط. وكسَى الهواء البارد الوجنات بالحمرة، وحوَّلت الرياح شعر الرأس إلى راية، والسعادة الكامنة إلى لهيب. أهو أجمل ما مرَّ بهما من أيام؟ أجل، لكنَّ مئات بل آلافًا من هذه الأيام ستأتي. أكيد، أجل. بالتأكيد. كانت أجنحة البجع الطائر تضرب الماء في سرعة محدثةً صوتًا أجوف. ويتنهد المرء في ارتياحٍ عندما تكف عن الاصطدام بالمياه بعد خمسين أو ثمانين ياردة، لكنها سرعان ما تهبط من جديد في اضطراب، دافعةً أمامها بصدورها موجةً من المياه على هيئة قوس. لماذا تستهلك كل هذه الطاقة؟ كانت شجيرات البندق قد تزيَّنت في براعة. لكن العودة إلى قفص السيارة الدافئ كان مبعث راحة.

«لماذا نينهاوزن بالتحديد؟» - «أليس أمرًا مرعبًا أن يموت المرء دون أن يرى نينهاوزن؟» - «قد ينطبق هذا على باريس أو نيو أورليانز أو بغداد ... أما نينهاوزن؟» - «الفرق هو أن عدم الذهاب قبل الآن إلى نينهاوزن هو غلطتي وحدي.»

هذه الزانات المجردة من الحياء، التي يلتمع عُريها. كانت قد تجمَّعت فوق أحد التلال وانتصبت محدَّقة في عداءٍ إلى غورٍ مجرد من الأشجار. «هل تريدان الذهاب عَبْر فارنيفيتز، جارليتز أو ميوتز ليتز؟ من المؤكد أن الطرقات جميعها متماثلة السوء.» - «أيها يبدو

^{٨٣} شخصيةً أسطورية، وهما هنا يستأنفان لعبة المتداعيات.

بفندقٍ غير مغلق؟» هكذا اختاراً جارليتز. وهناك كان الخيار أمامهما بين البطاطس المحمّرة بالبيض المضروب والبطاطس المحمّرة بالبيض المقلي وكانت مديرة المنزل تُدعى السيدة^{٨٤} لايدينفروست وتبدو كاسمها.

التمتعت آلات الحقول الجديدة في ألوان الصيف، وناطحت هوائيات التلفزيون السحاب، وفي الرياح تسطّحت المروج السمرء على وجوهها. نينهاوزن؛ المحطة، المنازل، الكنيسة، القصر ذو الحديقة البرية والأشجار التي تلاشى النهار من خلالها. «ماذا الآن!» - «إلى المنزل.»

أحاط بهما أفق من الحرير الأسود. وشقت أضواؤهما الكاشفة ثغراتٍ يمكن الفرار من خلالها. «في نينهاوزن خطّرت لشاميرو أهم قصائده.» - «إنه إذن صديقنا المجرد من أنفه، الذي كان موضع اهتمامك.» - «هل تبيع ذلك؟» - «أبداً.» - «ولو أدّى ذلك إلى أن تبيع السيارة؟» - «حذار! هل رأيت الغزال؟ كان يمكن أن نصطدم به.» - «أثناء القيادة يصبح لك وجه آخر، غريب.» - «سمته التركيز.» - «سمته المظهرية والجوع إلى السلطة.» - «أتغارين من آلة؟» - «بقدر ما يستغني المرء عن الأشياء الغالية يكون حرّاً.» - «دون السيارة ما كان اليوم بهذه الروعة.» - «لكن الليالي أكثر روعة دون سيارة.» - «أنت لا تقبلين آلهة أخرى غير نفسك، هذا هو الأمر.» النهاية. استغرقت رحلة العودة ساعتين. ولم يحدث قبل الآن أن التزما الصمت لمدة طويلة وهما معاً. أمرٌ غير مُستغرب في رحلةٍ ليلية فوق طرقاتٍ سيئة.

٢٠

انظر الآن إلى العاشقين؛ إذ يواجهان هنا كلاً من الحقيقة والعهد، كيف يكذبان سريعاً.^{٨٥} إن توفر الحقائق العامة في صورةٍ شعرية أمرٌ مريح للغاية؛ ذلك أن جمال الشكل يُخفي الفكرة، ويعزّز موقف المرء، بل ويرد له اعتباره. ولما كانت الآتسة برودر لا تعرف الشاعر ريلكه إلا بالاسم فقط، وأمكنها أن تمارس الأكاذيب الضرورية بالصمت، يكون إرب وحده هو الذي تذكر الأبيات؛ فهو وحده الذي كان في حاجة

^{٨٤} يتألف هذا الاسم من كلمتين الأولى بمعنى المعاناة والثانية تعني الجليد.

^{٨٥} من قصيدة للشاعر الألماني العظيم ريلكه.

إلى القصيدة؛ ذات مساء من فبرابر على باب المسكن. كانت قد سمعت وقع أقدامه، فوقفت تنتظره في المدخل، ثم اتجهت مباشرة إلى الموضوع الأساسي كي تتجنب تفرعاته المألوفة.

«هل كنت هناك؟» - «بالطبع» - «و؟» - «لا بُدَّ من زهابي ثانية.»

- «هل بدأت الأمور تتحرك؟» - «كلا، كان هناك زحامٌ شديد لكني تمكّنتُ من عمل المستحيل، تسجيل ابتدائي.» وكانت تلك كذبة.

لم تكن كذبةً كبيرة. وهو نفسه لم يكد يفهم ضرورتها، وعلى أية حال فقد أراد أن يذهب مرةً ثانية بعد أيام، ولا بُدَّ من ذلك حتى تُغلَق تلك الفجوة التي ظهرت بينهما بسبب الكذبة.

أقنع نفسه بأنه لا يعرف لماذا هرب من حجرة الانتظار؛ حيث كان يتقدّمه ثلاثة عشر شخصًا ويعقبه خمسة. قال لنفسه إن شيئاً ما قد دفعه لمغادرة الدكة الخشبية البالية التي امتدّت بطول الجدران، في دائرة أحاطت بالمائدة ذات المجلات القديمة، لا يقطعها سوى فراغ الباب، شعر أن البقاء مستحيل، استحالة الإقدام على انتزاع حمامة بيكاسو الداكنة بفعل الزمن من الحائط، وتجريدها من ريشها ثم تحميرها. لم يكن قادرًا على احتمال الناس الذين جعلوا يرقبونه وجعل هو يرقبهم؛ صاحب الحانة (لعله قصّاب؟) بذقنه المزدوج، رجل البوليس السري في معطفه الجلدي الساخن، الشقراء المصبوغة الشعر في معطفها الواقعي من المطر، المثقف ذو البيرييه الذي ربما كان المغص لا أكثر ولا أقل هو السبب فيما يبدو عليه من أهمية؛ الموظفة ذات الأنف الحاد (واحدة مثلها بالضبط كانت تعمل في إدارة الإسكان وقالت له: غرفة؟ لا بُدَّ أن أرى وثيقة الطلاق أولاً)، فتاة مجلات المودة التي كانت تنتظر نظرات الإعجاب. الموظف المصاب بالزكام، فتاة شهر العسل التي كانت تتحسّس ذراع زوجها الأشبه بالصبي في آلية (ماذا يفعلان هنا؟)، الزوجة الحانقة في صمت، وقبل كل شيء تلك الطفلة المرعبة التي ظل أبوها (بوجه جامد يشبه سمكة غير مخلوقة) هادئًا بدلًا من أن ينأى بابنته بعيدًا عن مضايقة الأبرياء. أولعت الفتاة على الفور بإرب ولعًا خاصًا؛ فبعد أن مثّلت دور ثعلبٍ أسير في دائرة، وهي تُوجّه إليه النظرات، توقّفت أمامه وحدّقت إليه في صمت بفم مفتوح. وسرعان ما اختفى ذهولها ليحل محله استمتاع وابتسمت. لم يرد إرب الابتسامة حتى لا يشجّعها على التماذي في عروضها، الأمر الذي أثار فيما يبدو ضيق الثمانية عشر شخصًا الموجودين في الغرفة. حدّق إلى السقف وجاهد من أجل التركيز. طاب مساؤك، يا دكتور سيميش، اسمي إرب، كلا، اسمي كارل

إرب، تُنطق بالباء الثقيلة مثل تلك التي في، في ماذا؟ كلا، لا أنُكّت،^{٨٦} اسمي إرب، كارل إرب، أجل هكذا. أودُّ أن أطلب عونك، هُراء، أحب أن أسألك، لقد جنْتُ هنا، لقد قدَّمتُ نفسي كي ... «أونكل؟» جاهد أن يُبقي نظراته المتبلدة فوق رأس الفتاة، لكنه لم يتمكّن من تجنب نظرات الآخرين التي كانت تتهمه في صميتٍ بإفساد المُتَع وهدم المسرّات.

ظل يأمل أن يخفّ أحد جاريّه؛ إما الرجل ذو المعطف الجلدي، أو الشقراء ذات المعطف الواقعي من المطر، إلى القيام بدور صديق الطفلة. انتظر بضع ثوانٍ ثم قال تحت ضغط المجموع: «نعم؟» خطّت منه الطفلة مقتربة في انتصار وطلبت منه أن يلعب. ودّ لو يرفض لكنه لم يجرؤ، وسألها عما يمكن لعبه في هذا المكان. خفّت الشقراء إلى نجدته قائلة للطفلة: «غني لنا شيئاً.» أجابت: «غني أنتِ» وهي تحكُّ ظهرها في حافة المائدة بنزق.

أفقدَها هذا التصرف عطف الآخرين، لكنه كسب لها الضحك. وانتَهز إرب الفرصة ليترك المسرح، وأخرج مفكرته وقلماً، وتظاهر بالتركيز. وقّع اسمه ثلاث مرات واسم الأنسة برودر ثلاث مرات، اسمها الدائم (أي، اسمها الأول) ملحَقاً باللقب إرب مما بدا غريباً. ستكون هناك إذن امرأتان تحملان لقبه؛ السيدة إرب. وكتب: الزواج عند المرأة هو المذبح الذي تُضحي فوقه باسم أبيها.

«دكتور لايشنفوس يتفضل!» إذن فهو ليس برجل شرطة سرية. طبيب، عالم لغات؟ ربما محام. لكنه ما كان سيحتاج في هذه الحالة إلى مشورة قانونية. كان الآخرون بالتأكيد في نفس موقفه، فيما عدا زوجي شهر العسل. صعدت الطفلة إلى المقعد الذي أخلاه الطبيب ذو المعطف الجلدي واستخدمت كُف معطف إرب مسنداً ليدها. وكتب هذا: «طاب مساؤك دكتور سيميش. لعلك حدّست ما جاء بي إلى هنا.» - «ماذا تكتب يا أونكل؟» «هذا ليس من شأنك.» شعر بموجات من الكراهية تناسب في اتجاهه ورفع عينيه. كانت النظرات المسلّطة عليه تقول: أيها الغول. استسلم وأغلق مفكرته ووضعها في جيبه. «أي طائر هذا يا أونكل؟» - «حمامة.» - «شكله غريب، أليس كذلك؟» سألتها: «ما هو اسمك؟» وابتسم في دمائه كما هو مفروض عند التعامل مع الأطفال، وشعر على الفور بدفء الاستحسان العام مما أغبطه. «ألكه بيلاو، برلين أكر شتراسه رقم ٣٣ - وما اسم هذا الأونكل يا أونكل؟» وباستثناء الزوجة التي كانت تُصّب لعناتها في هدوء انتظر الجميع الإجابة في ترقّب باسم.

^{٨٦} لعل المؤلف هنا يشير إلى عضو الذكورة الذي يبدأ في الألمانية بباءٍ ثقيلة.

«هذا هو فيلهلم بيك.»^{٨٧} صاحت الفتاة: «بيك بيك!» وهي تضحك في سفهٍ دافعةٍ بإبهامها في ضلوع إرب. تطلّع إرب إلى أبيها أملًا في عونه، لكن هذا كان يحقّق بعيدًا في سأم. «وما هو اسمك يا أونكل؟» – «أوجست بيبنديكل.» انتابت الفتاة نوبةً من الضحك، وبدأ الجميع مسرورين منه. «وما هذه الشارة التي ترتديها؟ هل تعطيني إياها؟» – «كلا.» – «لماذا كلا؟» – «هكذا.» – «وما هي الشارة؟» – «إنها مجرد شارة.» أصبح الأمر محرّجًا، لا له وإنما للآخرين، المثقف الذي يعاني من المغص هو وحده الذي ابتسم في خبث، وتطلّع حوله بحثًا عن مناصرين. وقال الرجل المصاب بالزكام، الذي لا يمكن أن يكون غير مدرس: «هذه شارة حزب الوحدة الاشتراكي الألماني.»^{٨٨} لكن الفتاة لم تُبدِ اهتمامًا بهذه المعلومات؛ فقد كانت تبغي الحديث مع إرب وحده. «لماذا أنت هنا يا أونكل؟ إننا نسعى وراء الطلاق فهل أنت أيضًا مثلنا؟» وعند هذه النقطة كان السيل قد بلغ الرُّبى، ودفعه ذلك الشيء الذي لا يمكن تحديده إلى الوقوف والانطلاق خارج الغرفة.

ذلك الشيء موجود حقًا. ولا بُدَّ من تسميته بشيءٍ ما لاستحالة تحديده بصورةٍ أكثر دقة، لم يكن هو خبث الوجوه، ولا حرجه، ولا طول الانتظار؛ إذ لم يغادر الغرفة خلال ساعةٍ قضاها بها سوى شخصين، ولا الحديث المرتقب مع المحامي ... لكن كل هذه العوامل معًا. وليس الخوف؟
- الخوف ممّ؟
- ربما من القرار النهائي.

لم ترَ الأنسة برودر الأمر هكذا. حدّست أن هناك كذبةً في الأمر (لأنه على عكس عاداته هجر الموضوع على الفور ولم يعد إليه أبدًا)، لكنها ظنّت السبب هو خشية الحرج. كان يحتاج بوضوحٍ إلى بعض الوقت. وسوف تعطيه؛ فمن الوقت كان لديها كفاية، بل أكثر من الكفاية.

٢١

لسوء الحظ أنه من الضروري أن نقدّم في هذه المرحلة المتقدمة من تقريرنا، حيث تقترب الأمور بوضوح من النهاية السعيدة (?) أشخاصًا وأماكنَ وأزمنةً جديدة (أو قديمة من

^{٨٧} مؤسس جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

^{٨٨} اسم الحزب الشيوعي في ألمانيا الديمقراطية.

وجهة نظرٍ أخرى)، نقدّم: زمان أبيه وطفولته هو، فريدريك فيلهلم إرب وآلت - شرادوف. دافعنا إلى هذا هو رحلتان قام بهما بطلنا إلى موطنه الأصلي، أو على الأصح عودتان؛ واحدة في يناير (في طقسٍ مماثل لذلك الموصوف في الفصل ١٢)، وأخرى في مارس (في طقسٍ مماثل لذلك الموصوف في فصل ١٣). كان السبب في الرحلة الأولى هو ضيق المساحة السكنية (كانت الأنسة برودر، مساعدة المكتبة. في حاجة إلى الانفراد بنفسها في نهاية الأسبوع لتُنجز البحث المطلوب للامتحان)، والرحلة الأخرى كانت لحضور جَنَاز. كان هدف كارل من الرحلتين هو أبوه. وعلة هذا الفصل هي تسجيل ذكريات كارل.

كلا، ماضي آل إرب؛ فمن الأفضل أن نُلقي جانبًا بمشاهد الذاكرة؛ ففي الرحلة الأولى كانت المشاهد سوداء، وفي الثانية كانت وردية (لأن الذاكرة لا تقوم بعملية التجميل دائمًا إلا في الأوقات الحزينة، أما في الأوقات السعيدة فتحمل مَسحة من اللون الأسود). ومثل هذه المشاهد لا تفيد في ملاحظة منحنيات التطور، أو بصورة أكثر دقة، في محاولة ذلك؛ فرغم أن الحقائق قد تكون واضحة، إلا أن ما قد يكون لها من تأثير أمرٌ محل شك. لحسن حظ البشرية، ولسوء حظ المحتالين ومؤرّخي السّير الذين يسعدون لو أمكن ترجمة الزغب الأبيض بأنه نذيرٌ بمعطف الطبيب، ورؤية مركز الابن في مركز أبيه، وتحديد معتقدات الشخص عند لقائه.

لكن المرء يمكن أن يحاول دومًا، فدعونا إذن نكوّن المشهد؛ قرية آلت - شرادوف، مقاطعة فرانكفورت أودر، تعداد السكان ٦١٦ جُلهم من المزارعين والفلاحين، ١ صائد سمك، ١ شرطي، ١ مدير نزل، ٤ من مستخدمي الحوانيت، ٦ مدرسين، ١ كنيسة، ١ مدرسة مركزية في القصر (شيدها أحد مساعدي شينكل) نُزّل (تعاونية) ١ قصاب (تعاوني)، مخزن تعاوني للطعام والملابس، مخبز (قطاع خاص) ١ محطة للخط الحديدي (مسافة كيلومترين)، ١ مدرسة للتمريض (في المدرسة القديمة للقرية)، طريق من الدرجة الثانية بجسر على نهر شبريه (لا تتجاوز حمولته ٣,٥ طن)، ١ تعاونية زراعية، ١ دار للعطلات تابعة لاتحاد النقابات (كانت تُسمى في السابق «نزل التناسق الألماني»)، قرية من النوع الدائري (٢) كوخ يعلنان الآثار القديمة؛ أسلوب العمار لدى السلاف الغربيين) ونصب تذكاري مهذّم. لقد شارك فريدريش فيلهلم إرب نفسه في شق الطريق ذي القضبان المعدنية (الذي يُدعى اليوم «شارع ١٣ أبريل») رغم أنه لم ينتقل إلى القرية إلا عام ١٩٢٤م (قبل عام من مولد كارل)، ولم يتركها منذ ذلك الحين لأكثر من اثنتي عشرة ساعة.

هذا هو المشهد. لكن ماذا يعني بالنسبة لإرب؟ عندما كان يتحدث عن القربة كان يخلط الكآبة بالكراهية؛ فقد كانت علاقته بالقرية غير مؤكدة، موزعة ومتناقضة. إن الألفة تتمخض (وخاصة عند تأمل الماضي) عن شيء مثل الحب، لكن هذا يصبح دائماً قيئاً. كانت القرية لديه زكبية من الأشياء عديمة الجدوى حملها معه عندما هرب؛ عقبة، شيئاً يصب عليه لعناته، لكنه لا يملك القوة على إلقائه بعيداً. كان هذا هو سبب تراجعه إلى دائرة المدينة، كما كان سبب عاطفيته البالغة خلال سفره إلى القرية؛ فعندما يذكر أحد إقليماً من الأقاليم، مارك براندينبورج أو بروسيا، يشعر كما لو كان يشير إليه، وإذا ما سأله أحد عن موطنه أجاب: منطقة برلين. كان أبوه يردد قولاً سائراً: «إن ألمانيا هذه التي يتكلم عنها الجميع لا يزيد عمرها عن خمسة وسبعين عاماً، أما بروسيا فعمرها قرون» لم يردد إرب أبداً هذا القول، ولم يُقرّه، لكن كثيراً ما فكّر به. لكنه بعد الرحلة الأولى قال (للآنسة برودر): «عندما يتقدم المرء في السن يدرك أنه لن يهرب أبداً من شبابه؛ فهو يلتصق به كصمغ الصنوبر.»

ومن رحلته الثانية جلب تشبيهاً أقوى معه: الشباب علامة يؤكّد بها المرء وتكبر مع الأعوام. أما الآنسة برودر (وهي العصرية تماماً) فرغم معرفتها بالتاريخ بالمعنى العريض وبالتفاصيل، فإنها لم تفهم شيئاً من هذا كله، من طبقات المشاعر والتجارب التي أحياناً ما يغطي بعضها البعض، دون أن تصل دائماً إلى السطح، بالنسبة لها كان الأمر سهلاً؛ لقد درست التاريخ لكنها لم تعشه. كان التاريخ جزءاً من معرفتها، وليس جزءاً من ذات نفسها، وكانت طفولتها مجرد بداية متواضعة لما كانته ولما ستصير إليه. لم تكن تُثيرها قضية السّير الماضية، ولم تكن تعترض عندما يستخلص منها الناس نتائج أغلبها خاطئ، ومن الناحية الأخرى كان مسلك كارل محلاً للجدل. وكان أبوه قميناً بأن يُبدي رد فعل مختلفاً. كان سيقول ببساطة: أنا بروسي.

لكنّ أباه لم يكن أبداً الشخص الذي يتصوره المرء من كل هذا، لم يكن أبداً رجعيّاً بهذا الوضوح والمغالة. كان رجلاً موهوباً جوّاباً للآفاق، الابن المسرف لفريدريش إرب، مفتش البريد على عهد القيصر فيلهلم (وضابط الاحتياط في كتيبة الأولان الصفر) في مدينة فورستنفالده ذات الحامية؛ ففي اللحظة التي بدأ فيها القرن العشرون كان يقف في رداءه البحري وسنواته الأربع عشرة، إلى جوار أمه وخالاته وأعمامه وخمسة من الإخوة والأخوات في غرفة المعيشة يحذقون إلى فم أبيه يُفتح ويُغلق، مصغياً إلى عبارات تنتهي دائماً بكلمة ألماني (الرايخ الألماني، الألماني الألمانية، الأسطول الألماني، المستعمرات الألمانية،

الدأب الألماني، البسالة الألمانية، القرن الألماني)، وهي عبارات لم تكن موجّهة إلى أسرته وإنما باسم الأسرة إلى اللوحة المعلقة فوق الخوان، التي تصوّر رجلاً ذا شارب يرتدي خوذة^{٨٩} يحدّق في عزم وفرح نحو ساعة الجد، ورأى أفواه الرجال والنساء تطلق ثلاثة هتافات للقيصر الشاب تغني: «هايل ديراييم زيچر كرانتز»،^{٩٠} فانضمّ إليهم، وسمع أجراس الكنائس وطلقات المدافع والألعاب النارية تُرحّب بالقرن الجديد. لكن استقباله لكل هذا كان مختلفاً عن الآخرين؛ فلم يكن ثملاً بالقوة، وإنما بالحرية، وهي حالة أزاحت جانب الستائر المخملية وحطّمت الكريستال وأطارت الهواء الفاسد من منزله ومدرسته وبلدته، حاملةً إياه معها إلى برلين، وهامبورج ومستر هنري في سانت لويس وسام هوكينز، وأولد فايرهايد وأباش ونيتو في جبال روكي. بدأ الادخار في أول يوم من القرن العشرين ولم يأت عيد الفصح إلا وكان قد ارتحل. وفي عيد العنصرة أُعيد برفقة الشرطة إلى فورستنفالده، وبعد خمس سنوات ارتحل مرةً ثانية لكن ليؤدي الخدمة العسكرية في المدفعية بثورن. وعندما انتهى ذلك انطلق أخيراً في رحلاته، لا إلى ريوجراند أو للانواستكاو وإنما على الأقل إلى برلين وهامبورج وروتردام وبروكسل وباريس وبرشلونة، متشرّداً في البداية ثم ساقياً وأخيراً صحفياً في أوديسا؛ حيث فاجأته الحرب، فاعتُقل في منطقة بحر قزوين، وحرّرتة الثورة الروسية، ثم قاده الحنين خلال الأخطار وعبر الحدود إلى وطنه الذي سرعان ما شخّنه إلى الجبهة الغربية. وكان من شأن تجربة الحرب التي غيّرت الكثيرين، أن غيّرتة أيضاً؛ ففي غمار الخوف من الموت وفي غمار الدماء والقذارة أدرك أن هناك سعادةً واحدة وحسب، هي سعادة الحياة في ركنٍ هادئٍ من سطح سفينة التاريخ بعيداً عن مهبّ الرياح. كان إخوته وأخواته الذين ازدروهم في السابق بسبب هربه قد عدّلوا مواقفهم وانغمسوا في التجارة والسياسة، وصاروا الآن يزدرونه بسبب انسحابه التام من كل هذا. كان مختلفاً عن الآخرين، صار مُدرّساً وذهب إلى ألت - شرادوف، حيث بحث عن زوجة هادئة وفلسفة ملائمة، ووجد الاثنين في أرملة سلفه التي تكبره بخمس سنوات وفي فكرة البروسية؛ لا بروسية القيصر فيلهلم الثاني، ولا حتى (رغم أفضليتها) بروسية فريدريش فيلهلم الأول، الملك الجندي، وإنما بروسيةً مكوّنة ذاتياً تستند إلى المبادئ التقليدية للواجب والتقشّف دون

^{٨٩} القيصر فيلهلم (غليوم) الثاني.

^{٩٠} دُمت في إكليل «الغار».

عسكرية أو ملكية مطلقة، ولتحقيق التطابق مع فكره كان لا بُدَّ من إلحاق هذه المبادئ بشيء من أفكار الفيلسوف «كانت». وعندما بدأ أدولف النمسوي^{٩١} مسيرته، انضم المدرس إرب كارهاً إلى الحزب النازي، وانضم كارل بحماسٍ إلى قسم الشبيبة في الحزب. وماتت زوجته لكن أيديولوجية الاعتماد على النفس التي اعتنقها استمرت، وصمدت، غامضة، لكن وطيدة فوق الأرض الرملية لبراندنبورج، بل وعمرت (بتعديلاتٍ ضئيلة دون تغييرٍ أساسي) أكثر من حرب الصاعقة والاندحار ثم التحرير والطرده من المدرسة وفلاحة البساتين وحياة المتقاعد العجوز في فترة البناء الاشتراكي.

لقد رَوينا هذا كله كما لو كان حالة خاصة لكن لا يكاد يختلف عن قصة آخرين في مكانه، أناس ظلوا بمعزل عن التطورات التكنيكية والحضارية والاجتماعية، لم يسمحوا لأي جديدٍ عدا الغسالات والمكاوي الكهربائية وأجهزة الراديو باختراق منازلهم، لا تلعب الآلية والطائرات ومحطات الطاقة الجديدة أي دورٍ في حياتهم، يغطسون أسفل الأمواج العاصفة للتاريخ العالمي، ويهزؤون أنفسهم مثل الكلاب المستحمة عندما تتجاوزهم الأمواج، ويواصلون العيش في عوالمهم لأنهم يخلعون أخلاقيات العالم الخارجي مع أحذيتهم، ويرتدون الأخلاقيات المنزلية مع أخفافهم، وهي وحدها التي يعتبرونها أصيلة؛ لأنهم تابعوا نموها، لكنها تحوَّلت مع نموهم إلى طبيعة (لا تتغير أو تفعل ببطءٍ شديد). لم يكن بوسعهم أن يفهموا، ولا أرادوا، أن ما يبدو لهم غير صادق وغير عادل سيصبح تقليدًا عند أبنائهم. كم يوجد من هذا النوع حتى الآن! وكم هناك الكثير منهم! كان فريدريش فيلهلم إرب واحدًا منهم، لطيفًا، دمثًا عاجزًا مثل الكثيرين غيره، يتميز فقط بالأدب وبالذأب وسعة الاطلاع وبأن لديه اسمًا شاملًا لما يُسميه الآخرون (دون تحديدٍ واضح) بالجد والاجتهاد، وروح النظام، والتقشُّف والتحمُّل، وروح الواجب، والأمانة، والاعتدال. وقد أثبت هذا الموقف (في شكله الأخلاقي) فائدته في ظروفٍ متنوعة للغاية. ولهذا لا يدهشنا أن يكون من الصعب تجاهل النصيحة التي قدَّمها ذو التسعة والسبعين عامًا خلال رحلة يناير.

بعد راحة منتصف النهار، تمشَّى على شاطئ النهر حتى الجزء المخصَّص للاستحمام، ثم عادا عبْرَ منتزه القلعة. شربا القهوة معًا، وبعثًا بالسيدة فيندتسل الصامتة إلى منزلها، وجلسا إلى النافذة التي كانت الرياح خارجها تتمايل بفروع شجرة الكُمثرى.

^{٩١} هتلر.

قال العجوز من أعماق مقعده ذي المسندين: «إن الأمر سيئ بما فيه الكفاية، لكنه ليس على هذه الدرجة من السوء التي تبدو لك الآن. أنا واثق أنك تفكر الآن بأن أباك فقد منذ عهد بعيد ما يجعل الرجل رجلاً، وأنه من السهل عليه لهذا أن يكون حكيماً، لكن هذا هو لب الحكمة؛ التمييز بين الجوهرى وغير الجوهرى. ما أنت بسبيل هُجرانه جوهرى ... أطفالك وعملك. الأسرة ليست دائماً أمراً سائغاً، لكن ما هو الشيء الذي يتسم بالضرورة ويتميز في ذات الوقت بأنه لطيفٌ ومقبول؟ إن أفدح المسئوليات القائمة هي مسئولية الأب وإذ إنها مطلقة، لا يمكنك أن تستقيل منها. أعرف أن هذا الكلام يبدو «مودة» قديمة، لكنني لم أخضع أبداً لـ «المودة»، وإنما للحق. ولو أنك في العشرين، ما فتحتُ فمي بكلمة؛ لأن تحذيراتي عندئذٍ ستضايقك وتُفرق بيننا، ولا تكون لها فائدة. لكنك في الأربعين، والقول الذي يزعم بأن عمر المرء يتفق ومشاعره هو محضُ هُراء؛ فأنت في السن التي بلغتُها، ومن لا يريد الاعتراف بهذه الحقيقة يجعل نفسه موضع السخرية. إن كل إنسان في حاجة لأن يتمرد وينفصل مرةً في حياته، لكنَّ أحدًا لا يتمكن من ذلك مرتين، وأنت آخرهم، ثم إن انفصالك الأول لم يكن تمرُّداً بقدر ما كان تكيُّفاً؛ ذلك أن ثورتك على كل ما يُسمَّى بالحياة القديمة التي يمثلها أبوك لم تحمِلْ إلا إلى طريق أكثر راحة حيث تلتقي الواجبات بالأهواء والنزعات. والاثنتان الآن منفصلتان، لكن بدلاً من أن تنتهز الفرصة أخيراً لتُثبت نفسك وتكسب الاحترام الذاتي الذي سيعطيك إياه ذلك، جرّيت خلف أهوائك. أنت لا تُحب أن تسمع كلمة «الواجب»، وتحدث عن السعادة بنفس الإصرار الذي أتحدث به أنا عن الواجب. لقد فكّرتُ في مثل هذه الأمور أمداً أطول منك، وأعتقد أنها شيءٌ كالحرية، التي لا تحوزها إلا عندما تُنكرها؛ ذلك أن الإنسان شخصية ذات سيادة لا يعيش في الطبيعة وإنما في المجتمع، ولا بدّ للمجتمع من أن يحدّ من سيادته الفردية من كافة الجوانب، فإذا ما استطاع أن يقوم بهذا العمل من أعمال العنف على نفسه، نمت قوّته بحدودها؛ إنه صاحب السيادة ذلك الذي يحدّ من السيادة في نفسه. ونفس التناقض ينطبق على السعادة؛ لا يحوزها إلا من يُنكرها..»

عارض السيد إرب الصغير هذه المقولات بالطبع؛ فلم تكن غريبةً عليه فقط، وإنما كان يحكمها إلى حدٍّ بعيد منطق الأسود والأبيض البروسي؛ كانت بها مسحةٌ باطنة من نكران الذات الزاهد وموقف «فقير – لكن أمين»، من الخضوع والنهي المطلق. ثم متى خضعت القرارات الخاصة بأمور القلب للحكمة الفلسفية؟ وبالرغم من هذا لم يكن ما قيل عبثاً؛ فقد تبقى منه شيء، ولو على الأقل صورة الرجل ذي الوجه العريض الذي خرج بهيئةً لائقة

ويَدِين نظيفَتَيْن من فترة فيضان المجاري محتمياً بدرع نظرته إلى العالم، والذي كان سعيداً في موقف الرفض الذي اتخذهُ (بما في ذلك رفضه للنشاط)، صورة أبيه في المقعد ذي الظهر المرتفع، وهي صورة كان لها تأثيرها طوال أربعين عاماً، حتى في فترات الاحتجاج. نقول فترات، والواقع أنها فترتان، بدتا للأب، بسبب التشابه السيכולوجي بينهما، فترة واحدة. فترة إرب في الشبيبة الهتلرية وفي منظمة الشباب الشيوعي، وهما الفترتان اللتان (في رأي أبيه) تعاونتا على تزويد الشاب بدافع الفرار من أبيه. كان انفصاله عن أعلى أقاليم الحب الأبوي (الجليدية) قد بدأ بوفاة أمه، وكان انفصلاً من البرود الأبوي إلى حرارة الحماس، من الواجب المفروض إلى الواجب المختار بحرية، من المحاضرات الدائمة عن المسؤولية إلى لامسؤولية الجماعة. هكذا رأى أبوه الأمر من مقعده، مستنداً إلى خبرته الخاصة، والآن إذ عاد إرب الشاب في هذا الأحد من يناير تبين له أنه قد جلس بدوره في المقعد ذي المسندين أمام النافذة، النافذة التي فصلت الداخل عن الخارج، وأنه سيواصل الجلوس في هذا المقعد دون الأنسة برودر، التي عهد إليها في ذلك المساء بالمسؤولية؛ عندما يلتصق شيء كصمغ الشجر، فإن هذا يعني ضرورة كشطه. مهما سبب ذلك من ألم.

ثم إنها هي التي ستتحمل الألم. في يناير كان ما زال يقول: فيك يلتقي عالمي (الداخلي والخارجي). لكنه في مارس فصلهما بنفسه الواحد عن الآخر؛ فقد وصلت برقية من ألت - شرادوف: تعال فوراً، بابا مريض جداً. فريدا فينتسل الشهيرة باسم شفيرتفيش. واستعد للرحلة دون أن يفكر في إمكانية مرافقتها له. وعندما سألته عن هذا وقالت إنها لا بد وأن تشاركه كل شيء، بما في ذلك الأحزان، انزعج كما لو أنها قد طلبت الكثير. وتركها تنعَى وجود مناطق مغلقة في وجهها.

وجد المقعد ذا المسندين فارغاً. وفروع شجرة الكمثرى مغطاة بالجليد. وكان الطبيب قد انصرف في منتصف النهار ليعود في الصباح التالي؛ فلم يكن لديه أمل في نجاة القلب الضعيف من الالتهاب الرئوي. رقد المحتضر في مخدع النوم. وفي قاعة الدرس السابقة الملاصقة كانت مدرسة الحضانة تغني بصوتٍ ثاقب عن طائر الوقواق الذي حط على الغصن سيمسالا بيمبام. كان الأطفال يغنون أيضاً بالتأكيد، لكن لم يكن بالوسع سماعهم. رقد العجوز في صورة مستقيمة، ساكناً، على ظهره. وجعلته وجنتاه الغائرتان يبدو ضيق الوجه غريبه. تنفّس في سطحية وسرعة. «أرسل السيدة فينتسل إلى منزلها؛ فلم تنم طوال ليلتين». - «لماذا لا تذهب إلى مستشفى؟» - «أريد أن أموت حيث عشت.» - «لا تكن أحمق، لا أحد يموت من الرئة هذه الأيام.» رفع العجوز يده ثم تركها تسقط ثانية كأنما

يقول: لا تُحاول رفع روحي المعنوية، ثم تكلم عن بوليصة التأمين على الحياة؛ كانت في دُرج مكتبه الأيمن. نظر كارل إلى اليد العظمية وتساءل عما إذا كان يجب أن يتناولها أو على الأقل يربّت عليها، لم يعهدا قط مظاهر الحنان فيما بينهما، وستبدو هذه اللمسة الآن تقبلاً للموت. وعندما أغلق المريض عينيه ثانية، غادر الغرفة وبعث بالسيدة فينتسل الباكية إلى منزلها، وجلس إلى النافذة وشرب القهوة، وكره نفسه؛ لأنه تمنى أن ينتهي كل شيء في اليوم التالي، حتى يستطيع العودة إلى العمل يوم الإثنين.

حاول أن يكون آسفاً، لكنه عندما نجح في ذلك لم يكن الأسف من أجل أبيه وإنما من أجل نفسه، الأسف لنفسه على أنه التقى بالموت هكذا بصورة مباشرة وعاجزة. فكّر أن أباه يموت بطريقة قديمة كما عاش؛ فلم يعد أحد اليوم يثقل على أقاربه هكذا. إن المرء يُولد ويموت في المستشفى في ظل المطهرات، بعيداً عن الطريق، دون أن يزعجه أحد أو يزعج أحداً. من يستطيع اليوم تحمّل صرخات امرأة تلد أو قعقة الموت؟ إنهم من تدربوا على ذلك فقط، الذي هو عملهم، ويتقاضون أجراً عليه. إن المرء يعيش كأن الموت لا وجود له، ويبتعد عنه مخادعاً نفسه. جبن؟ كلما بلغت وسائل القتل مستوى أعلى من الكمال، ازداد الإصرار على قمع فكرة الموت. وفكّر: هل يتغير شيء بموت أبي؟ وأجاب على السؤال بنفسه: كلا. رغم أنه كان يعرف أن هذا غير حقيقي؛ فعندما ينتهي فعل الموت ستكتسب صورة الرجل في المقعد ذي المسندين نفوذاً أكبر من ذي قبل عليه. ستصبح أقوى من كل ما علمه أو خبره حتى الآن، وفيما بعد سيأخذ مكانه في المقعد ذي المسندين، وبعد عشرين أو ثلاثين سنة سيرقد هو الآخر كما رقد أبوه. ومن الذي سيجلس عندئذٍ إلى جوار فراشه زاعماً أن أحداً لا يموت بذات الرئة؟

لم يعد يحتمل الوحدة، فنهض فجأة، وأصغى مرة أخرى لتنفس المريض المسرع، ثم هرع من المنزل إلى الطريق ماراً بالكنيسة حتى المنزل حيث سأل عن التليفون، وطلب الاتصال ببرلين. كان التليفون مجاوراً للنافذة، ومنها كان بإمكانه تأمل الشبريه. بدا الماء بين الشاطئَيْن الجليديَيْن داكن الرمادية، أقرب إلى السواد، وقد جعله الثلج المتراكم قرب الشاطئَيْن يبدو أشبه بجدول. وكان في شبابه أوسع من نهر الميسيسيبي. وفي طريق العودة زار منزل القس. ثم جلس إلى النافذة يرقب هبوط الليل، حتى جاءت السيدة فينتسل لتُعد العشاء. كانت الدموع تنهال فوق وجنتيها المتورمتين. ولأول مرة تسأل كارل عما إذا كانت حقاً طوال السنوات الخمس والعشرين الماضية مجرد مدبرة منزل لأبيه. وصل القس وبقي عشر دقائق مع المريض، ثم جلس ليحتسي كوباً من الشاي. كان شاباً واشتكى من عقابٍ

حل به ينفية إلى هذه البقعة النائبة. في الثامنة قاد كارل سيارته إلى فورستنفالده. غادر الكثيرون قطار الضواحي لكنه لمحها على الفور. تصافحاً ومضياً إلى السيارة. «هل طلب حقاً أن يراني؟» - «كلا.» - «أتريد أن تكذب عليه؟» - «أريد أن أرضيه.»

مضت مباشرة إلى غرفته وأخذت يده العظمية ورفعتها إلى خدها. فتح عينيه وابتسم وسأل عن الأطفال. ذكرت له إليزابيث بعض التفاصيل وهي تتحسس جبهته ولم تتخل عن يده حتى نام مرة أخرى. عندئذ فقط نزعت لفاعة رأسها، وخلعت معطفها، وأرسلت السيدة فينتسل إلى منزلها، ثم غسلت الأطباق. رقد كارل متكوماً على الأريكة القصيرة فقد صار بوسعه أن ينام الآن، وجلست إليزابيث إلى فراش المريض. وبعد الحادية عشرة جعلت تربت على يده. وفي الثانية عشرة إلا عشر دقائق رأت أنه ازداد تنفس العجوز سرعةً وسطحية. ونظر إليها مرتين لكنه لم يقل شيئاً. لم يعد يتنفس، فأيقظت كارل: «بابا مات.» كان وجه العجوز صغيراً كوجوه الأطفال. وذهب كارل إلى بتشين وأحضر الطبيب الذي ظل معهم نحو ساعة، حدث إليزابيث خلالها عن غرائب الأب وأمراض الابن في الطفولة. ثم نامت إليزابيث فوق الأريكة. وجلس كارل في المقعد ذي المسندين يرقب بزوغ الفجر. وفي العاشرة وصل أهل القرية. نادوه باسمه الأول، لكنه لم يتذكر إلا أسماء القليلين منهم. وبعد الظهر أقل إليزابيث إلى المحطة. «هل بوسع الأطفال تدبير أمورهم وحدهم؟» - «لا بد وأن يفعلوا، وفي أوقاتٍ أخرى أيضاً.» - «هل الأمور على ما يُرام مع رئيسك؟» - «بالطبع.» - «هل يعرف الأطفال الحقيقة؟» - «كلا، ليس بعد.» - «هل يسألان علي كثيراً؟» - «ليس كثيراً.» متى تنوي أخذ حاجياتك؟ أريد أن أعطي بيتي الغرفة وأحب أن أحتفظ ببعض الكتب.» - «بوسعك أن تأخذها كلها في الوقت الحالي.» - «لكني أحب أن أعرف ما سيخصني.» - «أهناك داعٍ للعجلة؟» - «أفضل ذلك. وماذا عن الطلاق؟» - «إنه أكثر صعوبة مما ظننت.» - «ماذا؟» - «إليزابيث، أود أن أشكر. لست أعرف ما كنتُ فاعلاً بدونك.» - «ما هو الأكثر صعوبة مما توقعت؟» - «كل شيء.» - «وماذا يعني هذا؟» - «نفسى.» - «هذا شأنك. وداعاً.» أراد أن يقول شيئاً آخر، أن يحدثها عن مشاعره ويشرح لها صعوبة موقفه، لكنه لم يجرؤ على التفوه بكلمةٍ أخرى. كيف حدث هذا؟ لم يحدث أبداً أن وجد صعوبة في الحديث معها. «وداعاً.» صعدت إلى القطار بالحركات التي ألفها سنوات. وانتظر حتى تحرّك القطار لكنها لم تنظر من النافذة.

فكر فقط في برقيته إلى الآنسة برودر يوم الإثنين. تفقد الكتب والرسائل والصور والأوراق، وحرقت الكثير منها، وحزم الباقي، وأرسل بالطرود إلى إليزابيث. أما الأثاث فقد

أعطاه للسيدة فينتسل بما في ذلك المقعد ذو المسندين. وفي يوم الأربعاء بعد الجنّاز والغداء جلس في المقعد لآخر مرة وتطّلع من النافذة. كان ذوبان الجليد قد بدأ. ومن جديد كانت مدرّسة الحضانة في الغرفة الملاصقة تغني سيمسالا بيمبام. وتساقطت المياه من السقف على حافة النافذة. شعر بالنضج البالغ، وبقدرته على الحياة بمفرده. وفكّر أن المرء يظل طفلاً حتى يموت والداه. كانت المكتبة والجناح ب الآن قصيّن للغاية. وكان خائفاً ممّا ينتظره، وتمنّى لو استطاع البقاء في ألت - شرادوف. (سرعان ما سيبزغ زهر الصفصاف أصفر اللون، وينشر النحل طنينه المنتظم على النهر). وقد تلاشى هذا الشعور عندما صار في سيارته.

وحل محله شعور آخر بالارتياح؛ فبذهاب سلطة أبيه المهددة صار بوسعه أن يكون أكثر تماسكاً واتساقاً.

٢٢

«في أعقاب الجليد يأتي فصل الربيع،

وسرعان ما تبدأ انفجارات المواسير.»

هذا هو أحد الأبيات التي نظمها منذ بضع سنوات خلت «سباك» ذو ميول شاعرية. وكان لها تأثير غير هيّن على الفتاة الصغيرة المدعوة بالعصفورة، التي شعرت أن إيقاع الأبيات يبيّن خضوع الأعطال المتكررة في المواسير والمراحيض لشيء كالقانون. ومن شأن المعرفة بأن هناك نظاماً ما أو قاعدة ما أن تجلب الطمأنينة؛ فمنذ حفظت هذا البيت، صار بإمكانها أن تتحمّل بنفس الاطراد ألعايب شبكة المياه القديمة؛ ففي الصباح الذي يبصق فيه الصنبور هواءً مصحوباً بصوت غرغرة، بدلاً من المياه، في الحوض البني الأسود الذي كان أبيض ذات يوم، تلتقط على الفور، ودون كلمة أو انفعال، جردلاً من البلاستيك ومفاتيح السندرة، وتصعد إلى السيدة فولف، التي تتلقّى مياهها من ماسورة رئيسية أخرى، فإذا استقبلها هناك صوت الغرغرة، كان معنى ذلك أن المنزل كله جاف. وفي هذه الحالة يتعيّن عليها أن تذهب في الجو المتجمّد إلى منزل مجاور، وإذا كان الجو أقلّ برودة ذهبت إلى مضخة المقبرة أو مضخة شارع كراوزنيك. لكن هذا كان نادر الحدوث، كل بضع سنوات فقط، أما القاعدة العامة فكانت وقوع العطل في جناح واحد فقط. وفي هذه الحالة يقتصد المرء في نظافته ويشرب من البيرة أكثر ممّا يشرب من الشاي، بينما ينتظر السباك الذي سيجلب الخلاص، ويُحاول تعديل نظامه الهضمي، بحيث تتساقط نتائجه الخارجية

في مواعيد العمل؛ ذلك أن استخدام المراض الجماعي في الطابق الأرضي لم يكن يتطلب نصف جردل من المياه الثمينة وحسب، وإنما أيضًا أعصاباً أنفية متينة. لكن نظام الصرف القديم كان يقدم ما هو أسوأ؛ فقد كان من شأن انسداد ماسورة الصرف في القبو، الذي يعني فرض الحظر على استخدام كل من الحوض والمراض، أن يتجاهله المهملون والأشرار، مما يؤدي إلى فيضاناتٍ لن نصفها هنا مثلما نعزف عن وصف اللعنات التي تتدفق على الطوابق العليا من الطوابق السفلي في مثل تلك الأيام. لكن عطل الربيع الدوري كان قد انتهى في اليوم الذي نصّف أحداثه الآن، ولم نذكر نتائج العطل إلا لكي يفهم من يعيشون في مساكن جديدة وفي فيلات الضواحي في الريف، المتعة التي زارت بها الأنسة برودر هذا المساء ذلك المكان المظلم بالطابق الثاني الذي عادت المياه تجري به؛ ولهذا السبب، لم تسمع خطوات كارل الخفيفة على الدرج، وبذلك أبقت في انتظارها أمام السكن (الذي لم يحصل بعد على مفتاحه). وبعد دقائق وجدته واقفاً هناك، منحرف المزاج، دون أن تفهم السبب.

كانت قد اكتشفت منذ بدأ يعيشان سوياً أن نقطة ضعفه العظمى هي تمتعه بالكثير من نقاط الضعف الصغيرة، وكان موطن ضعفها العظيم هو عجزها الدائم عن تحديد موطن ضعفه الراهن؛ فعندما يكون منحرف المزاج يستحيل الحديث عن السبب؛ ولهذا تخلت في شيء من الصعوبة عن صراحتها وطريقتها المباشرة في الحديث. لم تعد تسأل: ماذا هنالك؟ ماذا حدث؟ ماذا أغضبك؟ ما هو خطئي؟ وبدلاً من ذلك كانت تحاول تجنب المواجهة، رغم الشعور المزعج الذي يملكها (عن حق) بأنها تستسلم لقوة عصبية، وتسمح لنفسها بأن تتحوّل إلى حائلٍ من التبعية الغريبة على طبيعتها. ومع ذلك، حاولت هذه الطريقة مراراً وتكراراً، ضد تقديرها السليم ودون نجاح كبير، حتى قالت ذات مرة في غضب إن الوسيلة الوحيدة للمحافظة على مزاجه رائقاً، هي أن تختفي من أمامه. وهكذا وقف كارل أمام الباب المغلق وكان غاضباً بالطبع؛ لأن المساء كان زائراً بالأحداث، بل وحاسماً، وكان يتوقع أن يجدها تنتظره في لهفة.

لكنها كانت على العكس جالسة في المراض! هذا هو بالضبط الشكل المضحك الذي اتخذته أفكاره، لم تعانقه. بل لم تتناول يده، ولم تغرقه بسيلٍ من الأسئلة، إنما جعلت تُثرثر ببساطة عن المواسير التي تم إصلاحها مئات المرات، وعن السباك النكدي. أرادت أولاً أن تغسل يديها، وبصعوبة نجحت في كبج جماح أسئلتها؛ لأنها كانت تعرف أنه لا يحب هذه الأسئلة، ويصفها بأنها غير مبدئية ومُحطّة إذا ما أثارت الارتباك في

هيكل بنائه المُشاد في عناية. وما أثار غضبه هو بالدقة ما فعلته كي تتجنبَّ الشجار معه. لم تفهم وما كان بوسعها أن تفهم ذلك، ولو فهمته ما اختلف الأمر؛ لأنه كان سيجد حينئذٍ أسباباً أخرى لمزاجه المنحرف؛ فالأسباب يمكن إيجادها دائماً. أما معرفة الأسباب أو إزالتها فكان فوق إمكانياتها. كانت هذه الأسباب مرتبطةً بمناقشةٍ عن مستقبل كليهما في المكتبة، وللأسف لا بُدَّ من حذف تفاصيل هذه المناقشة هنا؛ لأن المستوى الأعلى الذي جرت عنده هذه المناقشات كان أعلى من إمكانيات الكاتب؛ فالأسرار تم كتمانها جيداً، والذين تعهدوا بالصمت بالغوا في التزامهم به. ونتيجةً لهذا فإن ما هو عامٌ يظل هنا شديد الخصوصية، بينما تصبح الأمور الخاصة مشاعة. حتى إرب، الشخص المعني، كان مستعداً للحديث عن القرارات وليس عن الطريقة التي اتُخذت بها (ونتيجةً لهذا لا بُدَّ من إحالة القرار إلى الأوصاف الكثيرة لهذه العملية في الروايات).

ومن الطبيعي أنه يمكن اختراع التفاصيل؛ الحجرة المشحونة دخاناً، الجو المتوتر، الوجوه الشاحبة أو المضطربة انفعالاً، من يدخن بصورة متصلة، ومن يأكل تفاحة، والشباب الجريء الذي يتقدم بالقول الصواب في النهاية، والعجوز الذي يتحدث عن ماضيه بدلاً من أن يتحدث في الموضوع المثار، وتاجر الاقتباسات والاستشهادات، والمدافع عن حقوق المرأة، والشخص الخجول الذي كان يتلوَّى من الأسى، والداعر الذي يريد كل التفاصيل، وربما نضيف شخصاً ضعيف السمع. ثم نأتي على ذكر التكتلات المختلفة؛ المتعصّبين الذين يعتبرون الواجبات الزوجية شكلاً من أشكال الواجبات المدنية، ويودون لو يجعلون طلاق الأعضاء القياديين في الحزب في صعوبة الطلاق عند أهالي صقلية، والمتحرّرين الذين يشجّعون التفاعل المتبادل للمجتمع الاشتراكي في الفراش كما في أي مكان آخر، والمترددين الذين يُبقون على كل المرات مفتوحةً بلو، ولكن كي ينضموا في النهاية إلى الفريق الأقوى.

كما يمكن اختراع التصريحات التي أدلى بها المشتركون في المناقشة؛ «الحقيقة أن هناك طريقاً واحداً أمامنا نحن الشيوعيين: يجب أن يعود إلى أسرته.» - «والآن دعونا نتحدث بأمانة عن الأمر: إننا، نحن النساء، هنَّ اللاتي يتعرّضن للخداع دائماً. وعندما يُقال إنه ليس بيننا ملائكة، أكتفي بأن أقول إن هذا يُبرز قرحة لا بُدَّ من فتحها.» - «وما الذي يتعرّض للخطر؟ السياسة بالطبع، وفي حالتنا هذه السياسة التي تشنُّها الكتب، وبعبارةٍ أخرى الفعالية الأفضل لعمل المكتبة، التي لا يمكن ضمانها إلا بالاحتفاظ بمديرها المُجرب والثقة في وظيفته.» - «إنني أرى أن كافة الحُجج المثارة سليمة، وأنا أتمسك بالرأي الهرطقي

الذي يزعم أن السؤال الحاسم هو: أي قرار سنتخذ؟ هذا هو السؤال الحاسم. أليس الأمر كذلك؟» وهلمَّ جَرًا. لكن ما الفائدة؟ ربما أعطى هذا شيئاً من التلوين الأدبي، ومن المحتمل أن يثير ابتسامة، لكنه لن يقرّبنا أكثر من الواقع الذي يُعالج فيه أشخاص جادّون للغاية، بموضوعية وفطنة قدّر الإمكان، تسوية نزاع تختلط فيه كلُّ من المصالح الخاصة والعامة بصورة غريبة، وهي حقيقة تجلّت (رغم كافة السمات الغريبة التي أحاطت بطريقة قولها) في الكلمات التي بلغتنا معرفة وثيقة بها: في (أولاً) كلمة ريبيلوس الطويلة، التي تكفي فقرة منها وفي (ثانيًا) بيان كارل القصير المترفّع و(ثالثًا) في مساهمة هاسلر بالمناقشة التي كان لها دورٌ حاسم في (رابعًا) القرار.

وإليك فقرة من كلمة ريبيلوس: «... في هذه الحالة، أعتقد أن حضارة البابوان يمكن أن تساعدنا. لكن لنعد إلى الحاضر الذي وصفه لورنس شترن كما نعرف جميعاً بأنه ذلك الذي يجب أن نقدّره عاليًا، والذي حدّده جوته بأنه ذلك الذي يجب أن يوجّه إرادتنا، وأنا أتفق معه في هذا وخاصة بالنسبة لكارل إرب، الذي وصفته ذات مرة لأسبابٍ واهية، لكن (كما تحقّقت فيما بعد) عن حق، بأنه حمار، دون أن أعني بذلك الحيوان الغبي في الأسطورة الشعبية، أو حمار هوميروس (تذكّرون أن الكتاب الحادي عشر من الإلياذة قارن أجاكس المقاتل بالحيوان الذي تعجز أعنف الضربات في إبعاده عن حقل الحنطة المستديمة)، وإنما حمار بوريدان الذي ينتمي حقًا إلى حضائر تاريخ الفلسفة؛ حيث يقف منذ العصور الوسطى في منتصف الطريق بين كُومين دانيين من التبّين الشذي، يتفقان في الحجم والنوع، وينفّق من الجوع في النهاية؛ لأنه في مواجهة هذا التشابه لا يستطيع أن يحزم أمره، لكن هذا بالطبع يجب ألا يفهم بطريقة طبيعية، والأفضل أن يفهم بطريقة رمزية، رمز شعري أتمنى أن أرسّم اسكتشًا أحمر له على الجدار إنذارًا وتحذيرًا، كما فعل بلشازار، وحقيقته بل - شار - أوسور بن نابونيد آخر ملوك بابل، أو ربما الأفضل هاندل وهابنه، رغم أن الأمر في حالة كارل لا علاقة له بارتكاب المعصيات في حق الله بقدر ما له علاقة بارتكاب المعصيات ضد الإنسان، شيءٌ ما يؤخذ به لو لم يمارس هو نفسه حقه المقدّس في اتخاذ القرارات، لم يستخدم إرادته الحرة وإنما فضّل أن ينتظر تدخل قوَى أعلى تحرره من حزم أمره، لكن بالطبع كل هذا يجب أن يؤخذ بالحدّر الذي قيل به، وأفضل أن أصمّه بأنه من قبيل الشك والحَدَس والافتراض، شيءٌ ما وضعته في كلمات حتى، باختصار، نُطالبه ببساطة بالقرار كقرار، وحتى لا نُطالبه ولا يجب أن نُطالبه بأكثر من هذا، حتى لا يتعرّض لنفس المصير الذي تعرّض له حمارنا التاريخي، أو مصير ذلك الحاكم الذي

يعتبره البعض رائدًا للجسد السليم، ونبياً للصحة لأنه، كما تقول الأساطير، استخدم كُتُب مكتبة الإسكندرية الشهيرة في تدفئة حمامه، رغم أنه فعل ذلك لأسبابٍ غير صحية؛ لأنه آمن بأن الكُتُب الدينية وشروحها هي فقط الجديرة بالقراءة؛ الأمر الذي اعتبره الجناح اليساري في عصره بالتأكيد بربريةً ثقافية، رغم أنهم كانوا قمينين أمام الجمهور بأن يُبرزوا القيمة الحرارية العظمى للخت^{٩٢} والخشب. ويزعمون أن وجوه المَكْتَبِيِّين المتجهمة هي أفضل حارسٍ ضد قراءة الكُتُب المحظورة، بالطبع بهدف حماية أمثال هذه الكُتُب؛ لأنهم كانوا يفكرون في الثقافة العالمية والمستقبل، بينما كان الحاكم المذكور يفكر فقط في الدين والعرش؛ أي المشاكل السياسية لعصره؛ أي بِقَصَرِ نظرٍ شديد، بمثل ما سنكون قصيري النظر لو نصحنا كارل بمضمون القرار الذي سيتخذه، ونسبنا أن الأمر بالنسبة لنا وللمكتبة سرعان ما سيصبح ماضياً بينما سيكون أمراً دائماً بالنسبة لكارل ربما دوام حياته كلها، وفي هذا الصدد يجب ألا نغفل عن العادة الهندية البشعة ...» (نهاية المقتطف).

ثانياً، إعلان ارب: «أجل هذا حقيقي. إنني أعيش مع الأنسة برودر، وسوف أحصل على الطلاق. أما أننا نحن الاثنين يجب ألا نواصل العمل في مكتبةٍ واحدة فهذا ما أقبله، لكنني لا أستطيع الموافقة على استبدال الأنسة برودر بالسيد كراتش. إن هذا سيكون سهلاً، لكنه خاطئ. لقد وعدناها بهذه الوظيفة ويجب أن نفي بوعدنا، وإذا كانت هناك مسئولية ما فإنها لا يمكن أن تَمَسَّ أحداً غيри؛ ولهذا السبب سأذهب أنا. هذا هو كل ما أريد قوله.»

ثالثاً، هاسلر: «يجب ألا نُسَرَّ الأمور مثلما يفعل الكتاب المقدس مع الابن المسرف، الذي عاد جائعاً وسخاً إلى منزل أبويه، يجب ألا نذبح بغير روية العجل المسمَّن وننظِّفه وندهنه بالزيت.^{٩٣} لو شئنا أن نُثْنِي عليه فيجب أن نتساءل عن الداعي لذلك: أهو عودته إلى المرعى المألوف، أهو استسلامه، افتقاده للشجاعة، حنينه إلى الفراش الناعم؟ إنني أعتقد أن المطالبة بعودته بأي ثمن هي انتصارٌ للأخلاقيات المجردة التي لا يمكن أن تكون أخلاقياتنا، فإذا ما أمكن إعطاء حكم في هذه القضية، فإن هذا يجب ألا يتم على أساسِ قوانينٍ مشكوكٍ في أمرها، وإنما على أساس الواقع. والواقع يقول إن الموقف الجديد ربما كانت له نتائجٌ إيجابية بالنسبة للأشخاص الثلاثة الذين يمُسُّهم. في كل الكلمات التي تحدثت عن القدوة السيئة تبيَّنت وجهة نظر تقول بأن من يُعاقَب ليس هو الذي فعل

^{٩٢} نسيج نباتي نصف متفحم يتكوَّن بتحلل النباتات تحللاً جزئياً في الماء ويستخدم كوقود.

^{٩٣} على سبيل التكريس.

وإنما الذي اعترف؛ أي الأمين. أما فيما يتعلق بالعمل في المكتبة فإن رأيي يختلف عن رأي كارل، لكنني لا أعتقد أننا بمستطيعين إبقاءه هنا ضد رغبته، بقدر ما أسف لذلك؛ لأنني أعرف ما نحن بسبيل فقدانه؛ رفيق عثر، خلال القوة الإنتاجية للحب، على بداية جديدة، لكنني أود أن ألتمس منه ألا يعتبر نقله عقوبة وإنما إجراءً ضروري من شأنه للأسف أن يخلق مصاعب له ولنا.»

ويبدو أن كلمة هاسلر كانت مُقنعة؛ فهذا ما يتضح من رابعاً، القرار: «في نفس الوقت الذي نُضم فيه الآنسة برودر إلى هيئة العاملين بالمكتبة، يُعاد شغل منصب المدير. وسيُقدم العون إلى الرفيق إرب في العثور على منصبٍ آخر ملائم.»

وهكذا حقق كارل نصراً مزدوجاً، على نفسه وعلى رفاقه، لكن هذا بالطبع لم يكن مدعاةً للرقص من الفرح.

وإذا شئنا الدقة، فإنه صدم؛ فرغم أن نُبل مشاعره كان أكثر من مجرد تظاهر، كان الأمل يُراوده خفيةً في أن تُرفض تضحيتُهُ.

كان حزيناً لاضطراره إلى التخلي عن المكتبة التي عمل بها طيلة سنواتٍ عديدة. وهناك بالطبع الراتب؛ فما حدث كان في واقع الأمر عقوبةً أسمى منها كذلك أم لم نفعل. وهذا ما لن يدركه أولئك الذين ظلوا طيلة حياتهم من فئة الرواتب البسيطة، مثل الآنسة برودر، التي لم ترتق أبداً إلى مستوى امتلاك دفتر توفير، والتي تختلط أساساً بمن يبدو في عيونهم ما قد يحصل عليه من بيع سيارته المستعملة رقماً فلكياً. وقد كان سلوكها هذا المساء مطابقاً لهذا كله؛ أي فطناً؛ فقد بدأت تقوم بعمليات الجمع. راتبها الصغير المزمع + راتبه الصغير الصغير المزمع سيكونان سوياً أكثر من راتبه الحالي + منحتها الدراسية الحالية. إذن ما هو المُفزع في الأمر؟ بعد فترةٍ من الصمت مفعمةً بالمشاعر أوضح لها أن راتبها الصغير المزمع + راتبه الكبير المستديم، هما أكبر من ذلك بكثير، لكن المأساة الأساسية في رد فعلها. لم تفهم، وقالت له ذلك؛ لأنهما خلال أيام لم يكن لهما من حديث إلا هذا الاجتماع، تدبراً خلاله كل كلمةٍ سيقولها، وكانت لديها خططٌ مختلفة تماماً، لكنها أخيراً اضطرت للموافقة على خططه هو، رغم أنها حاولت إقناعه بأنه لا يضحي من أجلها، وأكدت له مراراً وتكراراً أن الشيء الوحيد الهام هو أن تبقى معه، سواء في برلين أو أي مكانٍ آخر (والأفضل مكانٌ آخر) وأعرب هو عن خوفه من شيءٍ واحد، ألا يُقبل اقتراحه، وها هو الآن قد قبل، فما باله؟ لا شيء، كل شيء على ما يُرام، فيما عدا رد فعلها المحبط، فقد وصل يرتعش من الانفعال بعد المعركة الكبرى، وإذا بها تتحدث عن المواسير والسبّاك.

لكنها تعرف أنه لا يجب أن تُوجَّه إليه أسئلة وهي قد أثنت على شجاعته، فماذا بوسعها أن تفعل غير ذلك؟ يجب أن تُبَيِّن له أن الأمر يعينها أيضًا، تفعل شيئًا، تُبدي ذلك بصورة ما، وليس «هذه اللامبالاة»، هذا البرود. لكنه ليس برودًا، وإنما تحفُّظ جَهِدَتْ في افتعاله لأنه يبغيه دائمًا. لكن ليس في موقف كهذا؛ فهذا هو العمل الذي قضى فيه حياته ينهار مرة واحدة وصار يُواجه فراغًا. إذن فهي فجأة لا تمثِّل شيئًا بالنسبة له؟ هُراء! كيف تفهم إذن كلماته؟ بالطبع ليس بوسعها أن تفهمه، ربما لأنه وحده الذي أُصيب بضربة القدر وهي للغربة تُبدي تفهمًا أكثر للآخرين، مثل ذلك الكاتب الأبله أبراهارد باومجيرتنر. «كارل، أرجوك، كفى قبل أن تدمر كل شيء». - «يا للبحيم! هديل هذا الحمام الغبي سيُصيبني بالجنون، وهذه الجدران التي في بياض الطباشير، وضيق المكان.»

لم تكن المرأة الملائمة له؛ فبدلاً من أن تدرك وظيفة إطلاق البخار التي يقوم بها الشجار في الحياة الزوجية، أغضبها افتقاده إلى المنطق، فمضت إلى شاميزو والزوارق الراسية خلف المتحف الوطني ثم عادت إلى مندلزون. طالما تخيلت زوجته، فروميت، وهي تعدُّ حبات الزبيب للحلوى، كما يتخيَّل آخرون لوته حبيبة فيرتنر.^{٩٤} وهي تقطع الخبز. لقد اضطرَّ آل مندلزون أيضًا للانتظار فترة طويلة قبل أن يتمكنوا من الزواج، لأن موسى كان خائفًا من الحمام، وإنما لأن القانون كان يحدّد عدد حالات الزواج بين اليهود، كان عليهما أن ينتظرا حتى يُخلي لهما الموت مكانًا.

لكن المتوازيات التاريخية جميعًا خاطئة، وخاصة التراجمي منها. لقد ضاعف هيلوازه وأبلارد، إيزولده وترستان، جوليت وروميو، بتأثير المعارضة، من عواطفهم بسهولة، وبلغوا بها مستوى العظمة، بينما كانت هناك بسالة ضئيلة في الطلاق، والمناقشات وصعوبات الإسكان وتغيير العمل (رغم فهم المرء للضرورة)، يا له من تافه هذا الانهيار البطيء، هذه النغمات الناقصة، والصدمات غير المُدرَكة حسيًّا التي لا بُدَّ وأن تنمو أحيانًا إلى صدعٍ عريض! من المحتمل أن يكون الكفاح ضد هذا كله أكثر صعوبة، لكنه يجب أن يكون ممكنًا أيضًا. لكن الأنسة برودر، هذه السيدة الشابة الرابطة الجأش، كانت خائفة، خائفة جدًا، وهو خوفٌ ضاعف منه أنه لم يعد من الممكن أن يكون موضوعًا لحديثهما.

أقنع إرب نفسه بأنه ضحى من أجلها، وطالب بالشكر، ورفض ببساطة أن يعترف بأنها كانت دائمًا تُعارض هذه التضحية لا من أجله، وإنما خوفًا على ديمومة حبهما، الذي

^{٩٤} بطل رواية جوته المشهورة «آلام فيرتنر».

رأته مهذَّباً بعدم تكافؤ الأعباء. لم يكن من المعدن الذي يُصنع منه الأبطال والشهداء، وهو ما جعلها تعشقه أكثر (فمن المؤكد أن عدد النساء اللاتي يرغبن في أن يكون إلى جانبهن بطلٌ أكثرٌ في الكتب منه في الحياة الحقيقية) رغم أنه يمثل تحدياً في الوقت نفسه؛ فلا بدُّ من حمايته من المبالغة في تقدير نفسه، وهو ما دعاها إلى أن تقترح الانتقال سوياً إلى الريف. لكن هذا من شأنه أن يثير دورةً جديدة من الجدل: إلى الريف؟ أجل، لن يعارض ذلك أحد. إذن فهي تودُّ أن تُضحي بنفسها؟ كلا. أجل. كلا. أجل. بالتأكيد لا!

وهي في الحقيقة لن تكون تضحية ولم تكن كذلك منذ زمنٍ طويل. كانت تفكر فقط في حبهما مدركةً أنه لن يتحمل الجناح ب طويلاً، وأن فرصتها الوحيدة هي أن تبدأ من جديد في مكانٍ آخر، في بيئةٍ جديدة، بين ناسٍ جُدد، وفي ظل ظروفٍ واحدة بالنسبة لكليهما. ألم تَحِنَّ أبداً، حقيقة، للربيع في الريف؟ هل آمنت حقيقةً ذات مرة بأنها ستذوي إذا ما غادرت برلين؟ ماذا تمثل برلين لها الآن؟ بل ماذا تمثل له؟ قد تكون الحُبة الهادئة لسلوكه أنه يستطيع البقاء في برلين عند نقله، أما هي فلا. إذن ما الذي يجعله متمسكاً بالبقاء هنا؟ من الواضح أن المكتبة ليست هي السبب ولا الجناح ب، فماذا إذن؟

وبعبارةٍ أخرى: بدلاً من الإعجاب بشجاعته وانتصاره على ذاته، ارتابت به. وحدث هذا في اللحظة التي أبرز فيها قوّته؛ فقد أبرز العظمة، التي ترى عصرنا خلواً منها. لقد فجّرت فيه المعارضة البسيطة من جانب المجتمع القوة لإبداء إيماءةٍ باسلة. لكن هل سيستمر الأمر دون تلك المعارضة، في حياة كل يوم؟ كان خوفها هو الخوف من الشك. وما كانت تستطيع احتمال هذا الشك ما لم تكن قادرةً على تحويله إلى نشاط. وبينما كان هو يُحاول تجنب كل قرارٍ كانت تندفع نحوه. كانت تعرف أن السعي وراء السعادة مرتبط دائماً بالمخاطرة، ولم تكن تخشى هذه المخاطرة؛ لأنها أرادت شيئاً غير عادي حتى ولو لم يكن مرتبطاً بالبطولة، ومرتبباً فقط بالحياة اليومية.

إذا كان حقاً أن العظمة تنشأ من المعارضة فإن مجتمعنا لن يكون تربةً صالحة لقصاص الغرام العظيمة.

ربما. لكن هذا ينطبق على المجتمع.

وليس في صالح كارل.

كما هو واضح.

هذا الفصل المخصص لنهاية الأسبوع سوف يتناول الربيع والمنزل والحديقة والأطفال والدجاج ومزايا الكسل، وأعقاب السيجار وأنيثا، بالإضافة إلى شرطيٍّ مألوف لكنه بلا اسم، وضجة الأبواق وتغييرٍ مفاجئ أحدثه الرسول الملكي، وفي الواقع لا يضم الفصل غير إرب الذي يُلقي منولوجًا بشأن هذه الموضوعات بقفزات طائشة بالطبع، أقرب إلى الفوضوية، مثلما هو شأن أمثال هذه المنولوجات: يا للجحيم! إنها ما زالت السادسة وعُش العصفورة فارغ، لا يمكن أن يكون هناك حقًا اسمٌ تدليل أكثر ملاءمة بينما ليس فيها من شيءٍ عصفوري. هل حقًا يمكن تحديد الحجم من أيديهن وفي حالة الرجال من أنوفهم؟ يا له من هُراء خمس ساعات فقط من النوم! مرةً أخرى الأرق يجلب اللعنة، يا للجحيم! يا له من ضجيج من المطبوعة! لماذا لا يستريحون يوم السبت؟^{٩٥} أن تكون بمفردك شيءٌ سخي. لم يُعد لدينا جُبِن والحنوت الآن مزدحم ... هكذا أو بصورةٍ مشابهة يمكننا أن نتظاهر بأننا نخلق صورةً أصيلة، لكن لماذا نفعل؟ إن تسلسل الأحداث وقابلية السرد للقراءة أكثر أهمية؛ ولهذا يبدأ الفصل هكذا:

لم يبتسم كارل عندما استيقظ، رغم أنه تذكر في هذه اللحظة أنها بداية نهاية أسبوعٍ حرة وحيدة. كان يتوق إليها دائمًا كما يتوق الطفل إلى الكريسماس. والآن وقد جاءت، فإنها امتدت أمامه مثل عطلةٍ مطيرة في غرفةٍ باردة بأحد الفنادق ... فارغة، مقفرة، لا نهائية. الكل يعرفون هذا الشعور؛ في البداية أملٌ عظيم في أيام من التبطل، بساعاتٍ خاصةٍ بك وحدك، ثم يأتي ضياع الوهم العظيم، فلا تستطيع البقاء دون عمل؛ إذ لا بدَّ منه كي تكون نفسك تمامًا، وعندئذٍ تستبدل راحة يوم السبت بنشاط يوم الأحد. استاد كرة القدم، المرقص، الرحلات، أكواخ العطلات. الهوايات. وهو اكتشافٌ يتوصل إليه المرء لا مرةً واحدة، وإنما مئات المرات. تبدى هذا بوضوح في حالة كارل؛ فخلال الأيام التي قضتها حبيبته في أداء امتحاناتها بمدينة لايبزيغ، أمل أن يرتقي جبلًا من النقاها، وبدلاً من ذلك نراه في دقيقته الحرة الأولى قد سقط في أعماق الكآبة.

لكن شمس الصباح أشرقت خارج النافذة على الخُصرة الطازجة لأشجار الكستناء والصفصاف بالمقبرة، وثرثرت طيور الزرزور، وغنى طائرٌ أسود (من أجل الأنسة برودر

^{٩٥} تتألف العطلة الأسبوعية بألمانيا الديمقراطية من يومي السبت والأحد فيما عدا المدارس.

يجب وصفه بأنه طائرٌ كبيرٌ بعض الشيء، أسود بمنقارٍ أصفر) بصوتٍ ما زال مبحوحًا من أثر الشتاء، وغير مدربٍ، أوّل أغنية حب له، أغنية ضعيفة لكنها تكفي لبدائيات الربيع وللساكن المتواضعين في المساكن الخلفية، كما تكفي لأن تجعل بذور اليأس لدى كارل تنمو في سحاء. نهاية أسبوعٍ طويلة، مرةً واحدة، بمفرده، دون عمل، ودون موعدٍ يتطلع إليه. نهاية أسبوعٍ ليست مجرد استراحة وسط مَسْعَى، صباحٍ مشمس في الصحراء المرصوفة، بواحة المقبرة التي أيقظت ذكريات النهر الضائع، والحديقة المفقودة، يومٌ ربيعي، يبعث على الأمل لأنه سرعان ما سينقضي وما زال مفعماً بشوق أيخندورف (وربما شوخولسكي)^{٩٦} للحب والجمال والسعادة دونما تأثر بالهموم اليومية، بينما يخيم فوقه إدراكٌ بأن هذه أمور لا وجود لها، ثم يحجب الضوء عنه شعور الاستسلام، لكن دون أن يؤدي إلى القضاء عليه قضاءً مبرماً.

ولم يساعده الصنوبر الشاغر في التغلب على الأمر، ولا الفراش الذي يمكن ترتيبه فوراً، ولا القهوة المصفّاة والتدخين الهادئ لسيجارة الصباح، ولا ضجة الأطفال المنطلقين إلى المدرسة في سعادة (وضجة أيضاً) أكثر من المعتاد. على العكس، كان هؤلاء الأطفال المجهولون بالضبط هم الذين دفعوه إلى أن يُقرّر زيارة أطفاله هو.

كان هذا مجرد عذر، كما أدرك بسهولة؛ فلم يكن يفكر فيهم خلال الرحلة، وإنما أجلس الأنسة برودر إلى جواره، ومضى يحدثها عن المعالم الخاصة في الطريق الجبلي (الذي قُطع الآن فجأة) لحياته العملية القصيرة؛ مدرسة الكتّيبين السابقة (وهي هامة أيضاً لأنها المكان الذي وجّه فيه أولى نظرات الإعجاب إلى إليزابيث)، محطة يانوفيتز بريكه شتراسه (حيث وضع قدميه لأول مرة على تربة برلين)، فروخت شتراسه (التي ساعد بالجاروف في إزالة ما كان بها من أنقاض)، أو برباومبريكة (نقطة البداية لرحلات النشاط الحزبي الدعائي إلى برلين الغربية)، روميلسبورج (حجرته المفروشة الأولى، ويا له من أثاث!)، أوبرشونفايده (البحث عن أسرة لضيوف مهرجان الشباب)، منتزه الرواد (فيضان الدموع عند وفاة ستالين). كيوبنيك (المخيمات) فريدريشهاغن (أول وظيفة في مكتبة). وفي الطريق المفتوح حملته الشاحنة من جديد إلى الريف وإلى جواره إليزابيث في الرداء القادم من برلين الغربية، وبدأت من جديد جولات الدراجات برفقة إليزابيث؛ إليزابيث، إليزابيث. الآن ليست

^{٩٦} من كتاب الخمسينيات في ألمانيا الديمقراطية.

شيئاً محرماً، كانت جزءاً من حياته، جزءاً كبيراً، مثل الطفلين اللذين وُلدا كلاهما في نفس المستشفى بكيوبنك. وكان بيتر قد بلغ ساعتين من عمره عندما وصل المستشفى برفقة مانتك، الذي ظنوه الأب خطأ، فلم يأخذ أحدُ كارل على محمل الجد. ربما كان الأطفال إذن هم السبب.

عرضاً فقط، فما زال يخاطب الأنسة برودر حتى عندما بدأ يقود سيارته ببطء في الضاحية الواقعة على نهر شبريه وهو فخور بأن يبدي معرفته بمن يعيش هناك ومن يعيش هنا، وباسم هذا النوع من الجص، وبأن تلك الشجرة الصفراء الجرسية الأزهار تُدعى فرسيتية، وبالطريقة التي يمكن بها مضاعفة غزارة نباتات السياج، وصعوبة الحصول على أبصال الزعفران، وأن إليزابيث لم تكن تعباً في الحديقة بغير الزهور، وهو لا يعبأ بغير الفواكه، وأن إليزابيث قالت ... إليزابيث، إليزابيث.

وإذا بها غير موجودة. لم يكن ثمة أحدٌ بالمنزل؛ فالتسبب ليس عطلة للأطفال، لكنه كان ما يزال يحتفظ بالمفاتيح، واحد لبوابة الحديقة وآخر للمنزل. كانت أحواض الحديقة الأمامية معزوقة، والممرات مقلوبة، والزنبق يرتفع خمسة سنتيمترات، وبضع من زهور اللبن الثلجية ما تزال تتفتّح، والبنفسج على طول الجدار، وبراعم نبات الرايق بازغة، والسوسن أيضاً، والفوشية والحدقية والشوكية. وفي الصالة كانت معاطف الأطفال الشتوية ما تزال معلقة، أيقظت مشاعرَ ماثلة لتلك التي تُوقظها مخلّفات الموتى — قليل من الحزن ومزيد من الكراهية للأشياء التي تتمتع بديمومية أكثر من الحياة الإنسانية. لكن هذا كله جاء وانقضى في لحظة واحدة، وإذا به يندفع جرياً إلى غرفته في الطابق الأعلى. كانت هذه الطريقة في صعود الدَرَج ما تزال مألوفة، رغم أنه لم يمارسها من مدة؛ واحدة اثنتان ثلاث أربع خمس ست سبع ثماني تسع درجاتٍ صغيرة ذات صرير، شديدة الانحدار، الدرابزين الضيق، رائحة الخشب، الظلام، مقبض الباب البارد (صغير مثل مقبض السكين)، ثم الضوء المفاجئ في الغرفة، والصدمة التي انتابته من جرّاء الفوضى الضاربة؛ أغلفة الحلوى ومكعبات اللعب على الأرض، السرير غير المرتّب، المكتب الذي انتشرت فوقه الكتب والمذكرات والنفايات، وأرفف الكتب التي غطاها الغبار، والكتب نفسها غير مرتّبة. افتقد مجلّدين من مجلّدات دائرة المعارف ورأهما على المائدة مفتوحين؛ الأعضاء الجنسية عند المرأة، مراحل الحمل. هل بلغ بيتر هذه المرحلة أخيراً؟ ألم يبدأ عطشه (كارل) لدوائر المعارف في سنّ متأخرة؟ إذن فيبيتر ليس مهتماً بعودة أبيه، هل يرغب أحدٌ في عودته؟ ربما كانوا يحسدونه على المنظر الذي يطالعه من هذه النافذة، عبّر النهر المتلألئ، فوق أشجار التفاح ببراعمها

المستديرة البارزة، فوق وردية زهر الخوخ ... لم يكن ثمة أثر للبرفسور. هل هو مريض، ميت؟ أو أن الوقت متأخر؟ كانت الشمس قد صارت فوق الغابة، لم تعد ساعة الصائد، وإنما الآن ساعة المكتب. وعندما فتح النافذة سقطت الأشعة الدافئة على يديه وقمة رأسه. الصباح بالمنزل أمام مكتبه؛ الشمس، هواء الغابة، رائحة المياه الجارية، نعيب الصنادل النهرية. ثم يأتي صوتٌ من أسفل: الغداء جاهز.
صوت من؟

الآنسة برودر بالطبع، لكنها في حُلُم اليقظة هذا تحمل الكثير من طباع إليزابيث؛ التحفظ، انعدام الطموح، القدرة على التكيف أو بصراحة أكثر الاستعداد للخدمة. كان إرب في أحلامه من شعراء الحياة الريفية الكبار. رتب المكتب ونفض الغبار عن سطحه الزجاجي، ثم جلس بلا حراك وقد سقطت أشعة الشمس على يديه ورأسه، وجعل يُراقب غراباً يتأرجح فوق غصن شجرة صنوبر. فكَرَّ في محاسن التبطل وعدم الحركة والخمول، وفي موضوع الكسل كحالة أخلاقية، وتشكَّلت تأملاته، وقد تحرَّرت من الطبيعة المتناثرة للمنولوج الداخلي وتفريعاته، في لغة، وتحولت إلى صيغة يمكن تلخيصها في هذه الفكرة الضخمة؛ من لا يلمس شيئاً لا يوسِّخ نفسه، ومن لا يتحرك أبداً لا يضايق أحداً.
لم يفكر كارل هكذا، إنما فكر بالأمثلة، فكَرَّ في نفسه، وحماس شبابه وحركته الدائمة بدفع موتور المثل العليا والطموح التي أضفت مبالغة شديدة على كل مبالغة عقائدية، فكَرَّ في أبيه وقبل كل شيء في أيزنهارت، زميل التلمذة في مدرسة البساتين، الذي نام في عمق خلال اختبار العمال المهرة في المنزل الأخضر (الذي علَّته شعاراتُ نازية قُذَّت من حروف في حجم الإنسان: «نحن نزرع الطماطم من أجل جنودنا»).

وبعد ذلك نام طوال خدمته العسكرية بما في ذلك معركة آخن، وهكذا (الأمر الذي ميَّزه عن كافة الذين كانوا حريصين بجنون على تأدية واجهم وعلى الوطن) اجتاز عهد الإرهاب محتفظاً ببيكارته. فكَرَّ كارل أنه ربما يكون من الصواب القول بأن المجدين المتفانين والمثاليين هم الذين كانوا في غمار ذلك العهد رعب العالم، بينما كان الكُسالى حُماة الإنسانية. ألم يكن المجتهدون في ذلك العهد هم زيت آلة الموت، والمتبلدون حبَّات الرمال التي ما كان بوسعها أن توقَّف الآلة، ومع ذلك اعترضت حركتها، وأبطأت منها؟

هكذا عكف إرب على بناء نظري يهدف إلى حماية وجود المقعد ذي المسندين أمام النافذة، الذي كان يتوق إليه، شيئاً منزلاً من الأفكار من صناديق البرتقال دون أساس، يُعوِّزه التناسب، وتتسرَّب إليه المياه. بالإضافة إلى أنه لم يكتمل؛ إذ سرعان ما هجره.

ترك مبناه المصطنع في حالته نصف المنتهية منذ كان أولاً على قَدَر من المهارة يكفي لأن يدرك أنه لا يناسب، على أكثر تقدير، سوى عصرٍ مضى (كانت فيه البلادة من الفضائل)، وثانياً لأنه رأى في الحديقة، حديقته، عجوزين (الرجل في قُبْعَةِ النوتية والمرأة في منديل رأس)، يشرعان في اقتلاع النخيلة، نخيلته التي كَرَسَتْها اثنتا عشرة سنة من الرعاية. جذب مصراعي النافذة بالطبع وصاح، صرخ، هتف، مناشداً، متسائلاً، لاعناً، دون نجاح (عدا أن الغربان غادرت الشجرة وطارت إلى الغابة). اندفع يهبط الدَرَج ويعبُر حجرة المعيشة (التي يعرفها القارئ بصفتها حجرة الكريسماس) إلى التراس ثم الحديقة، حتى وقف أمام وجهي المجرمين (الممثلين بالتجاعيد، ذوي الوجنتين الخمرأوين). لم يُؤْخِذاً كما يحدث للمجرمين عادةً بل عامله كما لو كان هو المجرم، فسأله بغضبٍ عن كيفية وجوده والباب الذي دخل منه (كانا يعتقدان أن هناك باباً واحداً وأنه مغلق) وما يفعله هنا. كانا يتكلمان في آنٍ واحد بينما يسأل كلُّ منهما عن شيءٍ مختلف، ولما كان إرب يعتقد أنه هو الأجدر بتوجيه الأسئلة فقد فعل، وكانت النتيجة أن ثلاثتهم أخذوا يتكلمون في وقتٍ واحد، وارتفعت أصواتهم، واختلطت، حتى استسلم العجوزان، وتبيّن أن كليهما ضعيف السمع، وربما كان الرجل بدرجةٍ أقل من المرأة؛ فعندما فهم أخيراً (أو أساء فهم) شيئاً من صيحات إرب، ردّده زاعقاً في أذنيها عبر بوقٍ بدين: «يقول إنه الزوج.» - «زوج ماذا؟» - «زوج السيدة إرب.» - «الذي هجرها؟» - «أجل.» - «إذن فقد عاد إليها؟» - «إنه يقول لا.» - «إذن هو ليس السيد إرب؟» - «أجل إنه هو.» - «إذن فقد عاد إلى زوجته؟» - «إنه يقول إنه هنا في زيارة.» - «عمن يبحث؟ إن السيدة إرب ليست هنا.» - «إنه ... هنا ... في زيارة.» - «لكن السيدة إرب ليست هنا. إن لديها موعداً وستتأخر في العودة، أما الأطفال فسيأتون عند الظهر.» - «إنه ليس بزاز، إنه السيد إرب.» - «إذن فالأمر كذلك، طاب يومك أيها السيد إرب ... ماذا يقول؟» - «إنه يسأل لماذا نقتلع العشب.» - «يا إله الرحمن، من يمكن أن يقوم لنا بذلك؟ لقد مات أطفالنا وليس هناك من يُعنى بعجوزين مثلنا.» - «إنه يريد أن يعرف السبب.» - «بسبب الدجاج بالطبع.» - «إنه يريد أن يعرف أي دجاج.» - «كلها بالطبع ... هل تظن أنني سأقدّم ذرة للرد أيلاند وحدها وأضحك على الليجورن بالبطاطس؟» - «قال: إذن فأنت تريدان أن تزرعي ذرةً هنا. وقلتُ له: نعم. وسأل عن وجه حقنا في ذلك.» - «أيعني البذور؟ لقد حصلنا عليها بأمانةٍ تامة، وعلى أية حال فإن الأمر لا يعنينا ... أفهمت؟»

فهم إرب ذلك، وبعد دقائقٍ أخرى من الصياح أدرك لماذا ستُزرع الذرة في حديقته. لقد اتفقت إليزابيث مع العجوزين على العناية بالحديقة مقابل أن يزرعا ما يشاءان عدا

استثنائيين؛ أن تبقى الزهور في مقدمة المنزل، وأن يكون هناك شريطٌ غير مزروع على طول النهر ليلعب فوقه الأطفال. ظهر تأثير الجناح ب على إرب؛ فقد كان يسبُّ ويلعن عندما ابتعد عنهما لكن بصوتٍ خافت لا يبلغ مسامع الأذان العجوزة. شعر بأنه ضحيةٌ للغدر والخداع والاحتيال. لقد عمد إلى تأخير الطلاق حتى يجنبَ إليزابيث ألم النهاية الحاسمة، وها هي تُعرب عن عرفانها بهذه الطريقة! كان العمل الذي استغرق منه حياته يجري الآن تدميره في جانبٍ جديد بدا له من قبلُ منيعًا. في أيِّ كان في الناحية كلها توجد مثل هذه القطعة الكبيرة الكاملة من العشب؟ كم من الساعات والأيام والأسابيع كرس في الاثنني عشرة سنة الماضية من أجل تشذيبها؟ وكم من مئات اللترات من المياه رشها عليها، وكم من مئات الأحمال من السماد نشرها فوقها! لقد أَلَفَ رُكَّاب القوارب البخارية المارة أن يشيروا إلى النجيلة، وكان غيرهم يكفون عن التجديف كي تمضي قواربهم من أمامها في ببطء. وكان بيتر وكاتارينا يشرحان موقع منزلهما للآخرين بالإشارة إلى نجيلته الجميلة، والآن سيتم شغل المكان بالذرة ونباتات العلف والحمص. كرَّر «الحمص» عدة مرات؛ إذ بدا له هذا النبات مُعبرًا عن مدى الانهيار الذي وصلت إليه الأمور؛ الحمص مكان النجيلة الإنجليزية.

حرص على ألا يتطلع خلفه من التراس، وأغلق الباب، وتأمل جنبات غرفة المعيشة حيث كان كل شيء على عادته، عدا أنه غير مرتَّب. لم تكن النوافذ قد نُظِّفَتْ وكان الغبار منتشرًا فوق الخوان، كما فقدت الزهور المتدلية أوراقها، واستقر كأسا فودكا على المائدة، بينما كانت الزجاجاة على الأرض غير فارغة تمامًا. صَبَ لنفسه كأسًا وبينما كان يُعيد الكأس إلى مكانها لحظ أعقاب السيجار في المطفأة، وصاح صوت بداخله: خيانة، خيانة؛ لأن إليزابيث لا تُدخِّن السيجار.

وقف أمام المرأة في الصالة، وتأمل نفسه. أيتأمرون جميعًا ضده لأن سنَّه يزداد وضوحًا عليه؟ كانت بطنه تكتسب استدارةً وجبهته تزداد علوًا، والبُقْع الصلعاء اتساعًا، والتجاعيد المحيطة بعينيَّه عمقًا، وأسنانه صفراوية، ولثته تقلصًا، لم يكن يُطبق الخمر، وخاصةً في الصباح، وهياً له الكأس الذي احتساه مناظرَ مربعة؛ إليزابيث وقد دفعها اليأس إلى الشراب، تجرُّ الرجال إلى المنزل من الطريق، تقيم الحفلات العرييدة، وتصرخ وتئن حتى تُوقِظ الأطفال. اندفع إلى غرفة نومها. هنا أيضًا كان الفراش غير مرتَّب وقميص نومها ملقى فوق المقعد، ولم ير شيئًا آخر يبعث على الشك، لكن فيلمه المرعب استمر؛ الأثمان في الحَمَّام، وفي الفراش، والطفلان يقفان في الباب جاحظي العينين.

ثم سمع ضجة من الشارع، واستولى عليه الخوف أن يلتقي بأفراد أسرته، اندفع إلى الغرفة فأعاد الفوضى إلى مكتبه، وفتح مجلدي دائرة المعارف وأغلق النافذة؛ عاد إليه إحساسه بالأمان عندما صار في سيارته، وانطلق بها في بطء نحو المدرسة، ثم عاد إلى المنزل، ومرة أخرى انطلق إلى المدرسة. أوقف السيارة خلف المدرسة، متخفياً بأشجار الطريق، ودخن، وانتظر، وهو يُدير وجهه بعيداً عندما يمر به أحد، وراقب الصبية يلعبون الكرة الطائرة والفتيات في ملابس الرياضة القصيرة يؤدون تمارينها. جعلت مدرّستهم تتطلع إليه بين الفينة والأخرى: أهو عجوزٌ داعر اجتذبه منظر النهود المهترئة؟

أمرٌ حقاً وقتٌ طويل قبل أن يُحرّره جرس المدرسة هو الآخر؟ تبين كاتارينا على الفور في سيل الأطفال. كانت تسابق ثلاث فتيات أخريات من الباب إلى الشارع، وفازت عليهن، لكنها لم تلبث أن تخلّت عن إسراعها ووقفت تتبادل الإشارات والضحكات مع الآخرين، ثم سارت أخيراً وقد عقدت ذراعها بذراع فتاة ذات شعر أسود مجعد. استدار وتبعهما ببطء إلى أن تطلّعت الفتاة ذات الشعر المجعد خلفها، فضاغف سرعته ومزق بجوارهما، متجاوزاً حد السرعة، ثم اتجه إلى الطريق الرئيسي. أراد أن يذهب إلى مكان ما، أي مكانٍ خلاف المنزل. ضاعف السرعة، لكن هذا لم يسعفه. أراد أن يأكل شيئاً، لكنه لم يجرؤ على التحوّل عن الطريق العام؛ فقد كانت كل الأماكن الواقعة على اليمين أو اليسار مفعمة بالذكريات وقد نال منها كفايته. هكذا ظل فوق الأوتوستراد، وقاد سيارته في شبه دائرة حول برلين، ثم تناول طعامه أخيراً في مكان ما ناحية الغرب. كان منحرف المزاج (بسبب تكلفة البترول الذي استهلكه) عندما عاد إلى المدينة في المساء، وعلى الطريق الدائري عند هاكشر ماركت استولى عليه ثانية الخوف من انعدام الراحة في غرفة الأنسة برودر فظل في الطريق، وانطلق إلى منزل هاسلر. هناك كان بوسعه أن يسمع هاسلر، عبّر الجدران الرفيعة للمسكن الجديد، يتحدث إلى شخص ما، ولم يشأ أن يتطفّل عليهما فعاد أدراجه. كانت المدينة تضم أكثر من مليون شخص ليس بينهم شخصٌ واحد يستطيع زيارته دون حرج في نهاية الأسبوع، فلم يجرؤ على الذهاب إلى مانتك؛ لأنه إما أن يكون في السينما أو المسرح، أو يكون قد لزم المنزل لسبب هام — ضيف أو عمل أو التلفزيون.

بل إنه فكّر في ذلك الشرطي المجهول الاسم في مركز الشرطة. كان بوسعه أن يروي له دون حرج ما يشعر به من تعاسة، تعاسة بالغة؛ لأنه اكتشف ليس فقط أنه لم يألّف بعدُ غرفة الفناء الخلفي وإنما لأنه لن يألّفها أبداً. وليس فقط أنه يشعر فيها بالتعاسة مع العصفورة وإنما أيضاً بدونها، وليس فقط أنه تخلّى أخيراً عن حرّيته، وإنما أيضاً لأنه

لم يعرف ما يصنع بها عندما حصل على إجازة قصيرة من عبوديته الاختيارية، وأنه كثيرٌ للغاية أن يطالب باحترام إرادة وحكم الآخرين، وأنه (فوق كل شيء) لا يستطيع البقاء بمفرده.

لكن لم يكن وحيداً ذلك المساء؛ ذلك أن أنيتا (وقد حلت مكان أبيها المؤلف، الذي كان في السينما) كانت ماثلة فوق قاعدة النافذة. خاطبته، وأجاب (لأنه كان وحيداً للغاية) وردّت على إجابته. وطوال حديث عن الطقس كان وجهها الغريب فوقه (لأنه كان يتحدث إليها من الطريق) ثم صار تحته (لأنه دخل وجلس إلى جوارها أمام المائدة وكان أطول منها). ثم شرب الفودكا (التي رفضها من العجوز باشكه في أول زيارة له للمنزل). مرةً ثانية وثالثة. ثم تمدّت على الأريكة (لأن الجينز الأزرق الذي ترتديه لا يمكن إبرازه للعيان هو ومحتوياته أسفل مائدة الطعام الثقيلة). ثم فكّر: الشيء الرئيسي ألا يكون المرء وحيداً، عندما كنتُ مع إيلزابيث كانت تسمح لي. أنت لا تحصل من الحرية إلا على القدر الذي تأخذه. كانت ودودة للغاية، لكن البلوفر كان سميكاً أكثر مما يجب بالنسبة للجو، لهذا اضطرت للوقوف كي تتمكّن من جذبه إلى أعلى وخلعه من رأسها، وقد نجحت في هذا لأن رأسها كان كبيراً ورقبتها رفيعة، مما أجبرها على أن تقف أمامه بعض الوقت بذراعين مرفوعتين ووجه مغطى، عارضةً بلوزتها الشفافة المثلثة جيداً، حتى اقترب منها (لأنه لا يستطيع احتمال الوحدة) بنوايا خيرية وجذب السوستة عند رقبتها. وكي تُعبّر عن شكرها (سواء أرادت ذلك أم لم تُرده، ولم يكن هو بعدُ راغباً)، سقطت على رقبتها الزهرة السمراء المجردة من الشوك، ناعمةً بدفء الجنوب وجادة، جادة للغاية كأنما تواجه مهمةً جادةً، وغريبة في ظلمتها، لكنها ما عادت منفرة. ثم انفتحت أزرار بلوزتها، وتحتها كان هناك ظلام أيضاً، لكن الغرفة لم تكن كذلك، الأمر الذي تطلّب الذهاب إلى النافذة لحجب الضوء بالستارة، وأثناء ذلك تطلع إرب من النافذة ورأى فضلاً عن الأشياء المعتادة (الحانة، السيارة، الأطفال اللاعبين) رجلاً يبحث عن رقم منزل. هذا الرجل (دون أن يعرف) كان سبباً في أن يرفع إرب يده عن الوردة، ويعيد النظام إلى شعره ورباط رقبتة وسترته، ويتحول إلى الباب، ويعبر الفناء، ثم يصعد ثمانين مراتٍ عشر درجات (أي أربعة طوابق) ليفتح ويغلق الباب، ويأخذ كتاباً من الرف، ويضعه مفتوحاً على المائدة، ثم يسقط لاهثاً فوق مقعد وينتظر.

ينتظر الرجل الذي كان يبحث عن رقم المنزل.

الملاك المخلص.

التحول المفاجئ في الأحداث.

فرد مانتك، الرسول الملكي.

لكن وصوله تأخر بعض الشيء لأنه لم يكتشف غايته على الفور؛ فقد بدأ بحثه المنهجي في الجناح الأمامي. تاركًا بذلك لكارل الوقت الكافي كي يساوره القلق بشأن الزيارة، ويفكر في مغامرته الناقصة التي لام نفسه بشأنها لكن ليس كثيرًا؛ لأنه اكتشف على الفور نظرية تقول: إن الرجل أكثر عجزًا أمام إغراء المرأة من المرأة أمام إغراء الرجل، منذ كانت النساء اللاتي يرفضن عروض الرجال يُعتبرن فضيلاتٍ ومستقيمات بينما الرجال الذين يرفضون العروض يُهينون المرأة ويُعطون انطباعًا بالضعف والجبن والشذوذ. ما يجلب الاحترام للمرأة يجعل الرجل في مظهرٍ مضحك؛ ولهذا ... لكن الجرس دق، ومثل إرب المفاجأة بدقة مداريًا قلقه واضطرابه، ولم يسمح لنفسه أن يفقد أعصابه ويتفوه بشيء عن العذاب الذي عرّضه له مانتك لأنه لم يضع بوقًا على شفّتيه، ولم يدق على طبل، ولم يبسط لفافة الرقّ المبلّلة؛ لأنه كان لا مهمًا ولا عاجلاً، وتلافى مظهر من يحمل أنباء التحول المفاجئ في الأحداث، والواقع أن مسلكه كان عاديًا؛ إذ أدلى أولاً بملاحظة عن المنزل (هذا فظيع، يجب أن تنتقل من هنا، هل قُمتَ بشيء في هذا السبيل؟) ثم عن الغرفة واللوحة المذهبة الإطار، ثم استفسر عن الأنسة برودر، وأبلغ تحيات زوجته ولم يرفض كأسًا من الخمر، وأصغى دون نفاذ صبرٍ إلى قصص طويلة من إرب عن المنزل وسكانه. وأخيرًا دنا من موضوعه، فأفرغ في بطاء ولذة حقائب سرجه العديدة التي حُشرت بالأفكار والأنباء، بما فيها آرائه الخاصة، التي نمت دياالكيكيًا ولم تنضج إلا أخيرًا، عن زواج إرب وغرام إرب، وعمل إرب من موقع السلطة ونشاطه المتجدد. باستطراد علّق وحلّل وأسّس وجرد، وهنا فقط جذب حقيبة الرسول الملكي المختومة بالشمع، ففّض الختم، وكشف للشخص المعني عن القرار الكهنوتي؛ منذ كانت الأحداث الأخيرة قد أبرزت بما لا يدع مجالًا للشك أن إرب قد تورّط في علاقة غرامية سخيفة بسبب الطيش والفجور والشبع والافتقاد إلى النظام والانحلال وانعدام المسؤولية، ومطاردة الجونلات، والشغف بالمغامرة أو المغازلة، ولما كان تطوّر القضية قد كشف عن قوة الشخصية والثبات والجدية، ولما كان إرب قد تغلب على الرضى البرجوازي الصغير عن النفس وعلى التراخي والاستسلام، واستعاد روحه وشجاعته السابقتين، لكافة هذه الأسباب سقط اقتراح مانتك فوق أرض خصبة في الوزارة المعنية. وتقرّر الاستعانة بتجربة إرب في مستوى مركزي، وهو يسأله الآن بصورة رسمية عما إذا كان مستعدًا لتولي منصب في الوزارة.

في برلين؟

أجل، في برلين ودون أي تخفيض في راتبه السابق.

مما يعني أن كافة النزاعات المتراكمة قد وصلت من وجهة نظر الدولة إلى حل، مما يثبت أن الحب العظيم ليس ممكناً في مجتمع يهدف إلى العناية بالقيم الإنسانية. لكن منذ كان كارل غير مهتم بالحب العظيم وإنما بالقضايا اليومية كان ردُّ فعله غريباً. لم يقبل الاقتراح ببساطة، وإنما انطلق يتكلم حول الموضوع. لم يبدُ سعيداً بصورة خاصة بزوال العقبات الخارجية. هل لأن قراراته ستفقد الآن أي مظهر من مظاهر البطولة؟ لكنه كان قادراً على رفض الاقتراح (كما فعل الكثيرون قبله). تحدث حول الموضوع، هذا حق، لكن المرء عندما يحذف الثثرة من إجابته التي استمرت نصف ساعة، لا يبقى غير: أجل، أجل، أجل، أجل، أجل، أجل.

٢٤

كيف وصل عقب السيجار إلى منفضة إليزابيث؟ لو كان إرب بدلاً من إطلاق العنان لمشاعره قد تتبّع دليل سيجارٍ لحصلنا أخيراً على شيء من التوتر، وهو ما لم يتمكن كاتب هذا التقرير من خلقه ببحوثه.

فقد استفسر إرب من إليزابيث عن الأمر وأخبرته: هذا هو كل ما في الأمر.

هاسلر؟

بالطبع.

قصة حب؟

كلا، كلا، بالتأكيد لا، أمرٌ غير محتمل. يصعبُ افتراضه. على أي حال ليس هناك من دليل. ورداً على سؤال عن هذا الموضوع عزف هاسلر عن الاقتباس من الكتاب المقدس، وأجاب باقتضابٍ غير مألوف: «ليس الأمر متعلقاً بي.» وهي إجابةٌ تسمح بالشك في بعض الأمور، لكنها تترك الكثير مفتوحاً، كما أنه لا يجب استقراء الكثير منها أيضاً، منذ كان واضحاً أن هاسلر يرغب في أن تتوقف الأسئلة. على أية حال فإن هذه الاتجاهات بالنسبة لإليزابيث (في نفسها وفيما يتعلق به) لم تكن ملحوظة. لقد دعت. وجاء، ودخّن السيجار، وشرب الفودكا، ووجّه أسئلة، وتحدّث في عبارات من الكتاب المقدس، ووعد بأن يقدم مساعدته، ودعا إليزابيث لزيارته في يوم السبت. ولو لم يتراجع إرب أمام مسكن هاسلر وقد ثبّطت من عزمه الأصوات التي سمعها من وراء الباب لكان قد فاجأهما سوياً — بالإضافة إلى شخصٍ ثالث، سبقَت الإشارة إليه في هذا التقرير باسم الدكتور بروخ، ولن يُوصف بالتفصيل (بسبب دوره كشخصيةٍ مساعدة من الدرجة الثالثة).

قصة حب؟

كلا، قصتان. لا بين إليزابيث وبروخ وإنما واحدة بين بروخ وبروخ. وأخرى بين إليزابيث وميدانٍ مرتبط بالفن المعاصر.

استغل هاسلر الصلات التي أنشأها في حفل العام الجديد بمنزل مانتك لتمكين إليزابيث من هجرة ميدان المكتبات. كان يعرف أن كبار العاملين في ذلك الميدان سيغضبون منه لكنه لم يعبأ؛ فقد كان دائماً يفعل (بقدر الإمكان) ما يبدو له صواباً. أتاح لإليزابيث أن تشرح أسبابها كاملةً وتقبلها، ثم رفع مسماع التليفون على الفور: «طاب مساؤك. هاسلر يتكلم، أمل ألا أكون قد أيقظتك من النوم ... هذا صحيح، الأمر يتعلق بمعهدك: أمل أن يكون في ازدهار ... أوه! جميل ... ومشاكل العاملين؟ ... أمرٌ محزن، لكن ربما كان في وسعي أن أقدم بعض العون. ألا تحتاج إلى أمين مكتبة؟ كلا ... ستظل تنتظر ذلك حتى ما لا نهاية، لا يوجد مؤرخ للفن يفهم شيئاً في المكتبات ... أجل، لا أمل على الإطلاق. هناك حلٌ واحد فحسب: أن تُدرّب رجالك بنفسك. عندي شخص لذلك ... أجل متأكد تماماً من ذلك كما أنا متأكد من سماع «أمين» في الكنيسة ... الأفضل غداً ... حسناً، إلى الغد ... أرايت؟» وكانت كلمته الأخيرة موجّهة لإليزابيث التي اضطرب نومها في تلك الليلة، كانت تبحث عن إجابة لسؤالين قادمين: لماذا تريدين التخلي عن عملك القديم؟ لماذا تريدين الالتحاق بمعهدنا؟

وقد جاء هذان السؤالان وإن كان ذلك قد تم في صورةٍ مختلفة، بعد ظهر يوم السبت في شقة العازب الجديدة، التي جلس بها هاسلر يدخن، تاركاً إليزابيث تتكلم وتؤكد، وتشرح، وهو ما لم يكن أمراً سهلاً في مواجهة رجل تعبث أصابعه دون توقّف بخاتم زواجٍ واسع، ويتطلّع فوق رأسها من النافذة إلى السموات الزرقاء الخالية؛ حيث تهيم عيناه أماماً وخلفاً دون هدف، وتنفرج شفتاه مراراً لتجتذب نفساً بصوتٍ مسموع هو بمثابة نقطة الانطلاق في إجابةٍ من كلمات. وجاءت هذه الإجابة (التي تأجلت عدة مرات) أخيراً، ولكن بعد أن انتهت إليزابيث وانتظرت أن تسمع كلمات الموافقة أو الرفض أو عدم الفهم، لكن مثل هذه الكلمات لم تأت، بحيث إنها لا تعلم حتى اليوم ما إذا كان السيد بروخ قد استمع أصلاً إلى الخطاب الذي أنشأته خلال الليل، وما إذا كان قد تتبّع حتى النهاية لو كان قد استمع إليه. وما إذا كان قد فهمه لو كان قد تتبّع؛ لأنها لا تجيد التعبير، وكانت تشعر بما يجب قوله أكثر مما تعرفه.

وما أرادت أن تقوله هو: لقد عادت إلى مهنتها يراودها الأمل مرةً أخرى في أن تصبح شخصاً مكتملاً من خلال عملها، أن يتحول نصف الكرة إلى دائرة كاملة ويصبح القمر

التابع نجماً قائماً بذاته، وقد كان هذا أمراً أصعب مما توقَّعت، لقد قبلتها الأسرة العظيمة للكُتَّيبين لا بصفتها الزميلة إليزابيث إرب، وإنما بصفتها زوجة الزميل كارل إرب، الزوجة المهجورة، التي يجب التعاطف معها والشفقة بها وتشجيعها أو (في القليل النادر وخفية فقط) السخرية منها. لم تكن تلوم غير نفسها (وهذا بسبب حساسيتها)؛ إذ إن هذه هي الحقائق ولا يمكن محوُّها، وخاصة من قبل حَسَنِي النية والمتودِّدين، الذين يعاملون الحقائق كأنها لم تُوجد، وبذلك يُبرزون وجودها بوضوح أكثر؛ فلو ذُكر أحدٌ في حضرته اسم إرب أو مكتبته؛ فإنه نادراً ما يفعل ذلك دون ارتباك، وإذا ما فعل لا تتمكَّن من إخفاء ارتباكها. كانت تقضي أغلب وقتها في محاولة الابتعاد عن إرب، وبسبب ذلك بالتحديد أصبحت أكثر ارتباطاً به. وهي تريد أن تُثبت لنفسها وللآخرين بالعمل الجيد أنها ليست تلك الزوجة السابقة حبيسة المنزل التي اضطُرَّت الآن إلى أن تكسب عيشها بنفسها من جديد. لكن كل ما أثبتته هو أن كل جهد من جهودها كان محاولة لتقليده، كل دفعة كانت محاولة لبلوغ مستوى كفيته؛ فما كانت تسعى وراءه عثر عليه هو من زمن بعيد، وما تعلَّمته كان هو يعرفه من قديم. لم يُخالجها أبداً ذلك الشعور الذي عرفته عندما كانت حاملاً، والذي أملت في أن تُحسَّه ثانية؛ الشعور بأن: هذا شيء لا يمكن لأحدٍ غيري أن يفعله. لهذه الأسباب كانت ترغب في مغادرة المكتبة. مفهوم.

مفهوم للسيد بروخ؟ لقد جعل يعبث بخاتمه. كان ذلك طلسمًا سحريًا لا يحقق أمنية صاحبه إلا بعد دعه ثلاثمائة مرة؟ وماذا كان يتمنى؟ أن تتاح له فرصة الكلام؟ كان قد أفرغ رئتيه من الهواء لكنها أرادت أولاً أن تُرد على السؤال الثاني: لماذا الفن؟ أريد بروخ حقاً أن يعرف؟ أريدها أن تكون صادقة؟ ألا يتوقع الجميع تلك العبارة الشهيرة من طالبي الوظائف؟ منذ طفولتي المبكرة تمنيتُ دائماً أن أتخذ لنفسني مهنة كذا. ألا يتوقع الجميع من طالب الوظيفة بعض الأكاذيب كي يؤكِّد جدية مطلبه؟ لكن حتى لو لم يحدِّق بروخ إلى السماء (أملاً ربما في أن يؤدي هذا إلى أن يتحول اصفرار عينيَّه القبيح، الممتزج بالرمادي، إلى زرقه) وتطلَّع إليها بدلاً من ذلك بتعبيرٍ متوسل: أرجوك أن تُسهِّل الأمر عليَّ بشيء من الغش — حتى لو فعل ما أمكنها ذلك؛ فهي لا تستطيع التخلي عن الصدق؛ سواء لديها الفن المعاصر أو تاريخ النظرية الاقتصادية، أو سيكولوجيا الهندسة أو المجاري أو علم الجريمة؛ فما هي بحاجة إليه هو ميدانٌ خاص؛ أي ميدان (عدا البساتين والأدب وإدارة المكتبات). إن معرفتها طفيفة بالميدان المقترح، هذا حق، لكنها ستتعلم أسرع من أي شخصٍ آخر، ستقرأ وتدرس، تقبل كل ما هو ضروري، تستعين بمن يأخذ بساعدها في

أمور المنزل وقد تَخَلَّصَت بالفعل من الحديقة، وربما تُوجد دراساتٌ مسائيةٌ أو بالمراسلة، ستنتهز كل فرصة. أجل هذه هي قضيتها. وهذا هو كل ما عندها.

انتظرت. كَفَّ خاتم بروخ عن الدوران، وكَفَّت عيناه (اللذان ما زالتا في صفارهما الرمادي) عن الحركة. وظهر تنفُّسه العميق حاملاً سيلاً من الكلمات لا علاقة لها بها وإنما بنفسه، تحدث وتحدث؛ عن نفسه، عن معهده، عن نفسه، عن العمارة المعاصرة، عن نفسه، عن النحت المعاصر، عن نفسه، عن التصوير المعاصر، عن نفسه، عن الجامعة، عن نفسه، عن الاشتراكية، عن نفسه، ثم من جديد عن نفسه وعن المعماريين والنحاتين والمصورين الذين ما كانوا سيُحقِّقون شيئاً لولا مساعدته، وعن الاشتراكية التي ما كانت ستُوجد لولاه، وعن معهده وأهميته التي ما كان سيحظى بها لولاه. وإن ينتهي من هذا كله يتملك المرء شعوراً غامضاً بأنه لا بُدَّ وأن يكون مهماً حقيقة، ويعرف بالدقة أنه مغرور مثل، أجل، مثل ماذا؟ ليس بالإمكان إجراء مقارنة في بساطة؛ فأقوى تشبيه تقدّمه هو أن تقول إنه مغرور مثل الطاووس، وهو ما لا ينطبق في حالتنا؛ لأن الطاووس غبي ومغرور بجماله، وهذا البروخ لم يكن. لم يكن جميلاً. ولم يكن مغروراً بجماله (التخيل) وكان غباؤه قاصراً على ذلك الركن الذي يزدهر فيه غروره، وهو غرور كان مصدراً للضيق والاستمتاع، لكنه لا يؤذي طالما لا تحاول إقامة اتصالٍ إنساني به، وهذا على أية حال كان أمراً مستحيلاً.

لم يخطر هذا لأحد، بما في ذلك إليزابيث، التي لم تكن تبحث عن شخص وإنما عن موضوع، والتي لم تكن تنتظر صداقته وإنما رداً. كانت صامتة (وهو أمرٌ سهل لديها) نافذة الصبر (وهو أمرٌ غريب عليها) وأخيراً نائرة عندما شرع بروخ، وما زال يتحدث عن مآثره العظيمة، في الذهاب، لكنها لم تدعه يذهب. اعترضت إليزابيث (الهادئة، الوادعة. الصبورة) طريقه بتعبيرٍ يقول: على جثتي فقط. طالبت بإجابة عن الفرصة المتاحة لها. تجاوزها ببصره محدقاً من جديد إلى النافذة، وقفّرت عيناه كما في السابق، رغم أنه كان هناك عدد من النجوم يكفي كي تلتصق به نظراته، لكن خاتمه لم يدُرّ حول إصبعه، ولم يأخذ غير نفسٍ واحد عميق استخدمه على الفور: «إنني أحتاج إلى مؤرخ فنون، فإذا كنت تعتقد أن بوسعي أن تصبجي واحدة في فترة معقولة، فقدمي طلباً. يمكنك أن تبدئي العمل في أول الشهر، رغم أن هذا خارج على المألوف، لكنني ... أنا ... أنا ... أنا ... أنا ...» وهذا يمكن حذفه.

جلس هاسلر يدخن السيجار دون أن يتدخل إلا مرةً واحدة بعد سيجاره الثاني. كانت ملحوظته فيما يبدو تفسيريةً موجهة لبروخ، لكنها لم تتفق مع ما كانت إليزابيث

تحاول قوله وزيفته في الواقع. هل اعتقد أن بروخ سيفهم الأمر على حقيقته، وأن تفسيراً زائفاً مفهوماً أفضل من تفسير سليم غير مفهوم؟ هل ظن أنه يعرف الحقيقة أفضل من إليزابيث؟ أو أنه فقط أراد (لأسباب أنانية) أن يختبر رد فعلها؟ قال: «إنها تريد أن تُري زوجها ما تستطيع عمله.» لم تُبدِ إليزابيث ما يُشتمُّ منه موافقتها. لكنها لم تُعارضه.

٢٥

سيكون أمراً طيباً وسيؤدي إلى تحسين هذا الفصل كثيراً (بتقصيره) لو تذكر القارئ بالتفصيل والأمانة فترات القلق والعرق والفرح السابقة على الامتحانات وأثناءها وعند اجتيازها بنجاح. عندئذٍ يكفينا أن نقرر: أن الأنسة برودر شعرت بالمثل. كانت من أفضل طالبات فصلها، وكانت فكرة الرسوب أو الحصول على نتيجة ضعيفة مستحيلة تماماً استحالة الاصطدام بقوس قُزَح، ومع ذلك تبدى لها قبل الامتحان بفترة وجيزة (أثناء رحلة إلى لايبزيغ) أن كل معلوماتها قد اختفت في صمت كما يفعل قوس قُزَح. كانت الليلة السابقة على الامتحان عندها، شأن الجميع، ليلة قطبية (التي نعرف جميعاً أنها تستمر ستة شهور) أصبح فيها كل حلم كابوساً وكل سؤال يمكن توقُّعه قضية حياة أو موت. وكالعادة ضمت لجنة الممتحنين نماذج يمكن أن تثير الضحك (فيما بعد)؛ الخريج الشاب الذي يساعد الجميع «خاصة الجميلات»، العجوز بوجهه الوقور المتجه إلى أعلى ليدرُس فيما يبدو لوحةً خيالية في السقف، السيدة المتقدمة في السن التي يصبح صوتها مغتصباً عندما تواجه الجمال والزينة، قاصف الرعود، العم الطيب الذي يحب المزاح، مخلصة الأرواح، وفوق كل شيء الرئيسة الرفيعة التي تحاول أن تبدو شابة (دون رأس كان ما زال بوسعها أن تكون مس لايبزيغ، وبرأس كانت برهاناً لانتصار الطبيعة على الإرادة ومساحيق التجميل). كل شيء في الواقع (عدا شيء واحد صغير) كان مألوفاً، بما في ذلك ما بعد الامتحان من بهجة، التي كانت عظيمة وقصيرة، رغم أن المعنيين بالأمر تبادلوا العون بأوصاف فعالة واحتفالاتٍ صاخبة من أجل إطالة الفرح والحيلولة دون انصرامه بسرعة.

لم يكن بوسع أحد أن يظل محايداً إزاء الطالبة أو المتدربة أو الزميلة برودر؛ فقد كان مسلکها يتحدى الناس أن يتبنوا وجهة نظر محددة بشأنها. وكان هذا أيضاً ينطبق على أعضاء لجنة الامتحان، الذين تعيّن عليهم أن يكبحوا جماح أهوائهم الشخصية في حالتها

بحزم أكثر من حالات الطلبة الآخرين. وفيما عدا دارس السقف بسبب وفاته، ما زالوا جميعاً قادرين على تذكُّرها اليوم؛ مدرِّسة مادة سيكولوجية القارئ؛ لأنها كانت عاكفةً لنوَّها على مذكرة الأنسة برودر عن سيكولوجية المكتبات، والمؤرخة بسبب تمكُّن الأنسة برودر غير العادي من التاريخ، وخبير إدارة المكتبات بسبب بروفيـل وجهها الأخاذ. واعتقد أحدهم أنها تقرأ أكثر مما يلزم للتفكير المستقيم، وانتقد آخر استخدامها للمساحيق، وظن ثالث أنها أكثر ضعفاً مما تبدو، ورابع أنها باردة وخطرة مثل الأنهار الجليدية. اتفقوا فحسب على إعطائها أعلى الدرجات والتقديرات، والغريب أن خبرة وسائل إعداد الملفات (وليس السيكولوجي) هي التي اكتشفت وذكَّرت أسباب الأحكام الزائفة التي يتوصل إليها البعض بشأن الأنسة برودر؛ فقد كانت ذات كبرياء من الخارج ومن الداخل، فضايقت أولئك الذين تقتصر كبرياؤهم، بدافع اللباقة أو التكتيك أو الجبن، على الداخل. لو صح هذا، ما عاد ردُّ الفعل المشابه لزملائها الطلبة مبعث دهشة؛ الإعجاب أو الرفض، وبالإشاعات التي شنَّها كراتش وغذاها بملاحظاتٍ من قبيل: «إنها لا تخرج مع أحدٍ أقلَّ من مدير مكتبة»، «سيُمر وقتٌ طويل قبل أن نسمع أجراس الزواج»، «كان الأمر كله صفقة؛ قدم هو الوظيفة وأعدت هي الفراش».

والشيء الصغير الذي أشرنا إليه كان معروفاً في حفل النجاح؛ فلا بدُّ أن أحد الحاضرين أو المساعدين قد تكلم. وكونها لم تبدِ شبهة من انفعالات اليوم لم يدهش أحداً، فقد ألقوا جميعاً تماسكها ورباطة جأشها، وغموضها. لم تستطع كلُّ من «أجنس» و«أديلهيد» اللتين كانت وثيقة الصلة بهما طوال سنوات الدراسة أن يلحظا انفعالاً ما، وإنما لمسما ما هو أقرب إلى تغيُّر عام في طبيعتها، وصفاه فيما بعدُ بأنه شيءٌ من اللين أصاب جمودها؛ فهي لم تحدِّثهما عن الكتب والمشاكل وإنما عن الانطباعات والمشاعر، بل وعن الطبيعة؛ إذ وصفت لهما يوماً شتوياً بلا جليد، وبحيرة يحُط فوق سطحها البجع وما يلبث أن يطير. وفي حفل النجاح وبعد ساعات من الرقص والشراب جلست فجأة، لدهشة الجميع، إلى كراتش وتحدّثت معه وقتاً طويلاً، ثم سمحت له في الفجر أن يصحبها في عودتها (أي إلى فندقها). لم يَسِرِّق أحدُ السمع لكن الجميع آمنوا بأنه آخر ضحاياها (لأن كل شاب في المجموعة حاول أن يقطف هذه الزهرة ففُجئ بالأشواك). وفي الساعات القليلة الآخرة، عندما أضاءت شمس الصباح الوجوه الشاحبة وسط أبخرة النبيذ، وكانوا يحاولون بالحديث أن يُخفّوا إدراكهم بأن الحفل لم يكن بذى معنىً توصلوا إلى اتفاق؛ إنها ليست المرأة المناسبة لكراتش؛ فقد كان عبقرياً (حتى الآن هو الوحيد الذي يدرك ذلك) ويحتاج

إلى امرأة تتميز بقدْرٍ من المساواة مماثل لما تتصف به المرأة السويسرية، امرأة تعبده في سكون، تجيد الطهي ولا تمتاز بذكاءٍ أكثر مما هو ضروري للعرض أمام الآخرين. أما السؤال عما إذا كانت آلام الحب هي خميرة نشاطه التخريبي فسيبقى بلا إجابة؛ فليس من السهل الاتصال به الآن؛ لأنه يدْرُس الإخراج المسرحي في موسكو، ولا يَرُد على الخطابات، رغم التأكيد له بأن اسمه الحقيقي (كراتش ليس إلا اسمًا مستعارًا) لن يُستخدم. ولعله لا يرغب في أن تحبُّ بضْعُ سحاباتٍ طفيفة شمسَ شهرته الصاعدة. ثم إنه لا يتميز بتفردٍ خاص في اختياره للأساليب عندما انتهز آخر فرصة أُتيحت له بتجنُّب الذهاب إلى منطقة أنجرمونده، فكشف للممتحنين المُحرجين عن مؤامرة الفراش المزعومة بين إرب وبرودر دون نجاح.

فقد ساعدت نتائجه العادية في الامتحان اللجنة على تنحية اتهاماته واعتبارها بلا أساس.

وما هو ذلك الشيء الصغير الذي سبقت الإشارة إليه؟ لم يكن صغيرًا بالطبع وإلا ما احتفظنا به حتى نهاية الفصل. إن هذه العبارة لم تُستخدم إلا لأن الأنسة برودر استخدمتها عندما تلقت التهاني بعد الامتحان: «أجل، وهناك شيءٌ صغير». قالت بينما رئيسة اللجنة تهزُّ يديها في حماس الشباب، ثم لخصت لنفسها الأفكار والمبادئ والأحلام والمخاوف التي دارت برأسها أيامًا وأسابيع، وملاحظاتها الهادئة ومحاولاتها العالية لإيضاح الأمور في الجناح ب، ونقاشها المتخيل الذي لم يجر أبدًا في شارع كارل ماركس إليه، والذي كان سيبدأ بسؤال مباشر إلى اللامانتك: «ماذا ستفعلين لو...؟» والذي كان سيخلص عقب تفريعات في أشياء دوائر لا بدَّ من تحقيق استدارتها، وضبابٍ لا بدَّ من تبديده، وقوةٍ لا بدَّ من تجربتها، إلى الحقيقة الثابتة (غير القاطعة عامة، وإن كانت تصلح بالتأكيد للأنسة برودر): «أسوأ شيءٍ عمله هو عمل لا شيء».

ظهرت نتيجة هذا التلخيص في ثلاث عبارات وسبع عشرة كلمة: «أودُّ أن أطلب منك مبادلة وظيفة كراتش بوظيفتي. أنت تعلمين أنه موافق. لست أريد البقاء في برلين».

وباستثناء وجهها هي، ووجه قاصف الرعود، اتسمت كل الوجوه بطابعٍ مأساوي. أخرجت مخلصَة الأرواح مندبلها بعناية. أما قاصف الرعود الذي لم يكن حاضرًا بالكلية، ولا كُتبيًا، ولا كان موجودًا أثناء امتحان كراتش، ونتيجةً لذلك لم يكن في الصورة؛ فقد طالب بإيضاح، ولم يقنع برد الأنسة برودر المقتضب («ليس الأمر موضع مناقشة.»)، لكنه ركن إلى الصمت عندما لاحظ صمت الآخرين، ضغطت الرئيسة على يد الأنسة برودر بقوة

أكثر وسألت: «هل فكرت في الأمر جيدًا؟» وعندما أطرقت الآنسة برودر برأسها، قالت: «موافقة.»

٢٦

الذين تعوّدوا القراءة في خطّ قطري (أي هكذا: البداية - الوسط - النهاية)، الكتّيبون، وأخصائيو المخطوطات، وخبراء الوثائق، وباعة الكتب، وموظفو الأجهزة الثقافية، ومحرّرو عروض الكتب التي تتألف من فقرة واحدة، وغيرهم ممن يُضطّرون إلى شقّ طريقهم يوميًا في غمار القصيدة الأدبية، سيُكافئون على أنهم بدءوا بقراءة النهاية هنا (وليس في الصفحات الثلاث الأخيرة). وهذه الجائزة ستأخذ شكل دليل يساعد على فهم الفصل السادس والعشرين من هذا التقرير عن الحب والنساء والأخلاق وأمناء المكتبات وقواعد السلوك المعاصرة والمجتمع وبرلين (لمصلحة المبيعات نقول أيضًا «رواية» حول ما سبق ذكره). هذا الدليل هو: أهم شيء ما ليس موجودًا - أية إشارة لفرد مانتك، الفارس الرسول الذي (كما لا يعلم القارئ المتعجل) ولج الفصل الثالث والعشرين ليُقَدِّم إلى إرب في وحدته حلًا كان من شأنه أن يجعل الحل الضعيف الذي قدّمته الآنسة برودر (في الفصل الخامس والعشرين) بلا ضرورة. وبهذا يكون السؤال المثير للتوتر هو عن ردّ فعلها أمام جعجة الأبواق التي أعلن بها إرب الأنباء، وكيف ومتى نفخ إرب بوقه. ليس فور عودتها، هذا واضح؛ لأن هذا لو حدث لكان ضد طبيعته التي كانت أميل إلى تقديم مجموعة من الخواطر عن الزهور.

خشخاش أحمر، حقل من الخشخاش الأحمر، مربع من الحمرة الساطعة المتوهجة، تتموج فوق الخضرة الشابة لنبات الشوفان ذي السيقان القصيرة. لا بُدُّ أننا في بداية شهر يونيو. صباحٌ صيفي معتدل البرودة يسبق نهارًا حارًا. أحد الرجال في العربة يرفع عينيه عن الملف الذي يعمل به ويقول: انظروا، خشخاش. ويُغمغم الثاني شيئًا عن الأعشاب الضارة، وسرعان ما يكون القطار قد مرّ. ويرفع كارل أيضًا رأسه إلى أعلى فيرى الحقل، والبلسان اللبانة إلى جوار الممر، والغابة على مبعده، ولا تتلاشى الحمرة من ناظره؛ فقد أثارت فيه شيئًا، لو عبّر عنه بالكلمات لا المشاعر، لقال: لولا هذه الحمرة ما كنت قادرًا أبدًا على التحرُّر من سنوات الروتين. وأجبره ذلك على إنزال حقيقته من الرف، ومغادرة القطار في جوتز أو فوستر فيتز أو جروس-كرويتز، أو أيًا كان اسمها. والعودة سيرًا على الأقدام في الطريق، الحارة، الممر، بالشمس في وجهه والبهجة الغامرة في قلبه؛ لأنه ما زال قادرًا

على أن يفعل شيئاً كهذا؛ التغيب عن مؤتمر كي يكون قادراً على العودة إلى الخشخاش، الذي سيذوي عند الغروب.

لكنه وسط حرارة النهار، لم يكن جالساً أسفل شجيرات اللسان، إنما أمام قطعة من اللحم، يناقش نظام استعارة الكتب دون بطاقات، وهو موضوع المؤتمر الذي وصله في الميعاد. وكان النسيان مأل الخشخاش الأحمر سنوات عدة حتى هذه الدقيقة في الجناح ب، حيث كان جالساً في مقعده المألوف، وأمامه محبوبته مرةً أخرى، خلف مائدة كالحاجز، بعد عشرة أيام من الامتحانات. كانت قد عادت من لايبزيغ ووضعت حقيبتها على الأرض، ثم قالت ببساطة إنها ستذهب للعمل في أنجرمونده.

«يا إلهي لا بدّ من إلغاء هذا القرار فوراً. وإن التضحية التي تُزعمونها للحيلولة بيني وبين القيام بها، لم تعد لها ضرورة؛ لأن فرد أحدث تغييراً مفاجئاً في الموقف...» هذا هو ما كان يجب أن يقوله (ليكون عند حسن ظن المؤلف والقارئ). ومن ناحية أخرى، كانت الأنسة برودر تأمل في أن تسمع شيئاً عن أحلامه الدفينة، عن فتح أراض جديدة في وجه الثقافة، عن الحرث في الأرض المراحة، عن السياسة الثقافية الثورية حقاً، أو حتى مجرد هذه الكلمات: «سأتي معك» أو «سنذهب سوياً» - «لنذهب إلى أنجرمونده»، أو شيء مثل هذا. لكن ما قاله هو: «لماذا فعلت هذا؟» وبدا صوته غريباً، كما لو كان مقترضاً من شخص آخر صادق يطالب الآخرين بالصدق، مقترضاً من شخص أقوى، لديه القوة والشجاعة على تحمّل الإجابات، وقبول العقاب، والرد على الاتهامات، والإصغاء إلى الحقيقة وقبولها، أو إنكارها، ومواجهة رواية برودر برواية إرب.

«لماذا فعلت هذا؟» لم يكن حقاً الرجل الذي يستطيع توجيه سؤال كهذا، وخاصةً في هذه اللحظة. كان يجب أن يظل صامتا، متألماً، مهاناً أو متعالياً، كان يجب أن يبحث عن سبائره ويقدم إليها، أو كان يجب أن يلجأ إلى العواطف، فيقبلها بدلاً من أن يتحدث إليها، أو كان يستطيع أن يبكي أو يطلق سَيْلاً من الشتائم، أو أن يقفز ويخرج من أجل قليل من الوقت ينظم فيه أفكاره ومشاعره، وربما يكتب رسالة في ليلته الأرقّة، وفي كل الحالات يحوّل الزمن إلى حليف. وقد أدرك هذا عندما وجّه السؤال.

وكان يعرف أيضاً المسؤل عن ذلك؛ هي. لقد أفزعته، وفاجأته، هو غير المرتاب الصادق، المخدوع. اتخذت قراراً دون معونته، دون أن تسأله، دون نصحه، دون إبلاغه، ثم عندما انتهى كل شيء لم تبعده للأنباء الفاجعة، لم تحذره منها. ولجّت الغرفة فقط وانفجرت بالأنباء (تماماً كما خطّطت، حتى لا يجعلها منظره، إيماءاته، وكلماته، تندم

وتغيّر رأيها)، مستثيرةً بذلك سؤاله، السؤال الذي كان يطلب الحقيقة في الظاهر، وكان في الواقع كذبة؛ وهذا أيضًا أخذه عليها، ولولا تعسفها وانفرادها بالتصرف لاضطر أن يكون صادقًا، وكان من شأنه أن يقول لها في وجهها عند نقطة معينة: لا أستطيع الاستمرار هكذا! لكنها الآن، قد مكّنته في ختلٍ من أن يكذب، وكان عاجزًا عن المقاومة؛ فلا بد من استغلال هذه الفرصة، رغم أنه جفل منها (قبل ذلك)، ولهذا السبب ازدري نفسه (بعد ذلك)؛ فمن الطبيعي أن روّحين كانا يتعايشان في صدره هو الآخر، روّحين تقاّتلا دون أن يُعقد الفوز لأحدهما، وكان الروح الثاني، روح الحب والفعل ما زال يقظًا، يفرز الألم والتناقض الصادق عندما تُقرّر محبوبته (ألمة في أن تسمع إنكارًا) أن حبه لم يكن قويًا بما يكفي ليدفعه إلى القفز فوق الأسيجة والأسوار التي تُحيط بالفردوس (كانت هذه هي اللحظة التي تذكّر فيها الخشخاش الأحمر). وكان تناقضه قويًا لدرجة أنه نسي اشمزازه من نفسه مرةً ثانية وتساءل: ما هي الحقيقة في حالة كهذه؟ من الذي يقرّر، من يحدّد المعايير، من يقيس؟ يجب ألا تكون هناك غير حقيقة واحدة، لكن هناك في الحق أكثر من واحدة. هناك حقيقة مؤداها أن حبه كان قصير النفس للغاية، وأخرى تتمثل في تذكّره للخشخاش (رمز وإٍ للضعف)، وثالثة تؤكّد أنه ما زال يُحبها (في تفكيره لم يُحب من قبل أبدًا هكذا)، ورابعة هي سروره مرةً أخرى؛ لأنه تلافى ضرورة اتخاذ قرار، وخامسة أنه لا يستطيع تصوّر عصفورته في يد شخص غريب، وسادسة لعلها أكبر الحقائق أو أكثرها صدقًا، وهي أنه ربما كان من الجبن بحيث لا يستطيع الحديث بأمانة عن نفسه؛ لأن السؤال الثاني الذي حدّد مجرى الحديث، لم يملّ عليه حبه الوجيز الهائل، ولا غيرته القادمة، وإنما جُبنه. استغل دون خجل ميزة الشخص العاجز عن اتخاذ قرار، ولم يفكّر في غير مكانته، وسأل «أيعني هذا أنك تريدين إنهاء الأمر كله؟»

هذه العبارة المبتذلة ترينا كيف أنه لم يكن مستعدًّا؛ فكافة الكلمات الأخرى التي خطرت له كانت متوسلة أو عاطفية، وهي كلمات ما كان يمكن استخدامها في مواجهة وجهها البارد المصمّم.

تمكّن حقًا من تبين البرودة في وجهها، وتوجيه اللوم إليها على ذلك («يا للتجهّم الذي تنظرين به إليّ!») لأنه لم يعد مسيطرًا على ملامحه أو كلماته الغضبي، وكان في حاجة إلى عذر (أو حجة) وجده أولًا في برودها ثم في دموعها؛ ذلك (سواء صدّقتم أو لم تفعلوا) أن عيني السيدة الشابة الرصينة اللتين طالما أثارتا الإعجاب البالغ، صارتا مصدرًا لقطرات دافئة مألحة بلّلت (لا خلال الساعة الأولى أو الثانية وإنما خلال المساء أو الليل) منديلها؛

لأن الإحباط الذي شعرت به لم يكن محتملاً؛ فإيضاح الأمور بينها وبين كارل بعيد المنال، وها هي قد اتخذت عبثاً قرارها بمغادرة برلين؛ فهو ليس قادراً على الذهاب معها، ولا على الاعتراف بأن قرارها هو السبيل الوحيد لإنقاذ حبهما طالما أنه لا يستطيع احتمال الجناح ب أو فقدان وظيفته. كم كانت واثقةً من النجاح. كانت تظن أنها قد أزالَت بهذه الخطوة كل ما يسمُ حبهما فقد تبَيَّن أن الطريق الذي اتخذاه سوياً صعبٌ للغاية عليه. ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه كان لا بدُّ من طريقٍ جديد. وقد وقعت هذه المهمة على عاتقها وحدها، أن تُضحِّيَ لأنها أقوى الاثنين وبذلك تجعلهُ بقدوتها قادراً على الانفصال بصورةٍ جذرية عن الماضي والإقدام على بدايةٍ جديدة، أو إعطائها (إذا استحال هذا) «لا» صادقة وواضحة. حتى هذا أفضل من التحلل البطيء المهين لحبٍ عظيم.

هذا ما جال بخاطرهما. لكن ما بدر منه كان اعتذاراتٍ متعجلة، شبه اعترافاتٍ سُحبت على الفور، تعهُداتٍ كانت تودُّ لو صدَّقتها لكنها كانت عاجزة عن ذلك، إيضاحاتٍ بدت معقولة، اتهاماتٍ لنفسه جعلتها تضعف، مطالباتٍ بالصبر والوقت، ومخاتلاتٍ متكررة.

«ألا يمكنك أن تذكر لي بوضوح ما تنوينه؟» - «كل شيءٍ من أجل ألا أفقدك!» لكنه لم يكن قادراً حتى على أن يغفر لها الحياة في الجناح الخلفي وضياح وظيفته الممتازة. أليس هذا سبباً كافياً للفيضان المالح؟ والآن وقد تَكشَّف أخيراً حُلم العودة إلى القرية عن حديث فارغ، توقَّعت الألم من جانبها ومن جانبهِ، لكنها لاحظت الآن ما يشعر به دائماً من سعادة عندما يحملها مسئولية الخسائر التي تقبَّلها هو عن طواعية. حتى هذا لم يُعد ممكناً الآن. بذلت جهداً كي توضح الأمور، لكنه لم يرحب بذلك حتى لا يفقد الستار الذي يغطِّي ضرورة اتخاذ القرار؛ فأَي قرارٍ قد يعني الافتراق، والافتراق مؤلم، وهو يخشى الألم. كان جباناً. الطفل الذي يتحمل آلام الأسنان عدة أسابيع خوفاً من الألم يضع ثوانٍ عند الطبيب. لو أمكن شل الأعصاب المَعْنِيَة، فربما جعله هذا أكثر استعداداً لاتخاذ القرارات. سألتَه: «أأنت متأكد أن الأمر قاصر فقط على خطر الانتقال من برلين وظروف المعيشة الصعبة؟» لكنه لم يسمح لنفسه أن يدفع إلى التفوُّه بكلمةٍ فاصلة. ثم إنه لم يكن بقاتل غير كلمة لا، وقد قالها لنفسه عشر مرات لكنه لم يجرؤ على ترديدها بصوتٍ مرتفع، بل إنه كان يعرف بعض الحُجَج المَهْدُتَة، مصدرها الأدب. مهدئات لن تُخرجه هو كما أنها لن تؤذيها؛ ليس هناك من حب يدوم إلى الأبد، إن تخيَّل الحب أسهل بكثيرٍ من الممارسة الواقعية له (وهو شأن كل واقع، مثل واقع ما بعد الثورة)، الفراق يعني أن تظل المحبوبة شابةً إلى الأبد، المرء يُحب دائماً صورةً من صور الأحلام ويخشى اليقظة، وهلمَّ جرّاً. لكنه لم يَفْه

بشيءٍ من ذلك بصوتٍ عالٍ. أجاب: «أجل، هذا فقط..» واكتشف فجأة (كي يتجنبَّ أسئلةً جديدةً من هذا النوع) أن المبنى القديم بأفنيته الضيقة وسلاله المظلمة تعلوه مساحةٌ كبيرة من المكان والضوء، حيث يمكن البناء دون ترخيصٍ وعمالٍ وموادَّ بناء؛ حيث يمكن الحياة دون تصاريح، في منازل أحلامٍ تضمُّ كل وسائل الراحة، في منزلٍ نظيف جميل يُخص المرء كلية (دون أن يلطّخه الواقع). وتحدّث عند ذلك؛ عن المكتبة المركزية في القلعة القديمة (التي بناها شينكل)، عن القرى المزدهرة حولها، حيث سيصبح رئيس التعاونية وعمد القرى من دعاة الأدب تحت تأثيرها، عن دراساتها السوسولوجية ومقالاتها في المجلات والصحف المتخصصة، عن نهايات الأسبوع، التي سيقضيها سوية (من أبريل إلى أكتوبر في قريتها، ومن نوفمبر إلى مارس في مدينته) عن حُجرتها في القلعة التي تُطل على الخندق، عن رحلات القارب إلى الأنجر (إذا كان ثمة نهر بهذا الاسم)، تمنّت بشدة لو أمكنها الاقتناع بأن كل شيء بات واضحًا، وخاصةً عندما استقرت يداها على عنقها، وشففتها على بشرتها، هناك حيث لا تلمسها الشمس أبدًا. «أتظن أن بقاءنا معًا يستحق كل هذا العناء؟» - «سيظل كذلك، دائمًا، دائمًا، دائمًا.» لم يكن يؤمن بكل ما يقوله، ولم يقل كل شيء؛ فهو مثلاً لم يفهم بكلمة عن مانتك، ملاك الخلاص، أو عن رسالته المُفرحة. شكرها على أنها أتاحت له استعادة وظيفته (التي لم يعد في حاجة إليها) وسمح لها بالذهاب إلى منفاهها المختار.

بقلبٍ دامٍ.

قلبٍ دامٍ سقط منه حجر.

٢٧

قبل أن يتوقف المحرك تمامًا، فتح باشكه النافذة، وأزال ما علق بلحيته النابتة من بيضة إفطار، وصار على الفور مستعدًا لإعطاء المعلومات (الجناب ب، الطابق الرابع) وجمعها (من تريد بالضبط؟)، ثم ترتيب موقعه المفضّل في سلام وهدوء؛ الكاب على رأسه وقدح القهوة على قاعدة النافذة ووسادة تحت مرفقيه، وابتسامة على شفّتيه؛ فها نحن قد انتصرنا!

إن الستار يمكن أن يرتفع الآن. والجمهور كثير؛ المرأة التي تدير الحانة المواجهة، السيدة جيورنغ بالشبكة المليئة بالشطائر، الأطفال الثلاثة بحقائبهم المدرسية. ومن أحد الأفنية المجاورة جاءت الموسيقى الافتتاحية يقدمها أرغن يدوي: «لا بالوما»، «نسيم برلين».

وَقَعَتْ أَظَافِرُ أَصَابِعِ بَاشِكِهِ النِّغْمَةَ عَلَى قَاعَةِ النَّافِذَةِ الْمَغْلَقَةِ، وَظَهَرَتْ السَّيِّدَةُ فُولْفَ بِالمَصْبَاحِ التَّقْلِيدِيِّ وَجَرْدَلٍ، فَغَمَّعَتْ بِتَحِيَّةٍ مَبْهَمَةٍ وَاخْتَفَتْ. قَلْبُ الْأَطْفَالِ الْجَرْدَلِ ثُمَّ أَسْرَعُوا هَارِبِينَ. وَعَلَى أَرْضِ الشَّارِعِ اسْتَقَرَّتِ الْفُرْشُ وَمَسْحُوقُ التَّنْظِيفِ وَدِهَانُ الْأَحْذِيَةِ. وَأَخِيرًا ظَهَرَتْ إِحْدَى الشَّخْصِيَّاتِ الْأَسَاسِيَةِ. كَانَ إِرْبُ وَسَائِقُ السَّيَارَةِ يَحْمِلَانِ الْحَقِيبَةَ الْمَزْدُوجَةَ الْمُقْبِضَيْنِ الَّتِي عَادَ بِهَا فِيلْهَلْمُ بَرُودِرُ، مِنْذُ عَشْرَاتِ الْأَعْوَامِ «إِلَى الرَّايخِ» مِنْ قَرِيَّتِهِ الشَّرْقِيَّةِ، كَانَتْ ابْنَتُهُ الْآنَ تَتْرَكَ أَحَدَ أَثْلَاثِ نَفْسِ الْمَدِينَةِ عَائِدَةً إِلَى الشَّرْقِ؛ ذَلِكَ أَنَّ «أَنْجَرْمُونْدَةَ» تَقَعُ فِي الشَّرْقِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ فِي الشَّمَالِ، فِي بُولَنْدَةِ عَمَلِيًّا أَوْ عَلَى بَحْرِ الْبَلطِيقِ تَقْرِيبًا، لَمْ يَكُنْ بَاشِكُهُ يَعْلَمُ بِالتَّحْدِيدِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْأُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ بِالأَمْرِ طَالَمَا أَنَّهَا سَتَرْحَلُ، وَلَنْ تَضَافِقَهُ بَعْدَ الْآنَ وَتُخَفِّفَهُ بِوَجْهِهَا الصَّقِيعِيِّ الَّذِي لَمْ يُذْبِهِ الْوَدَاعُ أَوْ شَمْسُ الصَّبَاحِ. ظَهَرَتْ تَحْمِلُ حَقِيبَةً وَحَافِظَةً دِبْلُومَاسِيَّةً، حَيَّتُهُ بِإِطْرَاقَةٍ دُونَ كَلِمَةٍ، وَاخْتَفَتْ مِنْ جَدِيدٍ لِتَحْمِلَ مَقْعَدَهَا، وَمَصْبَاحَ الْمَكْتَبِ، وَمَكْنَسَةً وَإِنَاءَ الْغَسِيلِ. وَظَهَرَتْ السَّيِّدَةُ فُولْفَ بِأَرْفَفِ الْكُتُبِ، وَتَبِعَهَا إِرْبُ وَالسَّائِقُ بِالمَائِدَةِ وَ... الْفَرَّاشِ. بَدَعُوا يَشْحَنُونَ الْأَثَاثَ، عَلَى نِغْمَاتِ الْأَغْنِيَةِ ذَاتِ الْجِدَّةِ الدَائِمَةِ «مَا زَالَ شَبْرِيهِ يَجْرِي مَخْتَرَقًا بِرْلِينَ» مَعْزُوفَةً عَلَى الْأَرْغَنِ الْيَدَوِيِّ. صَاحَبَ بَاشِكُهُ الْمَوْسِيقَى. وَجَدَ النِّغْمَةَ صَحِيحَةً وَمَلَائِمَةً لِلْمَوْقِفِ، مَلَطْفَةً وَصَادِقَةً.

فَالنَّهْرُ الْمُتَغَنَّى بِهِ أَنْسَابَ دَائِمًا فِي نَفْسِ الْمَجْرَى، مِثْلَمَا أَطْلُ هُوَ بَاشِكُهُ دَائِمًا مِنْ نَفْسِ النَّافِذَةِ، أَمَّا الْبَرُودِرِيُّونَ فَهَمْ يَأْتُونَ وَيَذْهَبُونَ، وَيَلْقَى الْفَسْقُ وَالْإِدْعَاءُ مَصِيرَهُمَا الْعَادِلُ؛ النَّفْيُ مِنْ جَنَةِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ، الْوَدَاعُ ثُمَّ الْعِزَالُ، الَّذِي تَمَّ بِصُورَةٍ تَدْعُو لِلرَّثَاءِ، مَجْرَدُ عَرَبِيَّةٍ صَغِيرَةٍ، لَمْ تَكُدْ حَتَّى تَمْتَلِئَ، وَنَصَفُ مَا حَمَلَتْهُ أَقْفَاصُ مِنَ الْكُتُبِ، وَلَيْسَ أَثَاثًا كَمَا هُوَ شَأْنُ النَّاسِ الْمُحْتَرَمِينَ. ثُمَّ أَيْنَ هِيَ الْقِطْعَةُ الْوَحِيدَةُ الْقِيَمَةُ مِنْهُ، الصُّورَةُ ذَاتِ الْإِطَارِ الذَّهَبِيِّ، تِلْكَ اللَّوْحَةُ الزَّيْتِيَّةُ الْأَصِيلَةُ؟ لَقَدْ اسْتَفْسَرَ عَنْهَا السَّائِقُ أَيْضًا، دُونَ أَنْ يَنْزِعَ السَّيَّجَارَ مِنْ رُكْنِ فَمِهِ: «أَتَأْخُذُ هَذَا الشَّيْءَ أَيْضًا؟» بَدَأَ عَلَى الرَّجُلِ، الَّذِي لَمْ يَقْدَمْ نَفْسَهُ، لَكِنَّهُ كَانَ غَالِبًا الزَّوْجَ السَّابِقَ، الْارْتِبَاكُ وَهَزُّ كَتِفِهِ، كَانَ يَعْرِفُ فَقَطُ أَنَّ أَثَاثَ الْمَطْبَخِ وَالْمَرْتَبَةِ الْهَوَائِيَّةِ وَالصَّنْدُوقِ الَّذِي يَحْتَوِي عَلَى الْبِيْجَامَةِ وَخُفَّيْهِ وَأَدَوَاتِ الْحَلَاقَةِ، هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي سَتَبْقَى بِالمَسْكَنِ، وَمَعَهَا هُوَ أَيْضًا. بَدَأَ لِلْسَّائِقِ أَنَّ فِي الْأَمْرِ مَأْسَاةً، لَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ مُتَأَثِّرًا بِمَا يَجْرِي أَمَامَهُ، وَعَلَى أَيْةِ حَالٍ فَهُوَ سَيَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْأَمْرِ فِيمَا بَعْدُ؛ فَعِنْدَمَا يَنْفَرِدُ بِهِ النَّاسُ فِي قَمَرَةِ الْقِيَادَةِ سَرْعَانِ مَا يَنْطَلِقُونَ فِي الْحَدِيثِ حَتَّى يَتَغَلَّبُوا عَلَى انْفِعَالَاتِهِمْ، وَكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْأَمْرُ هُوَ سُؤَالٌ وَاحِدٌ مِنَ النُّوعِ السَّابِرِ فَيَعْرِفُ الْقِصَّةَ كُلَّهَا. لَقَدْ نَقَلَ الْكَثِيرُ مِنَ الزِّيَاجَاتِ الْمَيِّتَةِ، الَّتِي تَخْتَلِفُ كُلُّ مَنَاهَا عَنِ الْآخَرَى. وَكَانَ دَائِمًا يَشْعُرُ بِالْأَسَى لِلنِّسَاءِ وَحَدَهْنَ

ولو كن هن المخطئات (وهو ما كان أمرًا نادرًا)، كان يكفي أنهن يبكين بينما يبدو الرجال بوجوه صارمة، وبالطبع كن نساءً بشعور جميلة أو عيون وشفاه جميلة مثل هذه، رغم أنها لم تكن تبكي، وبدت أكثر تماسكًا من الرجل. كان الرجل يدخن بصورة متواصلة، ويبدو (رغم مظاهر الترهل في بطنه) أشبه بنموذج مربع على ملصق يدعو للامتناع عن التدخين. لماذا لا يذهب إلى الريف؟ إن الهواء النقي سيفيده ويفيدها هي أيضًا، لكنها لم تكن ترمي إلى ذلك كما يتضح من كوم الكتب. كم منها هناك؟ ألف؟ ألفان؟ ثلاثة؟ متى تظن أنها ستقروها جميعًا؟ أكثر من واحد في الأسبوع أمر ممكن بالكاد، وهذا يعني ٥٢ كتابًا في السنة، ٥٢٠ في عشر سنوات، ٣٠٠٠ في ستين عامًا، ومعنى هذا أنها لن تتمكن من قراءتها جميعًا. يجدر بها أن تتركها خلفها مع الرجل - المدخنة وتأخذ اللوحة بدلًا منها. «هل ستأخذون هذا الشيء أيضًا؟ أم لا؟» - «أجل، ماذا سنفعل بها يا عصفورة؟» كانت مناداتها بالعصفورة أمرًا مستحيلًا استحالة مناداتها بالأسد أو الفيل، لكنها أجابت على النداء: «أود الاحتفاظ بها، لكن لن آخذها معي.» - «ربما يمكن للسيدة فولف أن تُعنى بها.» «أجل، لم لا، ماذا حدث، لماذا تبدو العصفورة مصدومة؟ شعر السائق أن وجوده غير مرغوب، وأنه من الأفضل أن ينتظر تحت في العربة؛ فالأمور هنا لا تبدو واضحة تمامًا. «هل من شيء آخر أيتها السيدة الشابة؟» - «كلا، شكرًا، بوسعنا أن نمضي على الفور.» وهذا الفور كان فيه بالطبع مبالغة؛ فقد تناول السائق شطائر، وقرأ صحيفة من بدايتها إلى نهايتها، بل دفعه الضجر إلى قراءة افتتاحيتها التي كانت بعنوان: «بوسعنا أن نحقق أي شيء إذا ما توفرت الإرادة!»

«ألن تقيم هنا؟» كان الوداع المرتقب قد ملأ أيامها الأخيرة بالألم والسعادة؛ فمن جديد صار حبهما ساطعًا نابضًا بالحيوية؛ تألق سموات المساء كان بشيرًا بالفجر، وذهبية الخريف كانت الومض الواهن للربيع. والآن شعرت فجأة باقتراب الظلام والبرودة. «أرجوك، كن صادقًا.» عجزت عيناه عن مواجهتها، تحولتا عنها، وتطلعتا إلى الكاتدرائية في لوحة الزيت، والنهر، وأعمدة المتحف، ونقوش المدخل، كأنما ستعطيه ردًا لن يتعين عليه سوى أن يقرأه بصوت مرتفع. كان ينتظر هذا السؤال وقد فكر في إجابات كثيرة عليه، اختار إحداها ثم عدل عنها، واستقر على أخرى، ثم الثالثة، وأخيرًا احتفظ بها جميعًا حتى يُتاح له أن يختار منها الإجابة الملائمة لكل موقف. لكنه الآن لم يكن يملك واحدة، فظل صامتًا. بحث دون أن يجد، فأوقف البحث عن الإجابات المعدة حتى يفكر في أخرى جديدة، ولم يسعه أن يفكر إلا في ضرورة التفكير وفي الألم الذي يسببه صمته لها، وأخيرًا قال: «لا أعلم.» هي

كذبة، ليست أكبر مما لو كان قد قال: أجل، سأبقى هنا. لكنها كذبة على أية حال؛ لأنه كان يعرف بالدقة ما هو فاعل.

وفي هذه اللحظة أدركت هي أنها كانت تعرف الحقيقة، لكنها كانت تخشاها، كانت قد قالت لنفسها إنه سيواصل الحياة هنا، وإنه سيكون قادرًا على تحملها حتى يتم الطلاق ويجد غرفةً مستقلة. واختلقت أوهامًا تعينها على الاستمتاع بالأيام الأخيرة، ولم تتمكن من الاستمتاع بها إلا لأنها حدّست أنها آخر أيامهما معًا. والآن صارت هذه الأيام في الماضي. حل الليل، البرد، الشتاء. تناولت سترتها دونما ألم، وقد خدّرتها الحقيقة، ومضت حتى المطبخ، حيث استوقفها، وجذبها إليه، ووجد كلمات، وعبارات وأجوبة، وإيضاحات؛ لا يستطيع البقاء هنا لأن كل شيء يذكّر بها، لأنه سيموت من الشوق إليها، لأنه لا يطيق المنزل إلا عندما تكون إلى جواره، الفناء والناس، الحوض، المِلّاط المتقشر، هديل الحمام، ضجيج التليفزيون في الغرفة المجاورة، حديث السيدة فولف، صحراء القرميد، ولأنه من السخف أن يبتاع أثاثًا لهذه الغرفة، ولأنه ببساطة لا يستطيع أن يستقبل بها زوّارًا، و... و... كان بوسعها أن تشعر بتلاشي الخدر ومقدم الألم لكنها لم تبك. لم تسأل: أتريد العودة إلى أسرتك؟ حاولت أن تستوعب موقفها الجديد، أن تهَيّئ ترياقًا، أن تكتسب بشرةً سميكة، أن تُبدي تماسكًا وترفعًا، أن تظل منتصبّة القامة، أن تتغلّب على الشلل، أن تختار أهدافًا جديدة، أن تذهب. لكن أصابعه على رقبتها كانت فعّالة، كالعهد بها، وأجبرتها أن تبذل محاولةً أخيرة: «تعالَ معي! اترك كل شيء وتعالَ معي!» ضغط رأسه في كتفها (كي لا تراه؟) لآخر مرة هذا الشعر، وبشرتها! يستحيل أن يكون هذا حقيقيًا. لكنه لم يجد حتى الشجاعة ليقول: لا أستطيع أو لن أفعل، تحدّث عن مسؤوليته المهنية وأنها من خلاله ستكون قادرةً على العودة إلى برلين في أي وقت. عند ذلك لاذت بالفرار.

كانت السيدة فولف قد حملت كوبًا من القهوة للسائق في عربته، وجلست إلى جواره، تشرح له مسائل الحب والزواج: «الجميع يعرفون أن السماء السابعة تتحوّل منذ بدء الحياة المشتركة إلى السادسة أو الثانية، أو إلى مسكنٍ عادي تمامًا من حجرة واحدة، لكنّ أحدًا لا يريد الاعتراف بذلك؛ لأنّ كلًّا منهم يظن نفسه استثناءً، وأشياء من هذا القبيل، وعندما تتخذ الأمور مسارًا مماثلًا لما يحدث مع الآخرين، يتحول أحد الاثنين إلى خرقة والثاني إلى شيطان، ويبدأ النكار، أتعرف لماذا؟ حتى يتعانقا من جديد وينشجا. أجل أنا خنزيرٌ حقيقي، وأنا بلهاء، ويصبح كل شيء على ما يُرام حتى المرة التالية، كل هذا لأن الناس لا يستطيع احتمال السلام والهدوء (اللذين يجيئان في أعقاب معاناة الحب

الأول)، رغم أن هذا هو أفضل ما في الزواج، لكن تبين أن ذلك يحتاج إلى بعض الوقت وإلى وقتٍ طويل جدًا أحيانًا، خاصةً بالنسبة للرجال الذين هربوا من الزواج الأول، ويعقدون المقارنات دائمًا، لكن من استقرَّت أنفه على كتفه لا يغادر الغابة أبدًا سالمًا، وعندئذٍ تكون لدينا نتائج مماثلة لما نراه هنا، وربما كان هذا أفضل؛ فمهما دعكت الجواد بالفرشاة فلن يتحول أبدًا إلى حمار.»

وعندئذٍ تركته لأن العصفورة كانت قد ظهرت عند الباب الأمامي، وكان لا بد من عناقها وتقيلها وإهدائها شعارًا من شعارات السفر: «السماء تعطيك أشعة الشمس، والقوة أيضًا على الحياة بدونها.» أما باشكه فلم يخطر له شيء أفضل من: «أطيب تمنياتي!» ثم لوّحوا جميعًا؛ السيدة فولف، السيدة جيورنج، السيد باشكه، والسيد إرب، وما إن بلغا طريق شونهاوزر إليه حتى وجّه إليها السائق سؤاله السابر، لكن أمله خاب.

كانت الأنسة برودر استثناءً من الأخريات؛ ذلك أنها لم تذكر له شيئًا.

وفي نفس اليوم نقلت مدينة القيصر في جو القيصر بإطارها الذهبي (عبر السندرة) إلى المسكن الأمامي، وهي اليوم معلقة في حجرة المعيشة، ويمكن مشاهدتها هناك؛ الجناح، الطابق الرابع، إلى اليمين. ويسر السيدة فولف أن تستقبل أي زائر يود الاستماع، بل إن من يستطيعون إبداء الاهتمام بالحمام، قادرون على انتزاع بضع كلمات من زوجها. أما رؤية كتاب مندزون النادر فتتطلب رحلة بقطارٍ بطيء تستغرق عدة ساعات.

٢٨

النهاية الملائمة لقصتنا ستكون هكذا: عندما يقع اختيار حمار بوريدان أخيرًا على أحد كوميّ التبن لا يجد له أثرًا. ومعنى هذا: كارل إرب يغادر الجناح ب. إنه يزور باشكه في المساء لشطب اسمه من قائمة المقيمين، ويحتسي معه كأسًا من الخمر، ويترك تحياته الحارة لأنيتا. وفي الصباح تحوّلت السيدة فولف إلى سمكة، خرساء وباردة. وتعيّن عليه أن يساعدها في إزاحة الخوان من أمام الباب، دون أن يتلقى منها كلمة شكرٍ واحدة. ووقفت إلى جواره كحارس السجن بينما يحزم أشياءه؛ ملف مخطوطات، المرتبة الهوائية، أدوات الغسيل والحلاقة، ملاءة سرير، ملابس، بطاقة الهوية، أدوية، وسادة، بطانية. ويكون باشكه في محله المختار بالنافذة عندما يمضي كارل إلى سيارته حاملاً صندوقين. رحلة انتهت مبكرًا. فرار مجهض. وصل متأخرًا إلى مكتبه؛ حيث كان خليفته في انتظاره مع هاسلر كي يتسلم منه منصبه. ومَرَّ اليوم بسرعة مشحونًا بالعمل. وفي المساء رافقه هاسلر

حتى السيارة، ورأى الصندوقين فسأله عما إذا كان ذاهباً في رحلة. على العكس، قال إرب، لكنه اضطر إلى ذكر الأمر بوضوح أكثر قبل أن يفهم هاسلر، أفاض في التفاصيل، وأصبح الآن قادراً على إبراز الحُجج، حُجج قوية، حُجج أخلاقية، تتردد بها كثيراً كلمات الأسرة والواجب والأطفال والمسئولية، وتخللها مرةً ذكر مفهوم المركز الفريد الذي يشغله الأب، ووجه فرادته استحالة إلغائه (وهي فكرة نعرفها من ألت - شرادوف). أدرك هاسلر ما حدث فأعطى رأيه الذي (إذا ما جردناه من زخارفه بسبب الإيجاز الضروري في فصل ختامي) يمكن تلخيصه في هذه العبارة: هناك صيغة للقانون الأخلاقي تضيع فيها المبادئ الأخلاقية. ويتمنى لإرب كل ما هو سيئ ولإليزابيث كل ما هو حسن؛ أي القوة على المقاومة، ثم غادر المشهد وهذا الكتاب، وساقه الصناعية نُحِث صريرها المعهود.

يقود إرب سيارته عبر المدينة، التي تبدو في هذا الوقت عاصمةً حقيقية، حية، تشغي بحركة المرور، أكثر من أي وقتٍ آخر، ويمر مرتين أسفل جسرٍ للخط الحديدي، ثم يمضي فوق طريقٍ سريع، ويعبر غابات، ويمر بمحطات مياه، وشاطئ الاستحمام، والمدرسة. يتوقف أمام بوابة حديقة تحمل اسمه، أمام منزل تجلس في غرفة معيشته (ذات التراس ومشهد النهر) امرأة وطفلان يتناولون عشاءهم. يفاجئهم الطرُق المفاجئ، وسرعان ما يقف أمامهم رجلٌ يحمل صندوقين. يضع الصندوقين ويبتسم في حرج. لا يرد أحدُ الابتسامة، لا المرأة ولا الطفلان، فتختفي سريعاً. تُجيب المرأة على تحيته، لكنها تنظر إلى الرجل بشيء من الغربة والنفور يُشعرانه بأنه بائع متجول، شحاذ، صاحب التماسٍ مزعج، بائع يعرض شيئاً لا ترغبه، ويريد إقناعها بشرائه؛ هذا الشيء هو نفسه؛ لهذا يسمح للابتسامة أن تموت. ولا يقول في سعادة: حسناً، ها أنا ذا يا أطفال. بدلاً من ذلك يُبدي وجهاً آخر، تائباً، متعباً، متألماً، يُصبح ذلك الرجل الذي وقع في براثن اللصوص عندما ذهب إلى أريحا وله الحق في أن يجد سامرياً طيباً، لكن المرأة لا تنتوي أن تكون هذا السامري. تبدى ذلك بوضوح عندما تقدّم إليه يدها، في بطءٍ وعلى مضض، ثم تسحبها على الفور عندما يُحاول الاحتفاظ بها أطول مما هو ضروري لتحيةٍ عابرة. لا تقدّم إليه المرأة مقعداً، وهو لا يجرو على الجلوس من تلقاء نفسه، ويقف بين صندوقيه، يتكلم في مسكنة، وخنوع، وخجل، وخضوع، واستسلام. يتوقف، ثم يتكلم من جديد، ويبدأ من البداية ويغيّر لهجته، ويتوسل، يضرب الأرض بقدمه، يغضب، تسيل دموعه، يتذرع بالكبرياء، لكن الإجابة الوحيدة التي يتلقاها هي: كلا، كلا. يحمل صندوقيه ويمضي إلى سيارته، ويقودها عائداً إلى المدينة، إلى آل مانتك، فلا يجدهم. لا يجرو على الذهاب إلى هاسلر، الفنادق جميعاً غاصّة، بالإضافة

إلى أن أهل برلين ممنوعون من النزول بفنادقها. وعند الغسق يغادر المدينة مرةً أخرى، ويجلس في أحد مطاعم الضواحي حتى تُرفع المقاعد فوق الموائد. يقود سيارته مرةً أخرى فيمُر بمحطة المياه، ويتجه إلى البحيرة. الجو مظلم وبارد وممطر. يُخْرِج وسادته وبطانيته من الصندوق ويحاول النوم في المقعد الخلفي. المطر يسوط النوافذ.

هذه هي النهاية الملائمة. لكن الواقع نادرًا ما يقدّم نهاياتٍ روائيةً جاهزة. ولما كان الواجب أن يُعنى التقرير بالوضوح لا بالشكل الخارجي، فإن النهاية الحقيقية أقلُّ ملاءمةً لسوء الحظ، وأقلُّ وضوحًا، وأقلُّ إنصافًا. لقد ذكر ريبيلوس، جامع المعارف غير المنتج: «لا بدَّ وأن تكون التفاصيلُ حقيقية ولو لإبراز أن إرب لا يمكن أن يرتقي إلى مرتبة شارل الخامس، الذي لُقّب جوهان سليدان، مؤرِّخ بلاطه، لأسبابٍ معيّنة بكاذب البلاط.» ولهذا السبب نقدّم هنا النهاية الحقيقية الصادقة الفعلية (التي كان يمكن أن تكون بدايةً للكتاب؛ رجل يعود إلى أسرته، ويقول جيرانه وأصدقائه وزملائه ورفاقه: حمدًا لله، أخيرًا. ويعتبرون ذلك انتصارًا للمبادئ الأخلاقية. إن الراوية يتساءل كما يسأل قرائه: أكان الأمر حقًا هكذا؟).

لقد كانت النهاية الحقيقية مطابقة تمامًا للنهاية المخترعة حتى اللحظة التي ولجَ فيها إرب غرفة المعيشة، ووضع صندوقه، ووجّه إليهم التحية بابتسامة مُحرجة. كلا، لم تبلغ الأمور هذا المدى؛ لأن كاتارينا كانت قد تعلّقت به وأحكمت ساعديها حول رقبته، حتى أصابه احتباسُ الهواء بحمرة الوجه ذاتها التي أصابَتْها من الفرح. لم تكن بعدُ قادرةً على النطق بشيء، وكل ما كان بوسعه أن يقوله هو: أجل، أجل، أجل. كما لو أنها قد سألته عما إذا كان يعتزم البقاء، وهو سؤال لم توجّه إليه إلا فيما بعدُ، عقب أن مرَّ وقتٌ طويل على سؤالٍ آخر ردّدته ثلاث مرات عما أحضره لها من هدايا. ولم تظهر على وجه بيتير الشاحب عاطفةً ما، فظل يتطلّع بعينين نصف منفرجتين إلى الشمس الغاربة حتى انتهى استقبال أخته العاصف، فاقترب من أبيه، وأعطاه القبلّة الإيجابية، وأراد أن يعرف ما إذا كان يتعيّن عليه الآن أن يعود إلى غرفته الأصلية. وخلال هذا كله كانت إليزابيث تجلس إلى المائدة متصلّبة صارمة، في انتظار تحية رقيقة، تُعوّزها اللباقة، ستُضطرّ إلى صدها رغم وجود الطفلين، وأخيرًا قالت، عندما اقتصر كارل على مصافحتها: «ألا تريد أن تأكل شيئًا؟» ولم تزد لوقتٍ طويل، منذ كان كارل يتحدث مع الطفلين أو بالأحرى يدفعهما إلى الحديث بابتداع الأسئلة لهما، الكثير من الأسئلة، خوفًا من أن يوجّها إليه بعضًا منها. وفيما بعدُ جلس طويلًا إلى جوار فراش كلٍّ منهما ووعد (وقد لانت عريكته) بتحقيق ما يريدانه؛

لكاتارينا زيارة بالسيارة لبلدة لم ترها من قبل، ولييتر تحويل المخزن العلوي إلى غرفة خاصة به، ولكليهما الرحلة اليومية بالسيارة إلى المدرسة.

لم يكن ثمة أثرٌ لإليزابيث في غرفة المعيشة. قالت: «ادخل.» بلهجةٍ أوضحت أن طريقه الباب قبل دخول غرفتها أمرٌ بدهي. كانت تجلس إلى المكتب. سألتها: «لديك مكتب؟»، وبعد بُرهة: «هل يروقُ لك عملك الجديد؟» - «أجل.» - «يسُرني أن أسمع ذلك، لكنني أُمَلُّ أن تعلمي أن هذا ليس ضروريًا.» - «بل ضروري.» - «أعني بالنسبة للنقود؛ فالطفلان يحتاجان إلى كل وقتك.»

بدا لها الصمت أفضل إجابة. لكنه، الذي لا يعرف بعدُ إليزابيث الجديدة، اعتبر ذلك استغراقًا في التفكير، وشعر أن الوقت قد حان كي يشرح لها كل شيء بأمانة تامة، دون أعذار، وبدون إعفاءٍ لأحدٍ من اللوم.

والواقع أنه لم يُعِف أحدًا (فيما عداه)، لقد أدرك فجأة كل شيء على وجه الدقة، ورهنَ يده نظريةً تتيح له تجنب استخدام ضمير المتكلم المفرد، ورواية كل شيء من خلال الحديث عن «المرء»، لم يُعِغ بالتأكيد عمق تجربته الغرامية، بل أكَّده، ورفعها إلى قمم روحية غامضة (صار فيها الشخصية الرئيسية في ملحمته، البطل، شبيه الله) لأن عمق مشاعره الذي لا يُقاس بمقاييس الحياة اليومية، هو بالضبط الذي حال دون ازدهارها في حياة كل يوم، كانت السلسلة الذهبية أثقلَ من أن تحتمل أكثر من ذلك، وصار العُش الذي نسجه بنفسه، أكثر ضيقًا، أكثر تقييدًا، يمنع كل حركة، والحياة مع حبٍّ كهذا ليست ممكنةً إلا إذا كانت من أجل هذا الحب وحده، ومن يسعُه ذلك؟ يضع المرء الفخاخ للآخرين وإذا به يقع فيها، حتى لم يعد أمام المرء في النهاية غير مخرج واحد؛ الهروب العنيف، وقد قام بذلك، ورغم جراح المرء النازفة فإنه يعرف أنه قام بما هو صواب، ثم إن المرء من كبر السن بحيث يدرك الدور الشافي للزمن. «صدِّقيني: سرعان ما أعود إلى سالف عهدي.» - «تمامًا.» لم يفهم ما عنته إليزابيث بهذا الرد، الذي لم يوضِّح له في ذلك الحين.

لكن ثمة وفرة من الوقت لهذا بعد نهاية كتابنا، الذي لن يطيل أكثر من ذلك لا ليصف ساعتين، ساعتين من ذات مساء (غير بارد ورطب بل دافئ ورائق) على نهر شبريه، عندما أخذ الطفلان إلى النوم، وعكفت إليزابيث على دُرُس تاريخ الفن (وهي لا تني ترفع عينَيها عن الكتاب إلى الجدار) ثم رقدت في فراشها يَقطَّة تفكَّر في بهجة الطفلين، بينما كان كارل (لأول مرة منذ نهاية الحرب) قد أعدَّ فراشه (أريكة حجرة المعيشة)، ووقف في الشرفة ببجامة، محدِّقًا إلى القمر، مصغيًا لبعض مجذَّفي القوارب المتأخرين في العودة

يُغْنُون كي يحتفظوا بشجاعتهم في الظلام (دون أنوار). ثم تفقَّذت الذرة والجمَّص مكان النجيلة السابقة، وتسَلَّ أخيراً إلى المنزل وطرق باب إليزابيث: «ماذا هناك؟» جذب المقبض إلى أسفل، لكن الباب كان مغلقاً بالمفتاح. «أردتُ فحَسْب أن أسألك عن موعد خروجك في الصباح.» - «قبلك. طابت ليلتك.» قالت ذلك بصوتٍ مرتفع، ثم أضافت بصوتٍ خافت لنفسها: لولا الطفلان لعرفتُ ماذا أفعل، الطفلان فقط هما السبب الحقيقي. وعندئذٍ انقضَّت الساعتان، ولا بُدَّ من نهاية في مكانٍ ما دام الأبطال لا يموتون (ولا يبدو هناك احتمال لذلك مع أبطالنا هؤلاء).

لعلها فكَّرت أيضاً: يا للفضاعة! أن يكون هنا غريبٌ في المنزل. أو: لماذا لا يملك المرء أن يتغيَّر؟ هل أستطيع؟
ربما. لكن من يفهم إليزابيث؟

